جائزة القراء 2015

رومان بيرتولاس



@ketab_n
Follow Me

16.12.2016

الرحلة العجيبة للفقير الذي ظلّ حبيساً في خزانة ايكيا



رومان بيرتولاس

الرحلة العجيبة للفقير الذي ظلّ حبيساً في خزانة ايكيا

رواية

ترجمة: حسين عمر



رومان بيرتولاس

الرحلة العجيبة للفقير الذي ظلّ حبيساً في خزانة ايكيا

نالت هذه الرواية جائزة القراء في فرنسا لعام 2015:

Prix des lecteurs
Sélection 2015

العنوان الأصلي للرواية:

Romain Puértolas
L'extraordinaire voyage
du fakir qui était resté coincé
dans une armoire Ikea

الكتاب

الرحلة العجيبة للفقير الذي ظلّ حبيساً في خزانة ايكيا

تأليف

رومان بيرتولاس

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-817-6

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

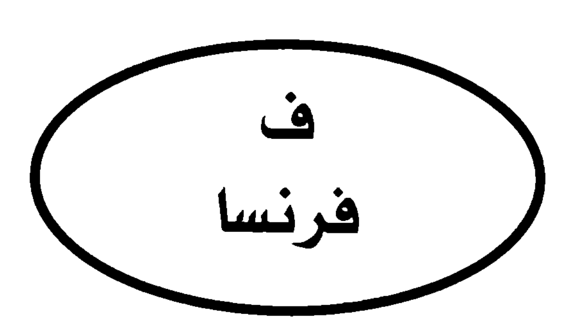
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى ليو وإيفا، أجمل أعمالي.

إلى باتريسيا، أجمل رحلة في حياتي.

في أعماقي، أؤمن بأنّ الأرض كروية،
لسببٍ وجيهٍ وحيد...
بعد القيام بجولةٍ حول العالم،
كلّ ما يتمنّاه المرء هو أن يكون في البيت.
أوريلسان

القلب يشبه إلى حدٍّ ما خزانة ضخمة.
آجاتاشاترو لافاش باتيل


ف
فرنسا

كانت أوّل كلمة نطق بها الهندي آجاتاشاترو لافاش باتيل، لدى وصوله إلى باريس، يا للعجب، كلمة سويدية!

ايكيا(*).

هذا هو ما نطقه بصوتٍ خفيضٍ وهامس.

نطق بتلك الكلمة ومن ثمّ أغلق باب سيارة المرسيدس القديمة حمراء اللون وانتظر بهدوء، وقد وضع يديه على ركبتيه الناعمتين كما لو أنّه ولدٌ وديع.

لم يكن سائق سيارة الأجرة متأكّداً من أنّه قد سمع جيّداً ما نطق به زبونه، فاستدار نحوه، الأمر الذي أدّى إلى أن تُصدر الكريات الخشبية الصغيرة لغطاء مقعده صريراً حادّاً.

رأى على المقعد الخلفي لسيارته رجلاً متوسط العمر، طويل القامة، جافّ العود وأعجر مثل شجرة، في وجهه الكامد شاربان كثيفان جدّاً. كانت ندوبٌ، هي عبارة عن آثار حبّ شباب فتّاك، تظهر على وجنتيه الغائرتين. كانت هناك عدّة حلقات في أذنيه وفي شفتيه، كما لو أنّه.كان يريد أن يُغلق فمه وأذنيه بعد كلّ استخدام

(*) سلسلة متاجر للمفروشات والأثاث المنزلي. - المترجم -

على طريقة سحّاب. أوه، يا لجمال هذا النظام! فكّر غوستاف بالورد، الذي رأى في ذلك دواءً مدهشاً لثرثرات زوجته الدائمة.

كانت بزّة الرجل الحريرية الرمادية اللون واللماعة وربطة عنقه الحمراء اللون، والتي لم يكن قد تحمّل عناء عقدها وتركَها مدلاة حول رقبته وقميصه الأبيض المدعوك على نحوٍ فظيع تشهد على أنّ الرجل قد قطع رحلةً من عدّة ساعات على متن طائرة.

ولكن الأمر الغريب هو أنّه لم يكن يحمل أمتعةً معه.

حينما شاهد سائق سيارة الأجرة العمامة البيضاء الضخمة التي تلفّ رأس زبونه، فكّر في نفسه قائلاً: إمّا أنّ الرجل هندوسي أو أنّه تلقى ضربة قاسية على جمجمته. ولكنّ وجهه الكامد بشاربيه الكثيفين كان يرجّح بأنّه هندوسي.

- ايكيا؟

ردّد الرجل الهندي وهو يميط بالحرف الصوتي الأخير من الكلمة:

- ايكيا.

غمغم غوستاف بكلمات إنجليزية وهو يشعر بأنّه يتحدّث اللغة الإنجليزية بحرِّيةِ كلبٍ يجري على حلبة تزلّجٍ:

- أيّ ايكيا؟ Heu.. What Ikea? (أيّ ايكيا؟).

هزّ الراكب كتفيه كما لو أنّه يريد القول بأنّه لا فرق لديه بين متاجر ايكيا. فكرّر على مسامع سائق السيارة عبارة غير مفهومة:

- دجوزتيكيا (*Djeustikea*).

أحسّ السائق بأنّه سمع عبارة:

dontmatazeoanezatbetasiutyayazeparijan. سلسلة كلمات مبهمة مثل ثغثغة طفلٍ يلهج بأحرفٍ حنكية غير مفهومةٍ. ولكن سواء كانت

تلك أحرف حنكية أم لا، خلال الثلاثين عاماً التي كان يعمل فيها سائقاً عند شركة جيتان لخدمة سيارات الأجرة، كانت هذه هي المرّة الأولى التي يطلب فيها منه زبونٌ خرج لتوّه من بهو المسافرين 2C في مطار شارل ديغول أن يقوده إلى متجرٍ للأثاث المنزلي. فالسائق لم يكن يتذكّر بأنّ متجر ايكيا قد افتتح حديثاً سلسلة فنادق باسمه.

كانت لدى غوستاف قائمة بطلبيات غير عادية، ولكن هذه الطلبية كانت الأكثر أهمية وغرابة. إذا كان هذا الصبي قد قَدِم فعلاً من الهند، وبالتالي لا بدّ أنّه قد دفع مبلغاً لا بأس به من المال وأمضى ثماني ساعات في طائرة، وكلّ هذا بهدفٍ وحيد ألا وهو شراء رفوف من طراز بيلي أو أريكة من طراز بوانغ. تُرفَع له القبّعة! أو بالأحرى هذا أمرٌ لا يُصدّق! كان عليه أن يدوّن هذه الحادثة في سجلّ كتابه الذهبي، بين ديمس روسوس وسلمان رشدي اللذان منحاه ذات يوم شرف وضع مؤخرتهما المهيبة على مقعد سيارته المنجّد بجلد الفهد، والذي لم ينسَ أن يروي هذه الحكاية لزوجته في ذلك المساء أثناء تناول العشاء. ولأنّه لم يكن لديه عموماً ما يقوله، فإنّ زوجته التي لم يكُن فمها قد زُوِّد بعد بسحابٍ هندي هي التي استأثرت بالحديث على المائدة في حين كانت ابنتهما ترسل نصوصاً مَشوبة بأخطاءٍ إملائية إلى شابّاتٍ من عمرها لا تُجدنَ حتى القراءة. لا بدّ أنّ هذا الأمر سيتغيّر بعض الشيء ذات مرّة.

- حسناً!

كان سائق سيارة الأجرة العائدة لشركة جيتان، والذي كان قد أمضى آخر ثلاث عطل نهاية الأسبوع في التجوال برفقة السيّدات المعنيات في ممرّات المتجر السويدي الزرقاء والصفراء اللون، بهدف تأثيث القسم العائلي الجديد، كان يُدرك جيّداً بأنّ متجر ايكيا

الأقرب هو المتجر الموجود في رواسي في شمال باريس، والذي يقع على مسافة تكلّف 8,25 يورو فقط من مطار شارل ديغول.

فوقع اختياره على متجر ايكيا في منطقة باريس سود تييه (Paris Sud Thiais)، الواقع في الاتجاه المعاكس، على الطرف الآخر من العاصمة، والذي يستغرق الوصول إليه ثلاثة أرباع الساعة من المكان الذي يوجدان فيه الآن. في نهاية المطاف، يريد السائح الذهاب إلى أحد متاجر ايكيا.

وهو لم يحدّد أي متجرٍ منها يريد. ثمّ إنّه ببزّته الحريرية الجميلة وربطة عنقه الفاخرة، عليه أن يتصرّف كثريٍّ صناعيٍّ هندي. لم يكُن بحاجة إلى بضع عشرات من اليوروهات، أليس كذلك؟

مبتهجاً بتصرّفه، حسب غوستاف كم ستدرّ عليه توصيلته هذه وفرك يديه مبتهجاً بذلك. ثمّ ضغط على زرّ عدّاد المسافة وأقلع بسيارته.

في محصّلة الأمر، بدأ النهار بداية حسنة.

كان الفقير في حالته، آجاتاشاترو لافاش (الفظوا: *J'attache ta charrue, la vache* «أربِط محراثك، أيتها البقرة»)، قد عقد العزم على أن يسافر بصفة غير رسمية وباسمٍ مستعار في أوّل زيارةٍ له إلى أوروبا. وبهذه المناسبة، كان قد استبدل «زيّه الموحّد»، الذي كان يتكوّن من وزرةٍ على شكل حفاض كبير الحجم لطفلٍ حديث الولادة، ببزّة رسمية من الحرير اللمّاع وربطة عنقٍ كان قد استأجرهما لقاء مبلغٍ زهيد من دجامال (الفظوا: *J'ai mal* «أنا أتألّم»)، وهو رجلٌ مسنّ من القرية كان قد مثّل في شبابه إعلاناً لماركة شهيرة من الشامبوان وكان الرجل لا يزال يحتفظ من تلك المرحلة ببعض الأقراط الجميلة المائلة إلى اللون الرمادي. من خلال ارتدائه تلك البزّة الرسمية، التي سوف يحتفظ بها طيلة اليومين اللذين سوف تستغرقهما مغامرته، أراد الرجل الهندي على نحوٍ خفيّ أن يُعامَل على أنّه صناعي هندي ثري، إلى درجة أنّه لم يرتدِ ثياباً مريحة، من قبيل سترة رياضية وصنادل خفيفة، في رحلة برية تستغرق ثلاث ساعات بالحافلة وأخرى جوية تستغرق ثماني ساعات وخمس عشرة دقيقة. في نهاية المطاف، كان الظهور في صورة مختلفة عن حقيقة

مهنته، فقد كان فقيراً(*). لأسبابٍ دينية، لم يكن قد احتفظ بأيّ شيء سوى عمامته على رأسه. وكان يدسّ تحتها بلا كللٍ شعره الذي كان يعتبره الآن بطول أربعين سنتيمتراً تغزوه ثلاثون ألف روح من الميكروبات والقمل.

حينما دلف إلى سيارة الأجرة يومذاك، كان آجاتاشاترو (الفظوا: *Achète un chat roux* «اشترِ قطّاً أصهب») قد لاحظ في الحال أنّ زيّه قد مارس بعضاً من التأثير على الرجل الأوروبي، وهذا على الرغم من عقدة ربطة عنقه التي لم يحسن لا هو ولا ابن عمّته أن يعقداها بشكلٍ مناسبٍ، حتى بعد الشروحات والتعليمات الواضحة ولكن أيضاً المرتجفة التي وجّهها دجامال المُصاب بمرض الباركنسون، الأمر الذي جعلهما يربطانها بدبّوسٍ، وهو تفصيلٌ ما كان لأحدٍ أن يلاحظه وسط تلك الأناقة الساطعة. لم تكن نظرة خاطفة في المرآة العاكسة للسيارة كافية للتأمّل في ذلك الجمال الأخّاذ، فالتفت السائق الفرنسي من على مقعده لكي ينظر إليه على نحوٍ أفضل، مطقطقاً على نحوٍ صاخب فقرات رقبته كما لو أنّه يتهيّأ لتحقيق رقمٍ قياسي في حركة التواء الرقبة.

- ايكيا؟

- ايكيا!!!!.

(*) فقير: لفظة فقير في الهند تُطلق على زهّاد يستعملون تمتمات مقدّسة. والصورة النمطية للفقير هو أن يمضي حياته شبه عار، ويمشي حافي القدمين على الجمر المتّقد، وينام على سرير من المسامير، ويرتفع جالساً في الهواء، ولا يأكل ولا يشرب. وهؤلاء الزهاد يقلّدهم الكثير من متسولي الشوارع البسطاء في الهند وباكستان ممّا جعل كلمة فقير تدخل لغتَي الأوردو والهندية كمرادف لمتسوّل. - المترجم -

غمغم السائق، وبدا واضحاً بأنّه يتحدّث الإنجليزية بحرية بقرة (مقدّسة) تسير في حلبة للتزلّج:

- أيّ ايكيا؟ ?Heu.. What Ikea (أيّ ايكيا؟)

- Just Ikea. Doesn't matter. The one that better suits you. You're the Parisian.

(ايكيا وحسب. لا يهمّ. أي ايكيا يناسبك على نحوٍ أفضل. أنت هو الباريسي).

فرك السائق يديه ببعضهما مبتهجاً وابتسم ومن ثمّ انطلق بسيارته.

لقد عضّ على الصنّارة، فكّر في نفسه آجاتاشاترو (الفظوا: *J'ai un tas de shorts à trous* «لديّ كدسٌ من السراويل القصيرة ذات الثقوب»). في النهاية، كانت هيئته الجديدة تخدم رسالته العجيبة والرائعة.

مع قليلٍ من الحظّ، ولو لم يكن لديه الكثير ممّا يقوله، كان يمكن اعتباره أحد السكان الأصليين.

كان آجاتاشاترو ذائع الصيت والشهرة في كلّ أنحاء راجستان بكونه يبتلع السيوف القابلة للإخفاء ويتناول قطعاً زجاجية من السكّر الخالي من الحريرات ويغرز دبابيس مزيّفة في ذراعيه وبمجموعة أخرى من الحركات والاستعراضات المشعوذة التي يعرف هو وحده، بالإضافة إلى أبناء عمومته، سرّها والتي يمنحها عن طيب خاطر اسم السلطات السحرية لسحر وافتتان الحشود الجماهيرية.

أيضاً، حينما اضطرّ لأن يدفع أجرة السيارة، والتي ناهزت 98,45 يورو، مدّ صاحبنا الفقير الورقة النقدية الوحيدة التي كانت بحوزته لقضاء كلّ رحلته، وكانت عبارة عن ورقة نقدية مزوّرة من فئة مائة يورو، مطبوعة من وجهٍ واحدٍ فقط، وهو يقوم في الوقت ذاته بحركة لا مبالية للسائق لكي يقول له بأنّه يستطيع الاحتفاظ ببقية المبلغ.

في اللحظة التي كان سائق سيارة الأجرة يدسّ الورقة النقدية المزوّرة في محفظة نقوده، كان آجاتاشاترو يبتهج بالإشارة بسبابته إلى الأحرف الكبيرة الصفراء اللون ا - ي - ك - ي - ا التي كانت تتربّع مزهوّة على المبنى أزرق اللون. رفع سائق سيارة شركة جيتان نظره إلى السماء لوقتٍ كافٍ لكي يتمكّن زبونه من أن يسحب بخفّة

ورشاقة الخيط البلاستيكي غير المرئي الذي كان يربط إصبعه الصغير بالورقة النقدية زرقاء اللون. خلال جزءٍ من الثانية، أصبحت الورقة النقدية من جديد في حوزة مالكها الأصلي.

قال السائق وهو يعتقد أن الورقة النقدية تستقر في محفظة نقوده:

- تفضّل! ها هو رقم هاتف الوكالة التي أعمل لديها. في حال احتجتَ إلى سيارة أجرة من أجل العودة، يمكنك الاتصال وطلب سيارة. لدينا سائقون للشاحنات الصغيرة أيضاً، إذا كان لديك حمل لنقله. الأثاث المنزلي حتى ولو كان عبارة عن قطع تركيبية يحتاج إلى مكان واسع، صدّقني.

لم يعرف فيما إذا كان الرجل الهندي قد فهم شيئاً ممّا قاله. نبش في العلبة الأمامية لقمرة السيارة وأخرج منها بطاقة صغيرة من الورق المقوّى الصقيل وقد بدت عليها صورة راقصة فلامنكو تنكشف بالقبعة المثلّثة القرون البلاستيكية البيضاء الشهيرة الموضوعة على سقف سيارة الأجرة. مدّ نحوه البطاقة.

قال الرجل الغريب باللغة الفرنسية:

- شكراً لك.

ما أن اختفت سيارة المرسيدس حمراء اللون التابعة لوكالة جيتان، دون أن يفهم المشعوذ، الذي اعتاد ألّا يخفي سوى الفيلة الهندية ذات الآذان الصغيرة، شيئاً، دسّ آجاتاشاترو البطاقة في جيبه وتفحّص المنشأة التجارية الضخمة الممتدّة أمامه.

في عام 2009، كانت شركة ايكيا قد تخلّت عن فكرة افتتاح أولى متاجرها في الهند، حيث كان القانون المحلي يفرض على المدراء السويديين تقاسم إدارة منشآتهم مع مدراء من أصلٍ هندي،

وهم مساهمون لا حاجة إلى أغلبهم، الأمر الذي أدى إلى نفور العملاق السويدي. ما كانت لتتقاسم مورد الثراء والغنى مع أحد فما بالك مع سحرة الثعابين من ذوي الشوارب الكثّة من هواة الهزليات الموسيقية التقليدية.

بالتوازي مع هذا، كان الزعيم العالمي لعالم المفروشات قد أقام شراكة مع منظمة اليونيسيف(*) بغية مكافحة عمل واستعباد الأطفال. وكان المشروع، الذي يشمل خمسمائة قرية في شمال الهند، قد سمح بإنشاء العديد من مراكز الصحّة والتغذية والتربية في عموم الإقليم.

كان آجاتاشاترو قد حطّ في واحدة من هذه المدارس بعد أن طُرِد، بقسوة وعنف ومنذ أوّل أسبوع له في العمل، من بلاط المهراجا ليغرو سينغ لي (الفظوا: *Le gros cinglé* «الأبله الضخم») الذي كان قد قدِمَ إليه ليعمل كفقيرٍ - مهرّج. كان قد ارتكب مصيبة سرقة قطعة خبز بالسمسم، مدهونة بالزبدة الخالية من الكولسترول وعنقودين من العنب. الحاصل، أنّه قد عانى من الجوع.

وكعقابٍ له على فعلته، حُلق أوّلاً شاربه، وهو عقاب قاسٍ بحدّ ذاته (على الرغم من أنّ هذا العقاب قد أعاد إليه شبابه)، ثمّ عُرِضَ عليه أن يختار بين الحبس مع الأطفال المحبوسين على ذمّة السرقة أو بسبب ارتكاب الجُنَح في المدارس، أو أن تُبتَر يده اليمنى. في نهاية المطاف، لا يخشى الفقير لا الألم ولا الموت...

أمام الدهشة الكبرى لجمهوره، الذي كان قد اعتاد أن يشاهد

(*) منظمة يونيسيف: منظمة الأمم المتحدة للطفولة. منظمة دولية تهتمّ بالطفولة، تأسست في 11 ديسمبر 1946. - المترجم -

أعمال التشويه من كلّ صنف (غرز أسياخ شوي اللحم في ذراعيه، أشواك الطعام في خدّيه، سيوفاً في بطنه)، كان آجاتاشاترو قد رفض خيار بتر اليد واختار الخيار الثاني.

سأله رجلٌ باللغة الفرنسية:

- اعذرني، يا سيّد، كم الساعة، من فضلك؟

قفز الرجل الهندي من مكانه. كان رجلٌ أربعيني يرتدي معطفاً رياضياً وينتعل صنادل خفيفة يقف أمامه، ليس دون صعوبة، وأمامه عربة محمّلة بما يُقارب عشرة صناديق كرتونية، وحده بطلٌ في رياضة التيتريس، أو شخص مضطرب عقلياً، يمكنه أن يصفَها بهذه الطريقة.

بالنسبة إلى آجاتاشاترو، كان السؤال عبارة عن جملة صوتية لا معنى لها. باختصار لم يفهم الرجل الهندي معنى للسؤال فلم يكُن بوسعه أن يعطي أيّ جواب سوى كلمة ماذا باللغة الإنجليزية، وات، WHAT؟

حينما أدرك الرجل بأنّه أمام شخصٍ أجنبي، ربّت على معصمه الأيسر بطرف سبابته اليمنى. فهم الفقير الهندي في الحال بأنّ الرجل يسأله عن الوقت، فرفع رأسه إلى السماء، ولأنّه كان قد اعتاد أن يقرأ في الشمس الهندية، أعطى الوقت للرجل الفرنسي بفارقٍ في التوقيت من ثلاث ساعات وثلاثين دقيقة. أدرك مخاطبه، الذي كان يفهم الإنجليزية أكثر ممّا يتكلّم بها، بأنّه قد تأخّر كثيراً على موعد جلب الأطفال من المدرسة في استراحة الظهيرة واستأنف جريه المجنون باتجاه سيارته.

وهو يُشاهد الناس يدخَلون إلى المتجر ويخرجون منه، لاحظ الرجل الهندي أنّ عدداً قليلاً جدّاً من الزبائن، بل لا أحد على الإطلاق، يرتدي ثياباً شبيهة بثيابه، وهي عبارة عن بزّة من الحرير

اللمّاع. ناهيك عمّنْ يرتدي مثله عمامةً. كان ذلك محبطاً للفقير الهندي. تمنّى ألّا يُعرّض هذا الأمر كلّ مهمّته للخطر. ربّما كانت هيئته وهو يرتدي المعطف الرياضي وينتعل الصندلين لتُلائمه أكثر بما لا يُقاس. ما أن يعود، سوف يتحدّث عن ذلك لابن عمّته جامليداناب (الفظوا: *J'aime le Dan'Up* «أنا أحبّ دان آب»). هو مَن أصرّ على أن يرتدي الفقير هذه الثياب.

راقب آجاتاشاترو لبرهة الأبواب الزجاجية للمتجر وهي تنفتح وتنغلق أمام عينيه. كان كلّ ما يعرفه عن تجربة الحداثة هي مشاهداته في أفلام الهوليوود على التلفاز في بيت أمّه بالتبنّي، سيهرينغ (الفظوا: *Seringue* «محقنة» أو *TheRing* بالنسبة إلى الناطقين باللغة الإنجليزية). تفاجأ كثيراً بأن رأى تلك الزخارف، التي كان يعتبرها مباهج التكنولوجيا الحديثة، على ابتذالٍ مكربٍ بالنسبة إلى الأوروبيين الذي لم يعودوا يعيرونها حتى أدنى انتباهٍ. لو كان لديهم هذا الطراز من التجهيزات في كيشانيوغور (الفظوا: *Quiche au yoghourt* «حلوى الكيش باللبن»)، لتأمّل في كلّ مرّة بالتأثّر نفسه الأبواب الزجاجية لمعبد التكنولوجيا هذا. الفرنسيون ليسوا سوى أطفالٍ مدلّلين.

ذات يوم، بينما لم يكن قد بلغ من العمر سوى عشرة أعوام، وقبل أن تظهر في قريته أولى علامات التقدّم، قال له مغامرٌ إنجليزي وهو يعرض عليه قدّاحة: «كلّ تكنولوجيا متطورة بما فيه الكفاية لا تنفصل عن السحر». لم يفهم الطفل مغزاه في الحال. فشرح له الرجل آنذاك قائلاً بأنّ «هذا يعني بكلّ بساطة بأنّ الأشياء التي تكون بالنسبة إليّ تافهة قد تبدو بالنسبة إليك شيئاً من السحر، كلّ شيء يتعلّق بدرجة تطوّر التكنولوجيا في المجتمع الذي تنمو وتترعرع فيه».

فالتمعت شراراتٌ صغيرة على إبهام الرجل الغريب قبل أن تولد شعلة زرقاء اللون جميلة، ساخنة ووضّاءة. وقبل أن يسافر الرجل، ترك له هديّةً، لقاء معروفٍ غريب سوف نتحدّث عنه أكثر لاحقاً، تلك القدّاحة السحرية التي لم تكن معروفة بعد في القرية الصغيرة التائهة على أطراف صحراء تارتار(*)، والتي أدّى آجاتاشاترو بوساطتها أولى أعمال شعوذته وأشبع بها رغبته في أن يصبح فقيراً. كان قد شعر آنذاك بالشعور الغريب نفسه الذي أحسّ به عشية ركوبه الطائرة. كانت تجربة لا تُصدّق بالنسبة إليه وهو الذي لم يكن قد ارتفع قطّ عن أرضية البقرات (المقدّسة) لمسافة أعلى ممّا كانت تلك الآلة المخفيّة ببراعة تحت ردفيه تسمح له خلال عروضه العامّة العديدة، أي عشرون سنتيمتراً، حينما يكون كلّ شيءٍ على ما يُرام. وقد أمضى الجزء الأكبر من الليل في النظر من خلال كوّة الطائرة فاغراً فمه إلى درجة كاد فكّه أن ينخلع.

أخيراً، حينما استُقبِل استقبالاً حسناً على عتبة الأبواب الدوّارة، قرّر الفقير الهندي أن يدخل إلى المتجر. يا لها من مفارقة! قال الهندي في نفسه حينما وقع بصره على روضة الأطفال التي كانت موجودة في بهو المدخل. كانت شركة ايكيا قد أنشأت مدارس ومراكز لإيواء الأيتام ورعايتهم ولكنها لم تكن قد أنشأت متجراً واحداً للأثاث المنزلي! وهذا ما تطلّب منه أن يقوم برحلة تستغرق لأكثر من اثنتي عشرة ساعة، باستخدام الحافلة والطائرة، لكي يأتي

(*) صحراء تارتار (Tharthar): يقتبس الكاتب هنا اسم صحراء طهار (Thar) وهي صحراء الهند الكبرى بمساحة صحراوية تجاوز 200 ألف كيلو متر مربع. - المترجم -

إلى هنا ولم يتبقَّ له الكثير من الوقت لكي ينجز مهمّته على أكمل وجه. إذ كانت طائرته سوف تُقلع صباح اليوم التالي. أسرع الخطى وصعد الدرج الواسع المغطّى بالمشمّع أزرق اللون والذي كان يقود إلى الطابق العلوي.

بالنسبة إلى شخصٍ قادمٍ من بلد غربيٍ ذي ميولٍ ديمقراطية، كان السيّد ايكيا قد طوّر مفهوماً تجارياً غير مألوفٍ على أقلّ تقدير: الزيارة القسرية إلى متجره.

بهذه الطريقة، إذا أراد الزبون أن يصل إلى قسم الخدمة الذاتية في الطابق الأرضي، كان يضطرّ لأن يصعد إلى الطابق الأوّل، ويسلك درجاً عملاقاً وممرّاً طويلاً جداً يتعرّج بين غرفٍ وصالونات ومطابخ كلّ منها أجمل من الأخرى وأن يمرّ أمام مطعمٍ مُغرٍ ويتناول بضع كبيبات من اللحم أو بضع لفائف بالسلمون ومن ثمّ ينزل ثانية إلى قسم المبيعات لكي يتمكّن في النهاية من شراء طلباته. إجمالاً، حينما يأتي شخصٌ لكي يشتري ثلاثة براغي ومسمارين كبيرين يخرج من المتجر بعد أربع ساعات بعد أن يكون قد أفرط في تناول ما لذّ وطاب من الطعام إلى حدّ التخمة.

السويديون، الذين كانوا أشخاصاً في غاية النباهة والفطنة، كانوا قد أحسنوا التدبير بأن رسموا خطّاً أصفر اللون على الأرض لكي يحدّدوا الطريق الذي يجب سلوكه في حال راودت أحد الزوّار الفكرة السيئة في أن يخرج عن الدروب المعتادة والمشروعة ويتجاوز الأصول والقوانين المتّبعة في المتجر. بالتالي، وطيلة الوقت الذي

أمضاه آجاتاشاترو في الطابق الأوّل، لم يجِدْ قطّ عن هذا الخطّ المرسوم، معتقداً أنّ ملوك الأثاث المنزلي المنجور من خشب الصنوبر قد نصبوا بالتأكيد قنّاصين في أعلى الرفوف بغية إجهاض أي محاولة هروب من خلال القنص الفوري لأيّ زبونٍ تراوده رغبة مفاجئة في الحرية.

أمام بهاء المعرض الفائق الجمال، راودت صاحبنا آجاتاشاترو، الذي لم يكن قد عرِف إلى ذلك الحين سوى تقشّف مساكنه الهندية المتواضعة، راودته بكلّ بساطة الرغبة في أن يختار الإقامة في المتجر الراقي، وأن يجلس إلى طاولة من طراز انغاتورب ويتناول عليها طبقاً شهيّاً من الدجاج التندوري(*) المقدّم من فتاة سويدية ترتدي مريولاً باللونين الأصفر والأزرق، وأن يندسّ بين شراشف وأغطية سموربول لتلك الفرش المضغوطة الناعمة والملساء من طراز سولتان فافانغ لكي يأخذ قيلولة، بل وأن يتمدّد في مغطس الحمّام ويفتح صنبور الماء الساخن لكي يرتاح قليلاً من آثار رحلته المتعبة والشاقّة.

ولكن، مثلما كان الأمر بالنسبة إلى حيله السحرية، كان كلّ شيء زائفاً هنا. فالكتاب الذي اقتناه بالصدفة من مكتبة بيللي كان عبارة عن قالبٍ بلاستيكيّ مبتذل تمّ تغليفه بغلافٍ غريب، وجهاز التلفزيون الموجود في الصالون كان مزوّداً بالمعدّات الإلكترونية بقدر حوضٍ لتربية الأسماك، ولم تكن ترشَح من صنبور مغطس الحمّام قطرةٌ واحدة من الماء الساخن (ولا حتى البارد) لكي يملأ به المغطس.

(*) دجاج تندوري: طبق شعبي يشتهر في الهند وجنوب آسيا يتألف من الدجاج المشوي، واللبن الزبادي، والتوابل. - المترجم -

ومع ذلك، نمَت في رأسه فكرة قضاء الليلة هنا. ففي نهاية المطاف، لم يكن قد حجز غرفةً في فندق، لعدم امتلاكه المال المطلوب لذلك، وكانت طائرته سوف تُقلع نهار اليوم التالي في الساعة الواحدة من بعد الظهر. علاوة على ذلك، لم يكن بحوزته سوى ورقته النقدية الشهيرة المزوّرة من فئة المائة يورو، التي كان قد احتفظ بها لشراء السرير، وحيلة الخيط البلاستيكي غير المرئي لم تكن تسير إلى ما لا نهاية.

بعد أن ارتاح لمعرفة مكان نومه هذا المساء، كان بوسع آجاتاشاترو الآن أن يركّز على تنفيذ مهمّته.

لم يكن آجاتاشاترو قد رأى في حياته مثل هذا الكمّ الهائل من الكراسي ومن ملاقط السباغيتي ومن المصابيح. هنا، في متناول اليد، كانت الأشياء من كلّ صنف تمتدّ بإفراطٍ وإسراف أمام عينيه الذاهلتين. كان يجهل وظيفة الكثير من تلك الأشياء والغاية من استخدامها، ولكن هذا الأمر لم يكن ذو أهمية كبيرة بالنسبة إليه.

كمية البضائع المعروضة هي ما بَلبل ذهنه وشوّشه. كانت أشبه بمغارة علي بابا حقيقية. حيث البضائع المعروضة في كلّ مكانٍ من المتجر. لو كان جاره حاضراً معه هنا، لقال له «انظر إلى هذا! ومن ثمّ هذا! وهذا أيضاً!» وهو يقفز من جناحٍ للعرض إلى آخر مثل طفلٍ صغير يلمس كلّ ما هو موجود في المتجر. ولكنّه كان لوحده، وبالتالي لم يكن بوسعه أن يردّد عبارات من قبيل «انظر إلى هذا! ومن ثمّ هذا! وهذا أيضاً!» إلّا في نفسه، كما لم يكن بوسعه أن ينتقل على عجلٍ من جناحٍ للعرض إلى آخر مثل طفلٍ صغير يلمس كلّ ما هو موجود في المتجر تحت طائلة اعتباره مجنوناً يحدّث نفسه. في قريته، كان يتم ضرب المجانين بعصّي طويلة من الخشب. ولم يكن يرغب في أن يعرف فيما إذا كان مصيرهم في فرنسا أفضل حالاً ممّا هو في قريته.

ذكّرته تلك الزبادي وتلك المصابيح بطريقة ما بأنّه قادمٌ من عالم مختلفٍ تماماً. ويمكن القول بأنّه لو لم يأتِ إلى هذا المكان، لَمَا علم بوجودِ هكذا مكان! سوف يكون عليه أن يروي كلّ هذا بالتفصيل لجاره. فقط لو كان معه هنا. لا يستفيد المرء كثيراً من الأشياء والاكتشافات حينما يكون لوحده. وغالباً ما يجعل حنينها أكثر المناظر سحراً منظراً فقيراً وتفهاً لا طعم له.

على هذه الأفكار، وصل الرجل الهندي سريعاً إلى قسم الغرف. كان يمتدّ أمام ناظريه أكثر من عشرة أسرّة، جميعها مغطّاة بملاحف ملوّنة بألوان فاقعة مختلفة، تتدلّى منها لاصقات مطرّزة بأسماء لا يمكن تمييزها ويتعذّر نطقها. مايسا سترا، مايسا لجونغ، مايسا روزنغليم (هل كان الناس يتلهّون بصياغة كلمات باستخدام أحرف غير متناسقة وبطريقة عشوائية؟) وكانت وسائد ملساء وناعمة مرمية تحتها بطريقة مرتّبة، أو بالأحرى موضوعة بطريقة اعتباطية مصطنعة، تدعو الزبائن إلى النوم.

كان زوجان يستلقيان باحتشامٍ على سريرٍ من طراز بيركلاند، وهما يتخيّلان الليالي السعيدة التي سوف يقضيانها على هذا السرير، بل وربّما سوف ينجبان طفلاً عليه. وكان إعلانٌ مكتوبٌ باللغتين الفرنسية والإنجليزية يشير في الواقع إلى أنّ طفلاً من أصل كلّ عشرة أطفال قد أُنجِبَ على سريرٍ تمّ شراءه من متاجر ايكيا. ولا بدّ أنّه قد تمّ نسيان الهند من هذه الإحصائية.

تحطّمت هذه اللوحة العجيبة وتبعثرت إلى ألف قطعة حينما ارتمى طفلان مثل وحشين على سريرٍ من طراز آسبلوند وباشرا في مشاجرة استُخدِمَت فيها القطع النسيجية وضربات عنيفة من الوسائد. ارتعب الزوجان اللذان كانا يستلقيان على مبعدة سريرين من مكان

المشاجرة وفرّا نحو جناح مبيعات لوازم الحمّامات، مستبعدين في وقتٍ لاحق أيّ مشروعٍ للانجاب. لم يتأخّر آجاتاشاترو، هو الآخر، وسط هذا الجوّ العدائي واندسّ بين قسم طاولات الأسرّة. ليس لأنّه لم يحبّ الأطفال، بل على العكس تماماً، بل لأنّه في الحقيقة لم يكن مهتمّاً بأيّ طرازٍ من طُرز الأسرّة المعروضة في الجناح. بدا أنّ الطراز الذي يرغب فيه لم يكن موجوداً في هذا الركن من المتجر.

أمعَن النظر جيّداً في ثلاثة من الموظفين العاملين في الجناح والذين كانوا يرتدون ألوان المتجر، أي ألوان العلم السويدي بالأصفر والأزرق، مثل ساري الفتاة السويدية الحسناء التي كانت تقدّم له طبق الدجاج التندوري في مخيّلته، ولكنّهم بدوا مشغولين في مساعدة وتوجيه زبائن آخرين. فاقترب من أحدهم وانتظر أن يَحين دوره.

كان البائع الذي وقع اختياره عليه رجلاً ضخماً أصلعاً يضع نظّارة ذات إطارٍ أخضر اللون، من نوع الشخص الذي يمكن معرفته في أقلّ من ثلاثة تخمينات في علبة «مَنْ هو؟» كان منكبّاً على حاسوبه، يرفع بين فينةٍ وأخرى رأسه نحو الشخصين الواقفين أمامه قبل أن يعود ويستغرق ثانية مع شاشة حاسوبه.

بعد مرور بضع دقائق، انتزع ورقة من الآلة الطابعة ومدّها نحو الزوجين الذين ابتعدا راضيين ومبتهجَين بخطى مسرعة، متلهّفين لكي يرويا لأصدقائهما بأنّ جان - بيير كوف يعمل الآن في متجر ايكيا وأنّه قد باع إليهما للتوّ خزانة أحذية.

بعد أن تأكّد من أنّ البائع يتحدّث اللغة الإنجليزية، سأله آجاتاشاترو إن كان لديهم في المعرض آخر طراز من السرير ذي المسامير من ماركة كيزيفروتسبيك. وهو يوضّح كلامه للبائع ويشرح

طلبه، نشر قصاصة الورق التي أخرجها من جيب بزّته ومدّها نحو الموظّف.

كانت عبارة عن صورة ملوّنة بألوان السرير نفسها المخصّص للفقراء الهنود المصنوع من خشب الصنوبر السويدي الحقيقي، مع ارتفاع المسامير المثبّتة غير القابلة للصدأ. كانت الصفحة مأخوذة من كتالوغ ايكيا العائد إلى شهر يونيو من عام 2012، والذي كان قد طُبع منه 198 مليون نسخة وزّعت في كلّ أنحاء العالم، أي ما يُعادل ضعف عدد نسخ الكتاب المقدّس.

كانت عدّة أحجام من الأسرّة معروضة في المتجر: مائتا مسمار (وهو غالي الثمن جدّاً وخطيرٌ على نحوٍ خاصّ)، خمسة آلاف مسمار (ممكن الوصول إليه ومريح) وخمسة عشر ألف مسمار (وهو رخيص الثمن وعلى نحوٍ مفارق مريحٌ للغاية). فوق السرير، كان هناك شعارٌ يقول: من أجل الليالي المثيرة! كان سعر 99,99 يورو (بالنسبة إلى موديل خمسة عشر ألف مسمار) مكتوباً ومعلناً بأحرف كبيرة صفراء اللون.

شرح البائع جان - بيير كوف وهو في المكتب الشبيه بقفّة صيد السمك، وبلغة إنجليزية متقنة للغاية:

- لم يبقَ لدينا هذا الموديل في المتجر. لقد نفد المخزون منه.

ولكن حينما رأى وجه محدّثه يذوب على المكان، سارع البائع إلى الإضافة:

- ولكن لا يزال يمكنك أن تطلب هذا الموديل وسوف نؤمّنه لك.

سأل الرجل الهندي وهو قلقٌ من أن تذهب رحلته هباءً منثوراً:

- وكم من الوقت سوف يستغرق هذا الطلب؟

- يمكنك الحصول عليه غداً.

- غداً صباحاً؟

- نعم، غداً صباحاً.

- في هذه الحالة، اتّفقنا على إبرام الصفقة.

ابتهج الموظّف بأن أرضى زبونه، وألقى بأصابعه على لوحة أزرار الحاسوب.

- ما اسمك؟

- مستر باتيل (الفظوا: *Paddle* «مجداف»). آجاتاشاترو، هكذا يُلفَظ اسمي.

أمام صعوبة نطق الاسم، صرخ الموظّف مستاءً:

- يا للهول! (La vache!)(*)

بدافعٍ من الكسل أكثر منه بدافعٍ من الاستسهال، كتب حرف x في خانة الاسم في حين كان الفقير الهندي يتساءل كيف عرف الموظّف الهندي اسمه الثاني، لافاش.

- إذاً، سرير ماركة كيزيفروتسبيك المخصّص لفقيرٍ هندي مصنوع من خشب الصنوبر السويدي الحقيقي، مع ارتفاع المسامير المثبّتة (غير القابلة للصدأ). ما اللون المطلوب؟

- ما اللون الذي تقترحه عليّ؟

- أحمر البوما أو أزرق السلحفاة أو أخضر الدلفين.

اعترف آجاتاشاترو الذي لم يكن يرى الانسجام والتوافق

(*) عبارة (La vache!)، التي تعني حرفياً البقرة، تُطلق في حالات التعجّب أو الاستياء، وهي تتطابق لفظاً هنا مع الاسم الثاني للشخصية الرئيسة في الرواية. - المترجم -

الموجودين بين الألوان والحيوانات المذكورة، قائلاً:

- لا أرى انسجاماً وتوافقاً بين الألوان والحيوانات التي ذكرتها.

- كلّ هذا يتجاوزنا، هذا نوعٌ من التسويق.

- حسناً، فليكن إذاً أحمر البوما.

شرع البائع بالنقر بتهيّج على لوحة مفاتيح الآلة الموجودة أمامه.

- حسناً، يمكنك أن تأتي وتأخذه غداً بدءاً من الساعة العاشرة صباحاً. هل من شيءٍ آخر تودّ إضافته؟

- أوه، نعم، فقط سؤالٌ صغير، شيءٌ من الفضول. كيف يكون السرير من موديل خمسة عشر ألف مسمار أرخص سعراً من السرير من موديل مائتي مسمار بثلاثة أضعاف، والذي هو علاوة على ذلك أكثر خطورةً بكثير؟

نظر إليه الرجل بإمعان من فوق إطار نظارته كما لو أنّه لم يفهم عليه جيداً.

ردّد الفقير قائلاً:

- لدي شعورٌ بأنّك لم تفهم سؤالي جيّداً. أقصد مَن هو الأحمق الذي قد يشتري سريراً أغلى ثمناً بكثير، وأقلّ راحةً بكثير وأكثر خطورةً بكثير؟

- حينما تمضي أسبوعاً كاملاً من الوقت في غرس المسامير الخمسة عشر ألفاً في الثقوب الخمسة عشر ألفاً الصغيرة المرسومة مسبقاً في المفرش، لن تعود تطرح هذا السؤال، يا سيّد، وسوف تندم على عدم اقتنائك الموديل، الأغلى ثمناً بالتأكيد، ولكن الأقلّ راحةً وخطراً من السرير ذي المائتي مسمار. ثِق بي!

وافق آجاتاشاترو على رأي الموظّف وأخرج الورقة النقدية من فئة المائة يورو من محفظة نقوده وهو يحرص شديد الحرص على ألا يُظهِر سوى وجهها المطبوع. كان قد نزع الخيط غير المرئي لأنّه، في هذه المرّة، كان سوف يتخلّى عن ورقته النقدية هذه نهائياً. كانت المهمّة التي جاء من أجلها تصل إلى نهايتها. كانت تنتهي هنا، وفي الحال.

- لا يُدفَع الحساب هنا، يا سيّد. الحساب يُدفَع لدى صناديق المحاسبة، في الأسفل. سوف تدفع الحساب غداً. سوف يكون عليك أن تدفع 115,89 يورو.

كان آجاتاشاترو ليقع على قفاه لو لم يتمسّك في تلك اللحظة بالورقة التي مدّها نحوه الرجل وهو يبتسم بلطف.

ردّد مبهوتاً:

- 115,89 يورو؟

- كان السعر 99,99 يورو، هو السعر المخفّض الخاصّ بتنمية المبيعات، حتى الأسبوع الماضي. انظر، كان مكتوباً هنا.

وهو يشرح هذا الموضوع، كان البائع يشير بإصبعه المبروم إلى تنويهٍ مكتوبٍ بخطٍّ ليس أكبر من قائمة نملة، في أسفل صفحة الكتالوغ.

- آه.

انهار العالم بأكمله من حول الرجل الهندي.

- نعم، هكذا هو الأمر. أتمنى أن تنال خدمتنا إعجابك. وإذا ما أعجبتك، أتمنى أن تنشر هذا الأمر بين المحيطين بك. وإن لم يكن الأمر كذلك، فلا داعي لتحمّل مشقة النشر. وسوف نكون لك من الشاكرين.

وهو يقول هذا الكلام، أدار الشابّ كوف، الذي اعتبر أنّ الحديث قد انتهى مع الفقير الهندي، رأسه الضخم مع نظارته ذات الإطار الأخضر بلون الدلفين نحو المرأة التي كانت تقف خلف آجاتاشاترو.

- صباح الخير سيّدتي، ما الذي يمكنني أن أفعله مَن أجلك؟

تنحّى الفقير الهندي جانباً لكي يفسح المجال للسيّدة لكي تمرّ. كان يحدّق، بقلقٍ، في ورقته النقدية من فئة المائة يورو وهو يتساءل في الوقت نفسه كيف سيتمكّن قبل الساعة العاشرة من صباح الغد من الحصول على مبلغ 15,89 يورو الذي كان ينقصه من قيمة السرير.

على لوحة إعلانية كبيرة مثبّتة ليس بعيداً عن صناديق المحاسبة، استطاع آجاتاشاترو أن يقرأ بأنّ المتجر يُغلق أبوابه في الساعة الثامنة من مساء كلّ يوم اثنين وثلاثاء وأربعاء. هكذا، ولأنّ الساعة كانت تشير إلى الثامنة إلّا ربعاً، وهو التوقيت الذي قرأه على ساعة يدٍ بلاستيكية لامرأة شقراء بدينة، فقد اعتقد آجاتاشاترو بأنّه من المناسب أن يقترب من جديد من جناح غرف النوم.

كان بالكاد قد اندسّ، بعد نظرات محتشمة من حوله، تحت سرير غرفة معروضة ذات ألوانٍ فاقعة وكاشفة للنفس حينما رنّ صوتٌ نسائي في مكبّرات الصوت. حتى وهو مستلقٍ تحت السرير، قفز الهندي وضرب رأسه بعنف بالألواح الخشبية التي كانت تسند الحشيّة. ما كان ليصدّق قط بأنّ المرء يستطيع أن يقفز وهو في وضعية أفقية.

تخيّل الفقير الهندي، وقد استنفرت كلّ حواسه، القنّاصين المتمركزين على الخزائن وهم يصوّبون بنادقهم المزوّدة بالمناظير نحو السرير من طراز بيركلاند الذي كان يختبئ تحته حينما قدمت فرقةٌ من الكوماندوس الفرنسي - السويدي بخطوات رياضية رشيقة إلى المكان لكي تطوّق السرير. كان قلبه يخفق في صدره بإيقاع فرقة

عزفٍ من بوليوود. نزع الدبّوس المشكوك في ربطة عنقه وفتح ياقة قميصه لكي يتنفّس على نحوٍ أفضل. كانت نهاية مغامرته وشيكة. ومع ذلك، بعد مرور بضع دقائق، لم يأتِ أحد لكي يكشف عن مكانه ويُخرجه من تحت السرير وقد استنتج من ذلك أنّ صوت مكبّر الصوت كان يُعلن فقط عن إغلاق المتجر.

تنهّد وانتظر.

قبل بضع ساعات، تماماً بعد أن عالج البائع طلبه، كان آجاتاشاترو، وقد استبدّ به جوعٌ خفيف، قد توجّه نحو المطعم.

لم يكن يعلم كم كانت الساعة. وفي الداخل، كان من المستحيل قراءة الشمس. كان ابن عمّته باكمان (الفظوا: *Pacman* «لعبة باكمان») قد روى له ذات يوم بأنّ المرء لا يجد أبداً ساعات توقيت في كازينوهات لاس فيغاس. وبذلك، لا يشعر الزبائن بالوقت الذي يمضي وينفقون من المال أكثر بكثير ممّا هو متوقّع.

لا بدّ أنّ شركة ايكيا كانت قد نسخت هذا النظام لأنّه لم تكن هناك أيّ ساعة توقيت على الجدران، والساعات المعروضة للبيع كانت من دون بطاريات، بالنسبة إلى الخبثاء الصغار. بوجود الساعة أو من دونها، كان إنفاق الكثير من المال بذخاً لم يكن بوسع آجاتاشاترو أن يسمح لنفسه به.

بحث الفقير الهندي عن معصمٍ وقرأ التوقيت على ساعة رياضية ذات نطاقٍ أسود لا بدّ أنّها كانت من ماركة باتيك فيليب.

كانت الساعة تشير إلى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة من بعد الظهر.

مجرّداً من النقود عدا عن الورقة النقدية من فئة المائة يورو التي

كان ابن عمّته جامليداناب قد طبعها له على وجهٍ واحد، والتي إلى جانب مبلغ 15,89 يورو، سوف تسمح له بشراء سريره الجديد ذي المسامير، سلك آجاتاشاترو طريق المطعم الذي كانت تتصاعد منه روائح اللحم المطبوخ والسمك المغطّس بالليمون.

وقف في مؤخّرة الرتل، خلف امرأة أربعينية، نحيلة وشقراء، شعرها طويل وبشرتها مائلة للسمرة وترتدي ثياباً بطريقة برجوازية واضحة. إنّها الضحيّة الممتازة، فكّر آجاتاشاترو وهو يقترب منها. كانت تفوح منها رائحة عطرٍ غالي الثمن. كانت يداها، اللتان تصطبغ أظافرها بطلاءٍ نبيذيّ اللون، تمسكان بطبقٍ وآنية للمائدة.

كانت تلك اللحظة التي اختارها الهندي لكي يسحب من جيبه نظارة شمسية زائفة من ماركة بوليس ويضعها فوق أنفه. ثم التصق أكثر بالمرأة وأمسك هو الآخر بطبقٍ وبسكينٍ بدت أنّها غير قاطعة وشوكة طعامٍ ذات سنانٍ مثلومةٍ تشبه في كلّ شيء تلك الشوكة التي كان يغرزها في لسانه. استند بكلّ جسمه إلى ظهر المرأة وحسب في ذهنه. ثلاث، اثنان، واحد. في اللحظة نفسها، حينما شعرت السيّدة الفرنسية بأنّ الرجل ملتصقٌ بها كثيراً، استدارت فجأةً فارتطم كتفها بقوّة وعنف بالنظارة الشمسية لآجاتاشاترو والتي تحطّمت وتناثرت إلى قطعٍ عديدة لدى ارتطامها بالأرض. إنّها الجائزة الكبرى!

صرخ الفقير الهندي:

- يا إلهي!

صرخ بهذه العبارة وهو يلقي نظرات مذعورة نحو نظارته قبل أن يضع الطبق من يديه ويجثو على الأرض لكي يلتقط قطع النظارة المتناثرة في كلّ الاتجاهات.

يجب عدم المبالغة في حجم الميلودراما أيضاً.

قالت السيّدة وهي تضع يدها أمام فمها:

- أوه، أنا خجلة منك!

ثمّ وضعت بدورها طبقها وانحنت لكي تساعده في التقاط قطع النظارة الشمسية.

ألقى آجاتاشاترو نظرة حزينة على القطع الستّة من الزجاج المدخّن والمائل للزرقة التي كان يمسك بها في راحة يده بينما مدّت السيّدة نحوه الإطار الذهبي للنظارة المكسورة.

- أعتذر منك، أنا رعناء ومرتبكة جدّاً.

زمّ المحتال شفتيه وهزّ كتفيه، كما لو أنّه يريد القول بأنّ الأمر ليس مهمّاً جدّاً.

- Never mind. It's OK.

(لا تبالي، ليس الأمر هامّاً. لا بأس).

- أوه، بلى، بل **الأمر هامّ**! الأمر هامٌّ حقّاً! أنا عازمةٌ على أن أعوّضك عن الضرر الذي لحق بك.

حاول آجاتاشاترو برعونة أن يُعيد وضع القطع الزجاجية في إطار النظارة. ولكن ما أن كان ينجح في وضع إحداها حتى كانت الأخرى تسقط في الحال في يده.

في تلك الأثناء، كانت السيّدة قد شرعت في النبش في حقيبة يدها تبحث عن محفظة نقودها. أخرجت منها ورقة نقدية من فئة عشرين يورو واعتذرت عن عدم قدرتها على أن تدفع له أكثر من هذا المبلغ.

في البداية، رفض الفقير الهندي بلباقة أن يقبض المال ولكن

أمام إلحاح السيّدة البرجوازية، أخذ الورقة النقدية ودسّها في جيبه.

- Thank you. It is very kind of you.

(شكراً لكِ، هذا لطفٌ كبير منكِ).

- هذا أمرٌ طبيعي، هذا أمرٌ طبيعي. ثمّ إنّ الوجبة كانت لي.

وضع آجاتاشاترو قطع نظارته الشمسية في جيب سرواله ومن ثمّ عاد والتقط طبقه. كم كانت الحياة سهلة بالنسبة إلى اللصوص. في غضون بضع ثوانٍ، حصل على مبلغ 15,89 يورو الذي كان ينقصه لكي يشتري السرير من ماركة كيزيفروتسبيك وكذلك على مبلغ 4,11 يورو إضافي كمصروف جيب. وبهذه الطريقة، لن يكون بوسعه أن يتناول الطعام فحسب (طماطم بالفلفل الحادّ، لفافة بالسلمون المدخّن مع بطاطا مقلية، قطعة موز، وكل مرفقات عبوة كوكا كولا خالية من الغاز)، بل علاوة على ذلك، سوف تكون لديه الفرصة في ألّا يتناول الغداء بمفرده في هذا اليوم. فلأنّها كانت هي الأخرى وحيدة، عرضت عليه ماري ريفيير، هكذا كان اسمها، أن يتناولا وجبتيهما معاً، علاوة على دعوتها له بسبب حكاية النظارة المكسورة.

كانت الضحيّة والنصّاب، الظبي والأسد، على الطاولة نفسها ويقهقهان ضحكاً من حكايات هذه الشخصية الغريبة التي ترتدي بزّة وتعتمر عِمامةً. لو أنّ أحداً من سكان كيشانيوغور قد شاهد المشهد، لما كان ليصدّق عينيه بالتأكيد.

آجاتاشاترو، الذي كان قد أعلن التزهّد واختار حمية غذائية متوازنة بالاعتماد على بعض المسامير الطبيعية ولوالب أخرى، يجلس إلى المائدة نفسها مع امرأة أوروبية فاتنة وهما يتناولان بطاطس مقلية وسلمون مدخّن! في بلدته، كانت صورة كهذه ستكلّفه

السحب الفوري لشهادته كفقيز، بل وربّما حلاقة شاربه. وهذا بمثابة حكمٍ بالإعدام.

قالت السيّدة وقد احمرّت خجلاً:

- ربّ ضارة نافعة. لو لم أحطّم نظّارتك، ما كنا لنلتقي مع بعضنا. ومن ثمّ ما كنتُ لأرى عينيك الجميلتين(*).

ربّما لم يكن على امرأة أن تقول هذا الكلام. ربّما لم يكن عليها أن تبادر هي إلى القيام بالخطوة الأولى. ولكنّها وجدت في الواقع أنّ لآجاتاشاترو عينين جميلتين بلون الكوكا كولا، مع وجود بقعٍ صفراء في قُزحية العينين تشبه الفقاعات اللمّاعة للصودا الأميركية الشهيرة، الفقاعات التي كانت غائبة تماماً عن الكوب الذي كانت تشربه الآن. كانت فقاعات جميلة، أو ربّما كانت عبارة عن نجوم؟ ومن ثمّ، كانت في عمرٍ بحيث إذا ما رغبت في شيءٍ ما، أخذته في الحال. كانت الحياة تسير الآن بسرعة جنونية. الأمر الذي يُظهر بأنّ تدافعاً بسيطاً في أحد متاجر ايكيا قد يُعطي أحياناً نتائج أكثر من ثلاثة أعوام من الاشتراك في موقع ميتيك للبحث عن شريك.

ابتسم الرجل وارتبك بعض الشيء. ارتفع طرفا شاربه إلى أعلى شفتيه مثل شارب هيركيول بوارو(**) وقد سحبا معهما الحلقة

(*) حرصاً على فهم أفضل، سوف نتجنّب في المرّات القادمة إعطاء ترجمة حرفية للغة الإنجليزية التقريبية التي تتحدّث بها ماري. - الناشر -

(**) هيركيول بوارو: شخصية خيالية، هي الشخصية الرئيسة في العديد من الروايات البوليسية للكاتبة أغاثا كريستي. يمتاز بوارو بحجمه الصغير، عينيه الخضراوين كعيون القطط، وشاربه الشهير المُعتنى به بدقة. - المترجم -

التي كانت تتدلّى من شفتيه. وجدت ماري أنّ تلك الحلقات كانت تمنحه هيئة فظّة ورجولية، هيئة صبيّ شقي، أي كلّ ما يجذبها في رجل. كان القميص، هو الآخر، لا تشوبه شائبة. كان مزيجاً جميلاً. كان له محض هيئة المقاتل الشريف الذي جعلها تنساق كثيراً للاستيهام.

سألت وهي تحاول أن تكبح جماح غرائزها الجنسية:

- هل ستبقى في باريس في هذه المدّة؟

أجاب الراجستاني دون أن يفصح بأنّه سوف يقضي الليل في متجر ايكيا:

- يمكننا أن نقول ذلك، ولكنني سوف أغادر غداً. أنا جئتُ فقط لكي أشتري غرضاً.

قالت السيّدة البرجوازية الحسناء بنباهةٍ ومهارة:

- غرضٌ يستحقّ تحمّل عناء القيام برحلة ذهابٍ وإيابٍ طويلة من سبعة آلاف كيلومتر لكي تقوم بشرائه...

فروى الرجل بأنّه قد جاء إلى فرنسا على نيّة شراء آخر موديل من السرير ذي المسامير أصبح متوفّراً في الأسواق. حشيّة ذات مسامير، إنّها حشيّة تشبه إلى حدّ كبير حشيّة ذات نوابض. بعد مرور فترة من الزمن، تنكمش على بعضها وتصبح صلبة. وبالنظر إلى ذلك، تثلم سنان المسامير ويصبح من الضروري تغييرها. طبعاً، تحاشى أن يقول بأنّه لم يكن يملك فلساً واحداً وأنّ سكان قريته الأمّ، المقتنعين بقدراته السحرية، قد موّلوا رحلته (من خلال اختيار الوجهة الأقل كلفةً عبر محركٍ للبحث على الإنترنت، والتي هي مدينة باريس) لكي يتعالج الرجل المسكين من أمراض الروماتيزم

التي ألمّت به وذلك من خلال شراء سريرٍ جديد. كانت بمثابة زيارة مقدّسة. وكان متجر ايكيا أشبه بكهف لورد(*) بالنسبة إليه.

بينما كان يروي كلّ هذه الحكاية، شعر آجاتاشاترو، للمرّة الأولى في حياته بأنّه يلقى ضيقاً وصعوبةً في الكذب. بالنسبة إليه، كان عدم قول الحقيقة قد أصبح بالنسبة إليه بمثابة طبيعة ثانية.

ولكنّ شيئاً ما في ماري جعل الأمر أكثر صعوبةً. وجد السيّدة الفرنسية نقيّة للغاية، لطيفةً للغاية وحنونة. كان يشعر إلى حدّ ما بأنّه يلوّثها ويدنّسها. وبأنّه يلوّث نفسه ويدنّسها من خلال ذلك. كان هذا الأمر محيّراً بالنسبة إليه بعض الشيء، هذا الشعور الجديد، هذه المسحة من الشعور بالإثم. كان لماري وجهٌ فاتن يعكس البراءة واللطف. وجه دمية من البورسلين كان يوحي جيّداً بهذه الإنسانية التي كانت فقدَتها بعض الشيء لكي تعيش وسط الغابة العدوانية.

وكذلك كانت تلك المرّة الأولى التي تُطرح عليه أسئلة، ويجري الاهتمام به لأمرٍ مختلفٍ عن الشفاء من إمساكٍ مزمن أو من أجل حلّ مشكلة انتصابٍ يعاني منها، بل وصل به الأمر إلى درجة الندم على قيامه بالاحتيال على ماري بهذه الدرجة من الدناءة في سبيل شراء وجبة طعامٍ خفيفة وتافهة.

ومن ثمّ نظرات ماري وابتساماتها. ألم تكن تغويه؟ كان من الغريب أن يصدر هذا عن امرأة، ففي بلده، كان الرجال هم مَن يُقدِمون على إغواء النساء، ولكنّ كان ذلك يخفّف عنه ويجد فيه العزاء في كلّ الأحوال.

(*) لورد: مدينة فرنسية تقع في الجهة الجنوبية الغربية قرب الحدود الفرنسية الإسبانية وتشتهر بكونها مزاراً للرومان الكاثوليك. - المترجم -

في جيبه، كان آجاتاشاترو يُداعب إطار نظارته المقلّدة. كانت آلية سريّة يعرفها هو وحده تتيح له أن يركّب القطع الزجاجية الخمس وأن يشدّها إلى بعضها. عند أدنى اصطدام، كانت القطع تتناثر من مكانها وتوحي بأنّ النظارة قد تحطّمت وتناثرت في قطعٍ عديدة.

منذ أن بدأ باستخدام هذه الحيلة، استطاع أن يتأكّد من أنّ الأغلبية العظمى من الناس، الذين يهيمن عليهم الشعور بالذنب، كانوا يدفعون أموالاً بمثابة تعويضٍ عن الأضرار التي تسبّبوا بها نتيجة حركتهم المؤسفة التي ألحقت هذه الأضرار بالآخرين.

في الواقع، كخطوة مبتكرة في سبيل الحصول على فلسٍ، لم يكن آجاتاشاترو قد فعل سوى تحسين خدعة المزهرية المحطّمة التي كان قد عثر عليها في كتابٍ قديمٍ للحيل وفنون النصب والاحتيال.

النصب والاحتيال بوساطة المزهرية المحطّمة

عدّة النصب: علبة، مزهرية محطّمة، وورق صرّ الهدايا.

تقوم بالتنزّه في متجرٍ كبيرٍ ومعك علبة مغلّفة بورق الهدايا. في هذه العلبة، تحتفظ، قبل كلّ شيء، بمزهرية مهشّمة إلى ألف قطعة. وأنت تتنزّه وسط رفوف العرض، تقترب من ضحية وتلتصق بها. وحينما تجفل الضحية من جراء تفاجئها بحضورك المفاجئ بقربها، اترك العلبة. حينما تسقط العلبة على الأرض، سوف تعطي الشظايا الزجاجية الانطباع بأنّ المزهرية الجميلة التي كنت ستقدّمها لعمّتك المحبوبة قد تحطّمت لتوّها بين قدميك. أمّا الضحية، وهي تحت تأثير الشعور بالذنب، فسوف تقوم بتعويضك عن الضرر الذي تسبّبت به في الحال.

قالت ماري بابتسامة خفيفة:

- أنا أعرف كيف تفتن النساء، ولكن ما أودّ معرفته هو ما الذي تفعله لكي تُسحِر الثعابين... هذا ما لا يزال يحيّرني ويثير فضولي.

في حقيقة الأمر، لم تكن لدى الرجل الهندي النيّة في أن يُسحِر السيّدة الفرنسية، ولكنه وافق على تلك المجاملة، إذا ما كانت هذه مجاملةٌ منها. ولكونه كان يشعر بأنّه مدينٌ لها بأن اختلس منها بتلك الوقاحة الفجّة مبلغ العشرين يورو، اعتبر بأنّه لن يفقد مكانته فيما لو كشف لها عن حيلة صغيرة من حيل الفقير. كانت تستحق ذلك تمام الاستحقاق.

قال بطريقة احتفالية:

- لأنني أجدكِ فاتنة، بالمعنى الحرفي للكلمة، سوف أكشف لكِ عن هذا السرّ. ولكن عليك أن تقسمي لي بأنّك لن تفشيه لأحد.

قالت ماري وهي تلمس يده:

- أعدك بذلك.

في العالم الحقيقي والواقعي، كان طبقان من الطعام السويدي يفصلان بينهما، ولكن في عالمها هي، كان يمسك بها بين ذراعيه وكان يفشي لها أسراره في جوف أذنها.

مرتبكاً ومضطرباً، سحب آجاتاشاترو يده.

قال متلعثماً:

- في قريتي، يتمّ تعويدنا على حضور الثعابين في حياتنا منذ نعومة أظافرنا. حينما كنتُ طفلاً لم أبلغ من العمر سوى سنة واحدة، بينما كنتِ ربّما تلعبين بالدمى، كان لدي ثعبان كوبرا بمثابة لعبة أتسلّى بها وحيوان يرافقني. طبعاً، كان البالغون يتأكّدون بانتظام

من أنّ غددها لم تعُد تحتوي على السمّ من خلال إرغام الزاحفة على أن تعضّ قطعة من القماش كانوا يمدّونها على عبوة مربّى فارغة. كان السائل النفيس يُستخدم في إعداد وتحضير ترياقٍ ضدّ السمّ. ولكنني أؤكّد لكِ، حتى من دون سمّ، فإنّ لدغات هذه الحيوانات الصغيرة وضربات رأسها ليست مريحة جدّاً. أخيراً، كنتِ تسأليني كيف يمكننا أن نسحر ثعبان كوبرا. إذاً هذا هو الأمر، الثعابين صمّاء، لا أدري ان كنتُ أعلّمكِ شيئاً ما. فجأةً، يتبع الحيوان الزاحف حركة رقّاص البونجي(*)، هذا الناي الذي يشبه يقطيناً تمرّ عبره قطعة خشبية طويلة مثقوبة، واهتزازات الهواء التي تتسبّب بها الآلة. نشعر بأنّه يرقص في حين أنّه لا يفعل سوى متابعة إيقاع الناي برأسه. هذا أمرٌ ساحر، أليس كذلك؟

نعم، كانت ماري منبهرة. كان هذا الحديث يتجاوز بما لا يُقاس كلّ الأحاديث التي استطاعت أن تجريها خلال السنوات الأخيرة مع الرجال الذين كانت تصحبهم إلى البيت خلال أمسيات الخروج والتنزّه. كم من الصعب والقاسي أن تعيشي وحيدة حينما لا تطيقين الوحدة والعزلة. هذا يقودكِ إلى الخضوع للكثير من الأمور المؤسفة. وبالنسبة إلى سيّدة في حالها، من الأفضل لها أن ترافق شخصاً سيئاً من أن تبقى وحيدة، يكون على الأرجح لأيامها القادمة طعماً مرّاً من الحسرة والندم. أضاف الرجل لكي ينهي حديثه بلمسة هزلية خفيفة:

- ولكن أن تُسحر امرأة أمرٌ أصعب بكثير من أن تُسحر ثعباناً.

(*) بونجي: ناي يستخدمه سحرة الثعابين الهنود، ويُستخدَم أيضاً في النيبال وباكستان. - المترجم -

ثمّ ابتسم.

- كلّ شيء يتوقّف على المرأة...

في بعض الأحيان، كانت الحسناء الفرنسية تبدو ضعيفة وهشّة مثل دمية من البورسلين، ومن ثمّ بعد لحظةٍ، كانت تصبح فاتنة وساحرة مثل أنثى النمر.

- وكذلك على الثعبان...

كان الحديث يتّخذ منحى غريباً. في الهند، لا تغوي النساء الفقير الزاهد. على الأقل هذا ما كان يطيب لآجاتاشاترو أن يؤمن به لأنّه لم يتعرّض أبداً لإغراء امرأة. لقد أعجبته السيّدة الفرنسية كثيراً، حقّاً أعجبته كثيراً، ولكن المشكلة هي أنّه لن يمكث في باريس سوى لليلة واحدة، ولم تكن لديه حتى غرفة محجوزة في فندق وأنّه لم يكن قد قَدِمَ إلى فرنسا بهدف البحث عن امرأة. كانت لديه مهمّته التي جاء من أجلها، ثمّ إنّ علاقات ليلةٍ واحدة لم تكن حيلته. كلا، حقّاً من الأفضل نسيان كلّ شيء منذ الآن. هيّا، أسرِع!

سأل متلعثماً، لكي ينزع من رأسه كلّ الأفكار التي تراوده:

- وأنتِ، ماذا جئتِ تشترين؟

لكن رغم سؤاله هذا، كان من الصعب عليه أن يمتنع عن النظر إلى المكشوف الجميل لرقبة الحسناء الفرنسية وكتفيها وأن يمرّ هذا المنظر الجميل في مخيّلته بانسيابية وعفوية.

- مصباح وسكك معدنية لتعليق آنية مطبخي على المجلى، لا شيء مميّز.

فتح آجاتاشاترو يده في وضعية عمودية، ممسكاً بعصا في الهواء، ووجّه راحة يده نحوه وغرز فيها شوكة الطعام. ظلّت الشوكة

معلّقة في الهواء، خلف أطابعه، في وضعية أفقية، كما لو أنّه بفعل السحر.

قال:

- ما رأيك بعلاّقة آنية المائدة هذه؟ لا يمكن العثور على مثل هذه العلاّقة حتى في متاجر ايكيا!

سألت ماري مندهشة ومنفعلة:

- أوه! كيف تفعل هذا الأمر؟

قطّب الفقير الهندي عينيه ومارس لعبته الخفيّة. هزّ يده لكي يُظهر جيّداً بأنّ الشوكة قد ظلّت مثبتة بها بقوّة من خلال قدرة وقوّة لا تُقاوَم.

ألحّت عليه ماري بالطلب على طريقة طفلة صغيرة متقلّبة الأطوار:

- هيّا، أخبرني! كيف تفعل هذا الأمر؟

وكلّما كانت تنحني نحو الرجل لكي ترى ما الذي كان يخفيه خلف يده، كان آجاتاشاترو يبتعد عنها أكثر بقليل.

كان الساحر يعلم أنّ الصمت، في هذه الظروف، سيكون سبباً لإثارة عصبية وفضول جمهوره المكوّن من السيّدة الفرنسية. كان قد سبق له وأن شرح لها حيلة الناي وكَشْفُ هذه الخدعة الجديدة أمامها سوف يجعله يعترف لها بأنّ كلّ ما كان يفعله لم يكن سوى حيل ودجل. ولكي لا يفقد ماء وجهه، آثرَ الخيار الأكثر جدوى، الخيار الذي كان يستخدمه مع مواطنيه في بلدته: الكذب.

- من خلال الكثير من التمرين والتأمّل.

في الحقيقة، لو كانت ماري تجلس إلى جانب آجاتاشاترو، لاستطاعت أن ترى أنّ الشوكة كانت محصورة بين راحة يده وسكينه

الذي كان قد وضعه في وضعية عمودية ودسّه في كمّ قميصه. الأمر الذي لم يكن له علاقة، سوف تعترفون بذلك بسهولة، لا بالكثير من التدريب ولا بالكثير من التأمّل.

قال آجاتاشاترو وهو يحاول أن يصرف أنظار الحسناء الفرنسية:

- لم تنهِ طبقكِ من التحلية.

خلال اللحظة التي نظرت فيها ماري إلى طبق الحلوى بالجبن، كان الرجل قد سحب السكين من كمّ قميصه ووضعه إلى يمين صحنه، دون أن يرَ ذلك أحدٌ أو يعلم به.

قالت بشيءٍ من الحرد والاستياء:

- لم أعد أحبّك، لم تخبرني كيف فعلت ذلك. . .

- سيكون عليّ ذات يوم أن أجعلكِ تشاهدين كيف من الممكن أن يخرق المرء لسانه من طرفٍ إلى آخر بسلكٍ معدني دون أن يثقبه!

أحسّت ماري بأنّ نظرها قد زاغ. آه هذا مستحيل، لم تكن تتحمّل ذلك.

سألت ماري لكي تغيّر الموضوع قبل أن تراود الرجل فكرة اختراق لسانه بشوكة طعام:

- هل شاهدت برج إيفل؟

- كلا. وصلتُ صباح اليوم قادماً من نيودلهي وجئتُ مباشرةً من المطار إلى هنا.

- هناك الكثير من الحكايات والطرائف حول هذا الصرح. هل تعلم أنّ موباسان كان يكره برج إيفل؟ كان يتناول طعامه هناك كلّ يوم لأنّه كان المكان الوحيد في باريس الذي لا يمكنه أن يراه انطلاقاً منه. . .

- يجب أن أعرف قبل كلّ شيء مَنْ يكون موباسان هذا. في كلّ الأحوال، أعجبتني القصّة القصيرة كثيراً!

- إنّه كاتبٌ فرنسي من القرن التاسع عشر. ولكن مهلاً، انتظر.

قالت هذا وهي تقضم القطعة الأخيرة من الحلوى. هناك ما هو محمّص أكثر، وأنا لا أتحدّث عن الكيك بالجبن خاصّتي، الهشّة جدّاً. لقد نجح نصّابٌ يُدعى فيكتور لوستيغ في بيع برج إيفل.

هل تصدّق هذا الأمر؟ بعد المعرض الدولي في عام 1889، الذي أُنشئ البرج بمناسبته، كان من المفترض أن يُفكّك البرج ويُزال. صحيحٌ أنّ صيانته تشكّل خسارة مالية جسيمة بالنسبة إلى الحكومة الفرنسية. لوستيك هذا، عفواً، لوستيغ هذا، انتحل صفة موظّف وبعد أن زوّر عقداً وطنياً للبيع، باع قطع هذا النصب لمالك شركة كبرى لاسترجاع المعادن ومعالجتها لقاء مبلغٍ زهيد وهو عبارة عن مائة ألف فرنك. حينما حوّلت المرأة المبلغ إلى روبيات هندية، وهي تضغط على زرٍّ في هاتفها المحمول، أحسّ آجاتاشاترو بأنّه نصّابٌ مبتدئ وغرّ بالنسبة إلى لوستيغ هذا. وحتى لا يبدو شاحب الوجه بفعل الإحراج والارتباك، وجد الفقير الهندي نفسه مرغماً على أن يروي هو الآخر للحسناء البرجوازية بعض القصص والحكايات عن بلده. حكاية الفقير الذي لم يعُد يمتلك ولا فلساً أضحكها كثيراً، وهي لا تتخيّل للحظة واحدة بأنّه كان يتحدّث عن نفسه.

انتهت إلى القول:

- في كلّ الأحوال، إنّها لخسارة كبيرة ألا تذهب وترى برج إيفل. الكثير من مواطني بلدك يعملون فيه. وربّما يمكنك أن تصادف هناك أحد أقاربك؟ إنّهم يبيعون أبراج إيفل.

لم يفهم آجاتاشاترو تماماً ما كانت تلمّح إليه الفرنسية الحسناء. لا شكّ أنّ هناك مشكلة في الترجمة. تُرى هل أرادت أن تقول بأنّ الهنود الذين يعيشون في باريس كلّهم أصحاب مكاتب عقارية للتجارة بالعقارات؟ لو أنّه تجوّل في ساحة شان دو مارس (Champ-de-Mars) لكي يتحقّق من هذه المعلومة، كان في كلّ الأحوال سيصادف باكستانيين وبنغاليين أكثر ممّا يصادف هنوداً، وهم يعملون جميعاً، بين دوريتين للشرطة، في بيع حاملات المفاتيح وتعاليق صغيرة أخرى على شكل هذا المَعلَم الوطني الشهير.

أسرّت ماري، قائلةً:

- هل تعلم، منذ زمنٍ طويل لم أضحك كما ضحكتُ اليوم، أو بكل بساطة لم أتحدّث مع رجلٍ عن أشياء على هذه الدرجة، على هذه الدرجة... من التنوّع. من حسن الحظّ أن نلتقي مع أشخاص أوفياء، صادقين مثلك. أشخاصٌ يُقدِمون على فعل الخير وينشرونه من حولهم. أشعر بأنني في غاية الارتياح والسعادة معك. ربّما من الغباء قول هذا ولكننا التقينا للتوّ ومع ذلك أشعر أننا نعرف بعضنا منذ زمنٍ طويل. أنا أعترف لك بأنني سعيدة، بطريقة ما، بكوني قد حطّمت نظارتك.

خلال هذا التصريح، كانت الحسناء الفرنسية قد عادت وأصبحت دمية صغيرة من البورسلين ذات أهدابٍ معقوفة.

أنا، شخصٌ وفيّ يُقدم على فعل الخير وينشره في كلّ مكانٍ من حوله؟ قال الفقير الهندي في نفسه وهو يلتفت في كلّ الاتجاهات لكي يتأكّد من أنّ المرأة كانت تتحدّث حقّاً عنه هو. وتبيّن له بأنّ فعلاً هو المقصود بهذا الكلام. في بعض الأحيان، يكفي أن يراك

الناس بطريقةٍ ما، إضافة إلى أنّ الصورة مجزية، حتى تتحوّل إلى ذلك الشخص الجميل. كانت تلك أوّل صدمة كهربائية يتلقّاها الفقير في قلبه منذ بداية هذه المغامرة.

قد لا تكون الأخيرة.

بعد أن أمضى بضع دقائق تحت السرير، ولأنّ أحداً لم يُقلق راحته، انتهى آجاتاشاترو إلى أن غفا ونام. كانت الوضعية الأفقية والعتمة والصمت المفاجئ والرحلة الطويلة قد تغلّبت على إرادته وعلى ضخامة جسده. وإذا كان بمقدوره أن يتظاهر بأنّه لا يعاني قطّ من الألم، فلم يكن بالتأكيد بوسعه أن يفعل ذلك بشأن التعب ويُخفيه. ومن ثمّ، تحت هذا السرير، لم يكن هناك جمهور وبالتالي كان بوسعه أن يسمح لنفسه ببذخ أن يكون ضعيفاً.

حينما فتح عينيه، بعد ساعتين من ذلك، كان قد نسي أين يكون، مثلما يحدث ذلك أحياناً حينما يستيقظ المرء بعد غفوةٍ قصيرة، واعتقد بأنّه قد أصبح كفيفاً. قفز من مكانه، فضرب من جديد رأسه بالألواح الخشبية، وأدرك في الحال بأنّه كان تحت سرير أحد متاجر ايكيا، في فرنسا، وأنّ الأسرّة الفرنسية، أو السويدية، كانت فعلاً منخفضة جدّاً.

تذكّر ماري، التي كان قد استأذن منها قبل بضع ساعات في قسم لوازم الحمّامات، ليس من دون أن يقسم لها مسبقاً بأنّه سوف يتّصل بها في المرّة القادمة التي يأتي فيها إلى فرنسا لكي تجعله يزور برج إيفل ويلتقي أبناء عمومته من أصحاب المكاتب العقارية.

كانت تشعر بالإحباط لكونهما افترقا بهذه الطريقة، ولكونه رفض عرضها في أن يشربا معاً كأساً في المساء نفسه في أحد أحياء العاصمة التي تضجّ بالحيوية. لا بدّ أنّه قد رغب في أن يمضي تلك الليلة معها، تلك الليلة الباريسية الفريدة. ولكن هذا الأمر كان سيربكه وكان سيبعده عن مهمّته التي جاء من أجلها. كانت بحوزته فقط تذكرة ذهاب - إياب. الهند - فرنسا. لو بقي لما استطاع أن يعود. أخيراً، الآن، كان لديه رقم هاتفها. كان كلّ شيء يختلط في ذهنه ويتشوّش. ربّما ذات يوم...

ألقى آجاتاشاترو نظرة على الجانب، لكنّ المنظر الذي امتدّ أمام عينيه لم يكن سوى مشمّع أزرق اللون، وأكوام من الغبار وقوائم أسرّة. على الأقلّ، لم يميّز أي قدم بشرية.

من دون أيّ صخب، انسلّ إلى خارج مخبأه وهو يلقي نظرات خاطفة نحو سقف المتجر ليرى أن هناك كاميرات مراقبة. ولكنّه لم يرَ أيّ شيء يشبه ذلك. من جهة أخرى، لم يكُن يعلم ماذا تشبه كاميرا مراقبة. في قريته، لم تكن تلك عملة رائجة. في النهاية، كان بالنسبة إلى متجر ايكيا هناك مبالغة في هذا الأمر بعض الشيء. لم يكن هناك لا قنّاصة على الخزائن ولا كاميرات مراقبة ولا أيّ شيء. كان السوفييت أكثر دقّةً وإتقاناً في الإجراءات الأمنية.

تنزّه في الممرّات بهدوء، متجاهلاً أي إجراء احترازي، كما لو أنّه يُمسك بذراع ماري، وهو يتسكّع بلا مبالاة بين الأثاث بحثاً عن أريكة أو مرآة لتزيين شقّتهما الباريسية الجميلة التي تطلّ كل نوافذها على برج إيفل الذي أمضى فيه موباسان أصفى أيامه على الرغم من أنّه كان يكرهه. تخيّلها وحيدة في منزلها في هذه الساعة. مهما يكن من أمر، كان في ذلك شيءٌ من الخسارة.

بحث في جيب سترته عن الغلاف الصغير للمضغة الذي كان قد دوّن عليه رقم هاتفها. أعاد قراءة متوالية الأعداد مرّات عديدة إلى أن حفظها عن ظهر قلب. كانت أعدادٌ تنضح بالحبّ. مستسلماً، دسّ الورقة في أعماق جيب سرواله، بالقرب من عضوه الذكري، لكي لا يفقدها. كان يضع كلّ الأشياء التي يحرص عليها في هذا المكان. هيّا، لا ينبغي أن أفكّر في هذا الأمر بعد الآن. إنجازِ المهمّة. إنجاز المهمّة قبل كلّ شيء.

نظر آجاتاشاترو من حوله. أيُّ حظّ له لكي يكون هنا في هذا المكان! أحسّ بأنّه يشبه طفلاً دخل خلسةً إلى متجرٍ كبيرٍ للألعاب. هو الذي لم يكن قد شاهد سوى الأكواخ الحقيرة لابن عمّته فاشاسماتي (الفظوا: *Vache asthmatique* «البقرة المُصابة بالربو») وأمّه بالتبنّي سيهرينغ، حصل، لليلة واحدة، على مبنى من أكثر من ألف متر مربّع يحتوي على العشرات من الغرف والصالونات والمطابخ والحمّامات. وبحسابٍ بسيط، أدرك سريعاً حقيقة أنّ تلك الليلة لن تكون كافية لكي ينام على كلّ تلك الأسرّة التي كانت تعرض نفسها عليه.

قرقر بطنه.

مثل ذات الشعر الذهبي في بيت الدبّ، شرع الفقير، الذي لم يعُد يقوى على مقاومة الجوع والتعب، ولا لأيّ شيء آخر، في البحث عن وليمة طيّبة. فاندفع في متاهات أرائك وكراسي فرع الصالونات واتّبع الاتجاه المعطى من قبل اللوحات الإرشادية التي كانت تدلّ على المطعم مثل واحة وسط الصحراء.

في ثلّاجة ضخمة رمادية اللون، عثر على بعضٍ من السلمون

المدخّن، وعلبة من ماركة توبيروير مليئة بالقشدة الطازجة، وبعض البقدونس، وبعض الطماطم والخسّ. سكب كلّ ما عثر عليه في طبقٍ كبير، ثمّ ذهب وأخذ علبة صودا ووضع كلّ شيء على صينية من البلاستيك وسلك الطريق المعاكس في اتّجاه رفوف العرض. هناك، وقع اختياره على صالونٍ مؤثّث بأثاثٍ أبيض وأسود مبرنق. على الجدران، كانت صور فوتوغرافية ضخمة مزجّجة لعمارات نيويورك ذات اللونين الصوفي والأصفر تمنح لمسة من الرخص على عموم المكان. ما كان بوسعه قط أن يجد فندقاً بهذا البذخ ليقضي ليلته فيه، لا سيما مقابل ورقة نقدية من فئة مائة يورو، أقصد بورقة نقدية من فئة المائة يورو المطبوعة فقط على وجهٍ واحد.

وضع الهنديّ الطبق على الطاولة المنخفضة، وخلع سترته وجلس في أريكة مريحة خضراء اللون. في قبالته، كانت هناك شاشة تلفزيونية زائفة من البلاستيك تدعوه إلى التخيّل. تظاهر بأنّه قد شغّل الشاشة وراح يشاهد فيها آخر فيلم بلوكبوستر من بوليوود وهو يتناول في الوقت ذاته بتلذّذ السلمون المدخّن، هذا السمك ذو اللون البرتقالي المشعّ الغريب ولكن اللذيذ الذي تناول منه للمرّة الثانية في حياته في النهار نفسه.

يعتاد المرءُ سريعاً على الرفاهية.

حينما انتهى من تناول وجبته، نهض ومدّد ساقيه وهو يدور حول الطاولة. في تلك اللحظة، لاحظ أنّ في المكتبة الموجودة خلف الأريكة، يوجد كتاب يختلف عن بقية الكتب.

في الواقع كان الأمر يتعلّق بصحيفة، صحيفة حقيقية، كان أحدهم قد نسيها هنا. كانت تمتدّ على جوانبها الكتب الزائفة

المصنوعة من القرميد البلاستيكي والتي كان قد شاهدها في الصباح نفسه معروضة في مكتبات أخرى.

ولأنّه لم يكن يُجيد التحدّث باللغة الفرنسية، ما كان حتى ليفتح الصحيفة لو لم يتعرّف على الصفحة الأولى الفريدة من نوعها لصحيفة **هيرالد تريبيون** الأميركية. قال الهندي في نفسه: تبدو السهرة مسلّية إلى درجة بعيدة عن التخيّل، ولكن لأسباب أخرى.

تظاهر آجاتاشاترو بإطفاء الشاشة التلفزيونية وانهمك في قراءة اليومية الأميركية التي عثر عليها في المكتبة. لم يكُن يطيق أن يكون التلفزيون شغّالاً حينما لا يشاهده. كانت الكهرباء سلعة نادرة بالنسبة إليه. قرأ مقتطفات من المقالة المنشورة في الصفحة الأولى للصحيفة. الرئيس الفرنسي يُدعى هولاند. تفضّل، يا لها من فكرة مضحكة! رئيس هولندا يُدعى السيد فرانس، أهذه مجرّد مصادفة؟ غريبٌ أمر هؤلاء الأوروبيين فعلاً.

وماذا نقول عن هذا الراقص الفني السابق على الجليد، الذي يقطع كلّ سنة انطلاقاً من باريس، بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة مايكل جاكسون، مسافة ستّة آلاف كيلومتر بمشية القمر(*) لكي يزور مقبرة فورست لاون ميموريال بارك، في ضواحي لوس أنجلس، التي دُفِنت فيها رفاة مثله الأعلى؟ لم يكن آجاتاشاترو نابغة في الجغرافيا

(*) مشية القمر (Moonwalk): هي حركة رقص تعتمد على إيهام الناظر بأن الشخص الذي ينفذها يحاول المشي إلى الأمام لكنه يرجع إلى الخلف. وقد اشتهرت هذه الحركة عندما أدّاها المغني الشهير مايكل جاكسون. - المترجم -

ولكن كان يشقّ عليه أن يتخيّل الرجل وهو يواصل أداء تلك الحركة الراقصة الشهيرة خلال عبور المحيط الأطلسي، سواء كان ذلك على متن طائرة أو على متن سفينة.

استبدّت بالفقير الهندي نوبة هستيرية من الضحك ورغبة شديدة في التبوّل، فنهض من الأريكة وعبر بأحذيته، من دون الصندل الخاصّ بأداء مشية القمر، الصالونات المفروشة باتجاه المغاسل.

ولكن كان عليه ألّا يصل إليها أبداً.

تصاعدت أصواتٌ واقترب ضجيج وقع خطوات قادمة من جهة السلّم الرئيس وسط الصمت السائد في المتجر، وحوّلت للحظة الصدر الضعيف للهندي آجاتاشاترو إلى مدرّجات للمشجّعين الرياضيين مساء مباراة لكرة القدم. استبدّ به الرعب، نظر من حوله في كلّ الاتجاهات واندسّ مختبئاً في أوّل خزانة مرّ بها. كانت الخزانة عبارة عن مستودع معدني أزرق اللون له بابان، وكانت تحفة كلّ المجموعة الجديدة من طراز أميريكان تينيجر. ما أن أصبح في داخل الخزانة، تضرّع إلى الله بألا يعثروا على سترته الموضوعة على الأريكة التي تقع على بعد بضعة أمتار من مكان وجوده. كما تضرّع إلى الله بألّا يكتشفوا الصينية - التلفزيون خاصّته التي تركها على الطاولة. ولكنّه تضرّع إلى الله على نحوٍ خاصّ بألا يفتح أحدٌ عليه باب الخزانة التي يختبئ فيها. حين اللزوم، سوف يقول بأنّه دخل إلى الخزانة ليأخذ القياسات وبأنّه لم يشعر بالوقت وهو يمر. أخرج من جيب سرواله قلم رصاص من خشب ومسطرة من ورق بطول مترٍ واحد منقوش عليه اسم ايكيا وظلّ هناك جامداً بلا حراك وسط العتمة، منتظراً أن تتمّ مباغتته بين لحظةٍ وأخرى. داخل قفصه الصدري، كان مشجّعو كرة القدم على وشك تحطيم كلّ شيء.

وفي الخارج، كانت الأصوات تقترب منه أكثر، بل وتحيط به من كلّ الجهات، ولكن في نهاية المطاف، لم يكتشف أيّ شخص وجوده في هذا المكان. ربّما كان أمراً حسناً لو أنّهم رأوه وعثروا عليه.

جوليو سامبا وميشو لابير، مدير متجر ايكيا في منطقة باريس سود تييه ومسؤول الديكور في المتجر، صعدا السلالم المؤدية إلى غرف النوم المفروشة، تسير في أثرهما حاشيتهما، المكوّنة من موكبٍ كبير من رجالٍ ونساء يرتدون قمصاناً صفراء اللون وسراويل كوماندوس باللون الأزرق البحري.

إذا كانوا لا يزالون في العمل إلى هذه الساعة المتأخّرة، فذلك لكي يقوموا بعرض المجموعة الجديدة من المفروشات.

توقّف جوليو سامبا، الذي كان رجلاً عملاقاً يبلغ طوله مترين والذي كان قد صعد أربع مرّات إلى جبل مون بلان وقد قرأ في كلّ مرّة على قمّته لماذا أشعر بالبرد إلى هذه الدرجة لجوزيت كامو قبل أن ينزل عن قمّته، ثمانمائة وثلاث وخمسين صفحة فيما بعد، توقّف أمام غرفة أميريكان تينيجر وأشار بإصبعه نحو جهات مختلفة قبل أن يواصل طريقه. كان ميشو لابير الذي لطالما رغب لو أنّه قد وُلِد في هيئة امرأة يدوّن في دفتره الوردي اللون اسم الخزائن التي كان يحدّدها سيّده مثيراً من حوله الكثير من الهواء.

في تلك الأثناء، كان أعضاء الفريق التقني، والذين بالتأكيد لم يكن أغلبهم قد سمع حديثاً عن لماذا أشعر بالبرد إلى هذه الدرجة

لجوزيت كامو ولا حلموا بأن يولدوا في جنسٍ مختلف، يرتدون قفازاتهم ويُحلّون الورق الأصفر ويدفعون الصناديق التي تُستخدم في نقل الأثاث دون التعرّض لخطر الكسر. لأسباب قاهرة تتعلّق بالوقت، أعطى المدير التعليمات بعدم فكّ الأثاث (هذا تجاوز على الإجراءات الأصولية في شركة ايكيا!) وبتعبئته مباشرة في الصناديق الخشبية الضخمة. بهذه الطريقة، تجنّبوا عملية فكّ معذّبة للروح بقدر ما هي مؤلمة للجسد.

بينما كان التقنيون ينهمكون في رفع الخزانة الحديد الزرقاء اللون وتعبئتها في صندوقٍ خشبيّ أكبر منها حجماً بكثير، سمعوا ما يشبه بقبقةٍ خفيفة، خيطٌ رفيع من الماء ينهمر من صنبور.

لو أنّ أحدهم فتح باب الخزانة في تلك اللحظة، لوجد رجلاً يُدعى آجاتاشاترو وهو في وضعيَة مُزرية للغاية، منتصباً على قدميه، منكمشاً على نفسه في زاويةٍ، منشغلاً تماماً بإطلاق العنان للمخيّلة الطافحة لمثانته في حين كانوا يرفعونه على ارتفاع بضعة سنتيمترات من الأرض. التبوّل في خزانة صعبٌ مثلما هو في طائرة، لاحظ ذلك الفقير الهندي الذي ما كان ليصدّق أبداً أنّه سيُقاد ذات يوم إلى هكذا نزاع.

مهما يكن من أمر، لم يفتح أحد باب الخزانة.

قال جوليو الذي كان يقظاً ولا يغفل عن أيّ أمر:

- حينما تنقلون كلّ هذا الأثاث، أصلِحوا لي عملية رشح الماء هذه.

ثمّ أشار بإصبعه الفاحصة نحو مكتبة - زالقة على بعد عدّة أمتار من مكانه، كما لو أنّه يحكم عليها بالموت. وهو ما حدث إلى حدّ ما.

في اللحظة نفسها، أي في اللحظة نفسها التي كان جوليو سامبا يشير بإصبعه الفاحصة نحو مكتبة - زالقة على بعد عدّة أمتار من مكانه، كما لو أنّه يحكم عليها بالموت، أي في الساعة الحادية عشرة ليلاً تماماً، كان غوستاف بالورد يركن سيارته على حافّة الطريق، ويتأكّد من أنّ نوافذ وأبواب سيارته مُحكمة الإغلاق وبدأ يحسب، وهو يفرك يديه، غلّة نهاره من العمل.

كان ذلك طقساً من طقوس نهاية يوم العمل على سيارة الأجرة، وهو تعبير عن الرضا عن العمل المنجز بشكلٍ جيّد. منذ أن فاجأته زوجته، مرسيدس - شايانا، ذات يوم، في البيت (هكذا كانا يسمّيان مقطورتهما)، وهو منهمكٌ في حساب الأوراق النقدية بعد العمل، وما أن اكتشفت مخبأه، سرقت منه جزءاً كبيراً من النقود لكي تشتري بها حقائب يد مصنوعة من جلد العجل، اعتاد غوستاف على أن يتصرّف بهذه الطريقة. لا ينبغي اختبار الإبليس حتى وإن كان لا يرتدي ثياباً من ماركة برادا... كان يردّد هذه العبارة دائماً على مسامع زملائه منذ تلك الحادثة.

ما أن انتهى من حساب الغلّة، ألقى السائق العجوز لدى شركة جيتان لسيارات الأجرة نظرة على دفتر مذكّراته وتبيّن له بأنّ حصيلة

الجولات التي قام بها في النهار لا تتناسب مع المبلغ الموجود بين يديه اللتين كفّ عن فركهما، حانقاً. أعاد حساب الغلّة من جديد، فعل ذلك لعدّة مرّات، يدوياً ومن ثمّ باستخدام تطبيق الآلة الحاسبة الموجود في هاتفه المحمول ولكن النتيجة كانت دائماً هي ذاتها. كان هناك فرق بمبلغ مائة يورو. نبش في جعبة المكياج التي كان قد (استعارها) من زوجته، بسبب تغيير بسيط للأشياء، والتي يدسّ فيها كلّ أنواع الأشياء، نبش في محفظة نقوده، وغدا أكثر عصبية، مرّر يده من تحت مقعده، ومن ثمّ من تحت المقعد الذي بجانبه، ومن ثمّ بحث في الجيوب الجانبية لأبواب السيارة حتى أنّه، وقد تملّكه اليأس، بحث في أخدود علبة تغيير السرعة. وفي كلّ مكان بحث فيه، لم يعثر سوى على الغبار. مائة يورو. فكّر غوستاف من جديد بالورقة النقدية الزرقاء للرجل الهندي الذي أنزله أمام متجر ايكيا. كانت تلك التوصيلة الأعلى أجراً في ذلك النهار، وبالتالي ليس من الممكن أن يكون قد أعاد لزبونٍ آخر الورقة النقدية كفراطة.

- ليتني لم أحصل على تلك الورقة النقدية اللعينة، هذا أنّ...

لم يلزمه الكثير من الوقت في شركة جيتان حتى يدرك بأنّه كان ضحية لنشالٍ أكثر مهارةً منه. استعاد المشهد في ذهنه. استعاد مشهد الراكب الهندي وهو يمدّ نحوه الورقة النقدية. تخيّل وهو يأخذها منه في يده. وهو يفتح محفظة نقوده ويدسّها فيها. تخيّل الهندي وهو يلوّح بيده ليدلّه على شيءٍ ما. تذكّر مشهده وهو ينظر بالاتجاه نفسه. تذكّر أنّه لم يرَ أيّ شيء مهمّ. فقال في نفسه بأنّ الهندي فرخٌ مجنون. تذكّر وهو يضبّ محفظته. تذكّر وهو ينحني على علبة الصندوق الأمامي في سيارته لكي يأخذ منها بطاقة زيارة.

صرخ غوستاف:

- الحقير النذل! كانت حركاته المُبالغ فيها لأجل جذب انتباهي نحو شيءٍ آخر بينما هو يسحب مني ورقته النقدية. كابرون[1]!

إذا كان هناك أمرٌ لا يُطيقه سائق التاكسي الباريسي فهو أن يكون الغشّاش المغشوش، الرشّاش المرشوش، الضحيّة، مغفّل العشاء. عزم على أن يعثر على الرجل الهندي في الحال وأن يجعله يأكل عمامته، كما يقول سائق شركة جيتان.

عند هذه الكلمات، داعب التمثال الصغير لسارا سيّدة سائقي شركة جيتان، المعلّق بالمرآة العاكسة في السيارة. وحينما أقلع بأقصى سرعته، دفعت بقوّة القديس فياكر، سيّد سائقي سيارات الأجرة، المدلّى بجانبها.

خلال طيلة الرحلة نحو البيت (المقطورة)، كان غوستاف يشتم ويلعن الهندي من بين أسنانه. حتى أنّه لم يكن يستمع إلى أسطوانة فرقة جيبسي كينغز التي كان يدرجها باستمرار في قارئة الأسطوانات خاصّته، وذلك حينما يكون غاضباً. وبينما كان ينتظر أن تفتح إشارة مرورية، نَمَت في ذهنه فكرةٌ. بعد أن يكون قد أنهى مشترياته في المتجر، ربّما يكون الهندي قد استخدم بطاقة سيارات الأجرة العائدة لشركة جيتان التي كان قد أعطاها له. وإذا كان ذلك قد حدث فعلاً، فمن المؤكّد أنّ أحد زملائه سيكون قد أخذ التوصيلة. ولن يكون عليه سوى أن يسأله أين أنزله وسوف يذهب لكي يجده هناك وسوف يحتفي به على طريقته الخاصّة. ومن دون تردّد، لجأ غوستاف إلى جهاز بثّ الراديو.

- إلى كلّ الوحدات (كان قد نسخ العبارة من ستارسكي أند

---

(1) كابرون: شتيمة إسبانية أكثر عنفاً بقليل من عبارة «صبيٌّ شرير».

هوتش)، هل أخذ أحدكم رجلاً هندياً، اليوم، يرتدي بزّة رمادية مدعوكة، وربطة عنق حمراء مشكوكة بدبّوسٍ إلى القميص، ويعتمر عمامة بيضاء، وفي وجهه شارب، طويل القامة، جافّ العود وأعجر مثل شجرة، رجلٌ هندي، من متجر ايكيا في منطقة باريس سود تييه؟ هذا رمز V كما في كلمة Voleur (لصّ)، أكرّر، هذا رمز V كما في كلمة Vermine (هامّة)، لقد سمعتم جيّداً، هذا رمز V كما في العبارات التالية:

Tu Vas Voir ce que tu Vas Voir, Vermine de Voleur si je te retrouVe!

(سترى ما ستراه، هامّة لصوصية إذا ما عثرتُ عليك!).

- الثقة بشخصٍ «قروي»(*)، وعلاوة على ذلك هندي، لمسافة من رواسي إلى ايكيا، لن يُعيدوني إلى العمل.

غمغم بذلك وهو يقول في نفسه أنّ حدثاً كهذا لا بدّ أنّه يحدث بانتظام كما هو حال مرور مذنّب هالي (من المتوقع أن يحدث المرور التالي في 28 يوليو 2061) وربّما أنّه لم يكن أمراً حسناً، في نهاية المطاف، أن يتحدّث عن الموضوع أثناء العشاء مع زوجته وأن يبدو كمغفّلٍ أمام ابنته التي كانت بالأساس تعتبره مغفّلاً.

بعد مرور بضع دقائق، لم يُعلن أيّ من زملائه الموجودين في الخدمة بعد ظهيرة ذلك اليوم بأنّه قد أخذ الراكب الغامض. استعرض غوستاف الاحتمالات في ذهنه، إمّا أنّ الهندي قد اتّصل بشركة أخرى لسيارات الأجرة، وإمّا أنّه قد استأجر عربة صغيرة على حسابه الخاصّ، وإمّا أنّه لا يزال موجوداً في المنطقة الصناعية.

(*) Payo: تعبير إسباني يُطلقه الغجر على مَن هم ليسوا من أصولٍ غجرية، وقد آثرنا أن نترجمه بمعنى «قروي». - المترجم -

بالنسبة إلى الاحتمالين الأوّلين، لا يمكنني أن أفعل أيّ شيء قبل يوم غد. أمّا بالنسبة إلى الاحتمال الأخير، فلا يزال يمكنني الذهاب لكي أرى إن كان هناك فندقٌ قريب من المتجر. أنا موجود في هذه المنطقة، لن يأخذ الذهاب إلى هناك من وقتي سوى أقلّ من ربع ساعة.

وإذ قال هذا، استدار نصف استدارة وأقلعت السيارة في زحلقةٍ صاخبة جثمت خلالها سارا، سيّدة سيارات شركة جيتان، لبضع ثوانٍ بين الذراعين الحاميتين للقديس فياكر وهي تبتسم.

حينما وصل غوستاف إلى أمام متجر ايكيا، كانت شاحنة ضخمة للبضائع تخرج منه. تنحّى غوستاف جانباً وأفسح الطريق للشاحنة لكي تمرّ، دون أن يخطر بباله على الإطلاق أن يوجد في مقطورتها صندوقٌ خشبيّ كبير كان يحتوي، على غرار الدمى الروسية، على صندوقٍ من الورق المقوّى الذي كان يحتوي بدوره على خزانة معدنية كانت تحتوي بدورها على الرجل الهندي الذي يبحث عنه.

سلك الطريق من جديد، وجالَ من حول المُنشأة ولكنّه لم يجد أيّ شيء يثير الشبهة. كان مركزٌ تجاري كبير مغلق الأبواب، ومقهى ستارباكس كوفي مفتوح الأبواب ولكنّه خالٍ من الزبائن. كان يوجد في ذلك المكان كلّ شيء ما عدا فندق. كلّ شيء عدا رجلٍ هندي طويل القامة رفيع القوام، جافّ العود وأعجرٍ مثل شجرة، ويرتدي بزّة وربطة عنق وعمامة يغشّ ويحتال على سائقي سيارات الأجرة الفرنسيين العاملين في شركة جيتان الشرفاء.

كانت هناك على الجانب الآخر من الطريق شقق مفرزة ولكن بما أنّ اللصّ لا يعرف أحداً يسكن في تلك الشقق، لم يكن من المحتَمَل أن يوجد فيها.

ولو. . . قال غوستاف في نفسه والذي لم يكن يفوّت أبداً حلقةً من مسلسل بكين إكسبرس والسلسلة الوثائقية سوف أنام في بيتكم.

مع هكذا شخصية، ليس هناك أيّ شيء مؤكّد. ربّما يكون قد وجدَ الملاذ عند السكان لقضاء الليلة، وهو يمارس ثرثرته وحيله في الشعوذة والدجل.

ولأننا لا نعرف أبداً، انسلّ بسيارته المرسيدس في الشوارع المأهولة بالبيوت الجميلة واستغرق أكثر من خمس دقائق وسط تلك المتاهة من العقارات وخرج من جديد إلى الشارع الذي أتى منه.

كان يجب عليه تسوية هذا الأمر في الحال ومن دون إبطاء، لأنّه في اليوم التالي، سوف يسافر إلى إسبانيا في عطلةٍ مع العائلة. وبالتالي لم يجِد سوى حلّ وحيد: الاستنجاد بأشخاصٍ محترفين ذوي خبرة.

كان الميثاق الجديد لاستقبال العامّة لجهاز الشرطة الوطنية ينصّ على أنّه اعتباراً من الآن لكلّ مواطن فرنسي صالح الحقّ في تقديم الشكوى ضدّ كلّ أنواع المخالفات، مهما كانت تافهة وسطحية، وذلك في أي مفوضية شرطة يختارها بنفسه. أمّا رجل الشرطة، الذي ليس له أيّ حقّ، فيقع على عاتقه واجب تلقّي الشكوى، مهما اعتبرها تافهة وسطحية، وعدم توجيه المشتكي نحو مفوضية أخرى للشرطة لكي يتخلّص منه، وهي ممارسة سارية المفعول حتى الآن. وبالتالي، ومنذ عدّة أشهر، كان يسود جوٌّ غير صحّي بين الضحايا الغاضبين، المتعبين من جرّاء عدم سير دورهم بسرعة أكبر من سرعة دور البريد أو دور محل جزارة الخنزير في الحيّ، وبين رجال الشرطة الساخطين لكونهم بشراً وليسوا أخطبوطات يمكن استخدام بعض مجسّاتها في كتابة عدّة محاضر رسمية في آنٍ واحد. إنّه شعورٌ مثير حينما يحلّ الليل، إذ إنّ عدد المؤسسات المفتوحة أمام العامّة يذوب بأسرع من قطعة ثلج على سرّة الممثّلة كيم بايسنجر، وهو شعورٌ يخصّ عموم الضحايا الباريسيين حول النقطة ذاتها، الأمر الذي كان ميثاق الاستقبال الجديد الشهير يسعى تحديداً إلى تجنّبه.

مرّ ما يقارب ثلاث ساعات بين اللحظة التي قرّر فيها غوستاف تبليغ الشرطة واللحظة التي وقّع فيها، منتصراً، على شهادته أمام الموظّف الموجود في الدوام.

حريصاً على عدم تخريب التفاهم المتناغم القائم من قبل الشرطة القريبة من القطاع مع المجتمع الغجري الذي يقع على الجانب الآخر من الدائرة، أوفَد الشرطي في الحال وبأقصى سرعة الضابطة المناوبة وأحد زملائها إلى متجر ايكيا، برفقة الضحية، بغية مشاهدة الأشرطة التي كانت كاميرات المراقبة قد سجّلتها في ذلك النهار. سوف يعثران على هذا الفقير الهندي المُفلس الذي جاء ليزرع الفتنة بين أقليات بلدهما، وسوف يُعيدان ما سرقه من سائق سيارة الأجرة حتى آخر سنتيم من يورو.

وهكذا وجد غوستاف بالورد وقائدة الشرطة ألكسندرا لافيف وحارس السلام ستيفان ديماربر أنفسهم، وسط عتمة الليل، في المكتب الأمني الضيّق للمتجر لكي يشاهدوا هندياً غادر بلاده حديثاً والذي كان قد أمضى ما يقارب عشرين دقيقة وهو ينظر بإعجاب إلى الأبواب الأوتوماتيكية المطلّة على البهو قبل أن يتّخذ القرار بالدخول إلى متجر المفروشات.

قال الحارس الليلي المشرف على أجهزة التسجيل:

- إذا كان سيفعل هذا أمام كلّ باب، سوف نبقى هنا حتى يوم غد.

صحّح مدير المتجر، السيّد جوليو سامبا وهو يمسح نظارته الدائرية الشبيهة بنظارة هاري بوتر بقطعة سميكة من النسيج، قائلاً:

- لم يعُد هناك أيّ باب آخر.

أضافت قائدة الشرطة لافيف، وهي متأكّدة من أنّ باقتراحٍ كهذا، لن تُعتبَر مغفّلة، الأمر الذي كانت تخشاه، مثلما لم يكن اسمها يدلّ على ذلك، وقالت:

- يمكننا أن نشاهد الشريط وهو في حالة تسريع.

صرخ سائق سيارة الأجرة الذي كانت مراجعه الثقافية تختصر على عالم المشاهدات التلفزيونية فقط:

- هذا يجازف بأن نشبه الممثل الهزلي بيني هيل.

قاطعه ديماربر ببرود:

- اسكت ودعنا نعمل!

بعيداً عن هذا الحديث المثير حول شخصه، كان الفقير الهندي يتسكّع في ممرّات المتجر، ما أن تفقده إحدى كاميرات التصوير، حتى تلتقطه أخرى في الحال. وهو الذي لم يكتشف أيّ كاميرا منها! شوهِد وهو يتناول الطعام برفقة امرأة شقراء جميلة والتي كانت قد اصطدمت به في رتل الانتظار وحطّمت نظارته الشمسية.

قال غوستاف الذي شعر بأنّه يشاهد حلقة من المسلسل التلفزيوني الفرنسي سيكريت ستوري (الحكاية السرية) في مقطورته:

- سوف تضطرّ لممارسة الجنس.

شاهدوا مقطع تناول الوجبة سريعاً ومن ثمّ تجوّل الرجل وحيداً في الممرات. كان ذلك يشبه في الواقع مشهداً تمثيلياً للكوميدي بيني هيل. أعيد كلّ شيء إلى سرعته الطبيعية حينما اندسّ الفقير الهندي، بخلاف كلّ التوقّعات، تحت سريرٍ في المتجر.

قبل أن يتوارى الهندي عن أزواج العيون الثلاثة السوداء اللون، قال جوليو سامبا:

- سرير من ماركة بيركلاند. اختيارٌ ممتاز.

ومن ثمّ شوهِد اللصّ وهو يخرج من مخبئه ويُعدّ لنفسه طبقاً صغيراً من الطعام في المطبخ ويتناوله وهو يشاهد شاشة بلاستيكية فارغة على نحوٍ يائس في صالون مفروش. ثمّ قرأ صحيفةً، مسترخياً في أريكة، مرتدياً جوربيه. ما كان ليتصرّف على نحوٍ أفضل لو كان في بيته.

صرخ الحارس الليلي فجأةً وهو ينقر بسبابته على شاشة التلفزيون:

- لقد أمسكنا به!

ثمّ نهض من مقعده مثل عفريتٍ صغير يصعد على نوابض، وهرع مسرعاً نحو الباب وخرج دون أن يعلم أحدٌ أيّ ذبابة لكعته.

بقي الآخران لوحدهما وتابعا مشاهدة التسجيل.

نحو الساعة العاشرة والربع مساءً، ظهر مدير المتجر على الشاشة، مصحوباً برجلٍ قصيرٍ وسمين والذي بدا أنّه لا يزال يرغب في أن يكون امرأة وبفريقٍ تقني متكامل. وجد جوليو سامبا نفسه متألّقاً جدّاً على الشاشة وتحسّر لكونه لم يمتهن التمثيل في السينما.

غمغم مستسلماً وهو يعدّل نظارته:

- لقد راح منّي دور هاري بوتر.

شوهِدَ الفقير الهندي يقفز حجلاناً ويختبئ في خزانة معدنية زرقاء اللون قبل أن يبدأ التقنيون بتغليفها بالورق الأصفر ومن ثمّ في صندوقٍ ورقيّ كبير وأخيراً في صندوقٍ ضخمٍ من الخشب.

ومن ثمّ رصّ فريق التقنيين كلّ البضاعة باستخدام أحزمة طويلة ومن ثمّ تمّ تحميل الطرد على عربة كهربائية عملاقة باتجاه الرافعة.

في تلك اللحظة، دخل الحارس الليلي، المغرم بالمسلسلات الأميركية البوليسية، إلى مكتب الأمن في المتجر. كان يحمل الطبق - التلفزيون خاصّة الفقير الهندي، الذي وجده في مكانه على الطاولة المنخفضة في الصالون الأبيض والأسود المبرنق. وكان قد كوّم فوقه سترة رمادية اللون، وربطة عنق حمراء اللون وزوجاً من الأحذية السوداء اللون.

قال متباهياً:

- هذا الصحن وهذا الكوب يحملان آثار البصمات وسوف تجدان من دون شكّ بعض الشعر أو الوبر على هذه الثياب.

أبدت قائدة الشرطة حركة تقزّز خفيفة حينما شاهدت الأحذية المتّسخة. متجاهلةً الحارس الليلي، التفتت نحو مدير المتجر:

- ماذا فعلتم بهذه الخزانة؟

غمغم الرجل الذي بدا منهكاً:

- الخزانة التي رأيناه في هذا المشهد؟

- نعم الخزانة التي على نحوٍ أدقّ لم نعُد نراها في هذا المشهد.

- لقد شُحِنَت...

- شُحِنَتْ؟

- نعم، أُرسِلَت، نُقِلَت.

قاطعته لافيف التي شعرت بأنّه بدأ يعتبرها مغفّلة:

- أعرف تماماً ما تعنيه كلمة «شُحِنَت». ولكن إلى أين أرسلتموها؟

عضّ الرجل على شفته العليا، فقط لو كان هاري بوتر في

تلك اللحظة، لاستطاع أن يتوارى عن الأنظار بضربةٍ من العصا السحرية.

- إلى المملكة المتّحدة...

ابتلع الجميع ريقهم في اللحظة نفسها.



ب
بريطانيا العظمى

أيقظَت أصواتٌ آجاتاشاترو من نومه.

أصواتٌ رجالية خشنة وعالية.

لم يكن قد أدرك بأنّه نعس.

منذ أن دخل إلى الخزانة، تمّ قلبه بكلّ الاتجاهات. شعر بأنّه قد تمّ رفعه عن الأرض ودحرجته وصدمه بجدران وبسلالم وبموانع أخرى، موانع غير معروفة وغير محدّدة.

لمرّات عديدة، حاول أن يخرج من الخزانة وأن يعترف بكلّ شيء. ربّما كان ذلك أفضل له من أن يتعرّض لكلّ هذه الجلبة وأن يُنقل نحو المجهول. من جهة أخرى، كان للعتمة وللأصوات غير المفهومة باللغة الفرنسية شيءٌ من الإرهاق والإجهاد بالنسبة إليه. ولكن في النهاية، قاوم آجاتاشاترو. بعد مرور بضع دقائق، خمد ولم يعُد يسمع شيئاً ولا يشعر بأيّ شيء. حتى أنّه اعتقد بأنّ قد مات. ولكن الألم الذي شعر به حينما قرص ظهر يده أكّد له بأنّه لم يمت بعد، على الأقلّ ليس بعد، وبأنّه قد تُرِك فقط لمصيره المحزن وسط الصمت والظُلمات. فحاول أن يخرج من الخزانة ولكنّه لم يتمكّن من ذلك. منهكاً ومستسلماً، اضطرّ لأن يندسّ في الحواشي القويّة للنوم.

الآن، لا تكفّ الأصوات الخشنة عن الكلام. اعتقد الفقير الهندي بأنّه قد ميّز من بينها خمسة أصوات. لم يكن ذلك مؤكّداً، كانت لها كلّها النبرة الخفيضة نفسها، المخنوقة كما لو أنّها خارجة من ما وراء القبر. ولكنّ أمراً واحداً كان مؤكّداً، إنّها ليست الأصوات نفسها التي كان قد سمعها من حوله في المتجر. كانت الأصوات تتحدّث بسرعة وهي تعبّر بلغة مليئة بالمحاكيات الصوتية، وأصوات جافّة، وفظّة والتي لم تكن مجهولة بالنسبة إليه. اعتقد الفقير الهندي بأنّها لغة عربية ولكنّها محكية من قبل زنوج. انفجر أحد الرجال ضاحكاً. كما لو أنّ حشيّة ذات نوابض كانت تصرّ صريراً تحت حميّة واندفاع عاشقين. وإذ لم يكن يعرف إن كانت هذه الأصوات هي أصوات أصدقاء أم أعداء، كتم الفقير أنفاسه. يقصد بالصديق كلّ شخص لا ينبهر بالعثور عليه في هذه الخزانة. وكان يقصد بالعدو كلّ الآخرين: موظّفو متجر ايكيا، رجال الشرطة، الشارية المحتمَلة للخزانة، الزوج المحتَمل للشارية المحتمَلة وهو يعود من العمل إلى بيته ويجد الفقير الهندي الذي يرتدي جوربين في خزانته الجديدة.

بصعوبة كبيرة وبعد عناء، بلع ريقه وحاول أن يبلّل فمه. كانت شفتاه دبقتين، كما لو أنّ أحدهم قد ألصقهما بصمغ قوي. فاستبدّ به شعورٌ رهيب بالهلع، شعورٌ أكثر رعباً حتى من خوفه من أن ينكشف وهو على قيد الحياة، شعور أن ينكشف ميّتاً في هذه الخزانة الشبيهة بصفيحة معدنية رخيصة.

أثناء فترة تدريباته التأهيلية في بلدته، كان آجاتاشاترو يبقى لأسابيع من دون أن يتناول الطعام، وهو جالسٌ في وضعية زهرة اللوتس في رياضة اليوغا داخل جذع شجرة تين البنغال، كما كان

يفعل مؤسّس البوذية سيدهارتا غوتاما قبل ألفين وخمسمائة عام. لم يكن ينسجم إلّا مع بذخ التغذية، مرّة واحدة في اليوم، في منتصف الظهيرة، لوالب، مسامير كبيرة وسواها من المسامير الصدئة التي كان سكّان القرية يرغبون في تقديمها إليه كعطايا. في مايو 2005، جاء صبيٌّ في الخامسة عشرة من عمره يُدعى رام بهادور بومجام، قُدِّم من قبل عشّاقه على أنّه متأمّل منذ ستّة أشهر دون طعامٍ أو شراب، وسرق منه نجوميته. فقد اتّجهت كل تلفزيونات العالم قاطبة نحو الدجّال المحتال وتركت آجاتاشاترو منسيّاً في جذع شجرته الصغيرة.

في الحقيقة، شرهاً كما هو في الواقع، لم يكن صاحبنا الفقير يستطيع أن يمضي أكثر من نهارٍ واحد من دون طعام. ما أن كانت الشمس تغيب، كلّ مساء، حتى تُسدَل ستارة الخيمة المنصوبة أمام شجرة التين البنغالي ويشرع هو بتناول الطعام الذي كان يجلبه له ابن عمّته ريباسماتي (الفظوا: *Riz basmati* «رز بسمتي»)، المتواطئ معه وشريكه في عددٍ كبير من خدعه وحيله. أمّا بالنسبة إلى اللوالب والمسامير الكبيرة، فقد كانت من الفحم، وهي وإن كانت غير مستحبّة للطعام، إلا أنّ تناولها كان أسهل بكثير من ابتلاع مسامير حقيقية مصنوعة من الفولاذ مهما كانت صدئة.

ولكنّ آجاتاشاترو لم يصم قطّ حبيساً في خزانة من دون طعامٍ مخفيٍّ في رفوفها. ربّما سيتمكّن من الوصول إليه إذا ما اضطرّ لذلك. في نهاية المطاف، كان يُدعى آجا (الفظوا: *À jeun* «صائم»). كان طبيب بلدة كيشانيوغور قد أكّد له ذات يوم بأنّ الكائن البشري، فقيراً كان أم لا، لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة لأكثر من خمسين يوماً وسطيّاً من دون طعام وليس لأكثر من اثنتين وسبعين ساعة من دون ماء. اثنتان وسبعون ساعة، أي ما يُعادل ثلاثة أيام.

بكلّ تأكيد، لم يكن قد مضت سوى خمس ساعات على آخر مرّة تناول فيها الطعام وشرب الماء، ولكنّ الرجل الهندي لم يكن يعرف ذلك. وسط عتمة الخزانة، كان قد فقد كلّ معرفة بالوقت. وبما أنّه وجد نفسه يشعر بالعطش في هذه اللحظة، فإنّ طبيعته الوسواسية، غير المنسجمة كثيراً مع مهنة الفقير، دفعته إلى الاعتقاد بأنّه ربّما يكون قد أمضى مدّة الاثنتين والسبعين ساعة المقدّرة محبوساً هنا في الداخل وأنّ أمله في الحياة كان على وشك أن يتلاشى مثل شمعة مضاءة منذ زمنٍ طويل.

إذا كان الطبيب قد قال الحقيقة، فإنّ على الفقير الهندي أن يشرب بأسرع ما يمكن. سواءٌ كانت الأصوات الصادرة من خلف الحجاب أصواتاً صديقة أو معادية، دفع صاحبنا من جديد باب الخزانة بغية التحرّر منها. كانت المسألة مسألة حياة أو موت. ولكنّ مرّة أخرى، ذهبت جهوده سدى. لم تتح له ساعداه الضعيفتان والمعروقتان أن يتمكّن من تحطيم أبواب الخزائن، بخلاف أبطاله في أفلام البوليوود، سواء كانت تلك الخزائن من شركة ايكيا أو من سواها.

لا بدّ أنّه قد أصدر ضجيجاً خفيفاً لأنّ الأصوات توقّفت على حين غرّة. من جديد، استعاد آجاتاشاترو أنفاسه وانتظر، جاحظ العينين، على الرغم من العتمة التي كانت تعمّ من حوله. ولكنه لم يكن على خشبة المسرح، في قفصٍ زجاجيّ مليء بالماء، مع غطاءٍ سميكٍ بما فيه الكفاية لكي يتمكّن من التنفّس عبر الستارة المنسدلة. وبالتالي لم يستغرق سوى بضع ثوانٍ في حالة من انقطاع الأنفاس ومن ثمّ استردّ أنفاسه في صخبٍ شبيهٍ بنخير الحصان.

سمع صرخات ذهولٍ خافتة في الجانب الآخر من الحائط، ومن

ثمّ علامات هياجٍ: علبة محفوظاتٍ سقطت على أرضيةٍ معدنية، وأناسٌ يتدافعون.

قال بلكنته الإنجليزية المفضّلة:

- لا تغادروا!

بعد برهةٍ قصيرةٍ من الصمت، سأله صوتٌ، باللغة نفسها التي تحدّث بها، مَنْ يكون. كانت اللكنة واضحة لا تشوبها شائبة. لا بدّ أنّ المتكلّم كان زنجياً. ولكن لا بأس، من داخل خزانة غارقة وسط الظلام، قد يبدو الجميع زنجياً على شاكلته.

كان الفقير الهندي يعلم بأنّ عليه أن يكون يقظاً وحذراً. فالأفريقيون يعتنقون، بأعدادٍ كثيرة، مذهب الإحيائية(*) ويوهبون الحياة بسهولة لأيّ شيء، كما هو الحال إلى حدّ ما في **آليس في بلاد العجائب**. وفي حال لم يُخبرهم بالحقيقة، قد يعتقدون دون أدنى شكّ بأنّهم أمام خزانة تنطق وبالتالي يُطلقون ساقيهم للريح هرباً من هذا المكان الملعون، ويخطفون معهم الفرصة الوحيدة لإخراجه من الخزانة وهو على قيد الحياة. كان لا يزال يجهل أنّ هؤلاء الرجال لم يكونوا أحيائيين وإنّما مسلمون وأنّهم، بسبب وجودهم في شاحنة، ما كان بوسعهم أن يطلقوا ساقيهم للريح والهرب بعيداً حتى وإن تمنّوا ذلك ورغبوا فيه أشدّ الرغبة.

بدأ الفقير الهندي وهو يستخدم لكنته البريطانية الأكثر قرباً من اللهجة الأوكسفوردية (لا تستطيع خزانة أن تُجيد هكذا لهجة جميلة)، قائلاً:

(*) الإحيائية: أو الأرواحية، مذهب حيوية المادة الذي يقوم على الاعتقاد بأنّ النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقتٍ واحد. - المترجم -

- حسناً، أمّا وقد سألتموني، أنا أُدعى آجاتاشاترو لافاش. أنا من مقاطعة راجستان. ربّما لن تصدّقوني ولكنني حُبِستُ في هذه الخزانة بينما كنتُ آخذ قياساتها في متجرٍ فرنسيٍّ كبير، أقصد متجر سويدي. ليس لديّ لا ماء ولا طعام. هل يمكنكم أن تخبروني أين نكون، من فضلكم؟

ردّ عليه صوتٌ:

- نحن في شاحنة خاصّة بنقل البضائع.

- في شاحنة خاصّة بنقل البضائع؟ يا للهول! وهل نسير؟

ردّ عليه صوتٌ آخر:

- نعم.

- أمرٌ غريب، أنا لا أشعر بأيّ شيء، ولكنني أصدّقكم إذا قلتم ذلك، كما أنّ ليس لديّ خيار. وهل يمكنني أن أعرف إلى أين نسير، إن لم يكن هذا تطفّلاً وإفشاءً للسرّ؟

- إلى إنجلترا.

وردّ صوتٌ آخر:

- أقصد، هذا ما أتمناه.

- تتمنّون ذلك؟ وهل يمكنني أن أسألكم ماذا تفعلون في شاحنة خاصّة بنقل البضائع تجهلون بيقين وجهتها؟

تحدّث مَنْ كانوا في الشاحنة بلغتهم الأمّ لبرهةٍ. بعد بضع ثوانٍ، استلم صوتٌ أكثر خشونة، وأكثر قوّة، لا شكّ أنّه كان صوت القائد، استلم زمام المحادثة والإجابة عن الأسئلة.

قال الرجل بأنّه يُدعى فيراج (الفظوا: *Virage* «انعطاف»)، وبأنّ عددهم ستّة أشخاص في هذه الشاحنة وأنّ جميعهم سودانيون. كان من بين الأشخاص الموجودين كوغري وباسل ومحمد ونيجام وأمسالو (الفظوا كلّ هذه الأسماء كما يحلو لكم). وحده حسن، الذي كان قد أُوقِفَ من قبل الشرطة الإيطالية، تخلّف عن مناداته. كان الرجال السبعة قد غادروا بلادهم، وعلى نحوٍ أدقّ مدينة جوبا في جنوب السودان الحالي، منذ ما يقارب عاماً واحداً من الآن. وكانوا يعيشون منذ ذلك التاريخ رحلةً جديرة بكبرى روايات جول فيرن.

انطلاقاً من مدينة سليمة السودانية، عبر الرجال السبعة المنطقة الحدودية المشتركة بين السودان وليبيا ومصر. هناك، قادهم مهرّبون مصريون إلى ليبيا، أوّلاً، في الكفرة في جنوب شرق البلاد ومن ثمّ في بنغازي، في شمال البلاد. بعد ذلك، انتقلوا إلى طرابلس حيث عملوا وعاشوا لمدّة ثمانية أشهر. ذات ليلة، إستقلّوا مركباً مربّعاً مع ستين شخصاً آخر وأبحروا بغية الوصول إلى شواطئ جزيرة لامبيدوزا. بعد أن تمّ توقيفهم من قبل رجال قوات الدرك الوطني

الإيطالية، تمّ نقلهم إلى مركز كالتانيسيتا. وقد سهّل مهرّبون خروجهم لكي يحتجزوهم فيما بعد على نحوٍ أفضل ويطالبوا أُسَرهم بفدية لقاء إطلاق سراحهم. طالبوا بألف يورو، وكان هذا مبلغاً فلكياً بالنسبة إليهم. وقد اشتركت بلدتهم في جمع المبلغ ودفعته لقاء إطلاق سراحهم. فتمّ تحرير الرهائن ووضعهم على متن قطارٍ يربط إيطاليا مع إسبانيا. وجدوا أنفسهم في مدينة برشلونة، معتقدين أنّ المدينة تقع في شمال فرنسا، وأمضوا فيها بضعة أيام قبل أن يتداركوا خطأهم ويستقلوا قطاراً آخر ويتّجهوا إلى فرنسا، وعلى نحوٍ أدقّ إلى باريس. باختصار، استغرق المهاجرون السريّون ما يقارب عاماً كاملاً لكي يقطعوا بطريقة غير شرعية المسافة نفسها التي كان مسافرٌ شرعي سيقطعها في إحدى عشرة ساعة من الطيران في أقصى تقدير. عامٌ كاملٌ من الألم والقلق لقاء إحدى عشرة ساعة من الجلوس بارتياحٍ على متن طائرة.

كان فيراج ومرافقوه قد أمضوا ثلاثة أيامٍ في العاصمة قبل أن يستقلّوا القطار ويتوجّهوا إلى كاليه، المحطة الأخيرة قبل المملكة المتّحدة. ظلّوا في تلك المدينة لعشرة أيام، وقد ساعدهم في جزءٍ كبير متطوّعو منظمة الصليب الأحمر الدولية، بارك الله فيهم، الذين قدّموا لهم ما يتناولوه من الطعام وكذلك مكاناً لكي يناموا فيه. وأيضاً بهذه الطريقة، عرف جهاز الشرطة العدد التقريبي للمهاجرين غير الشرعيين الذين كانوا ينتظرون في تلك المنطقة. هل كانت منظمة الصليب الأحمر قد قدّمت مائتي غطاء؟ إذاً هناك على الأقلّ مائتان وخمسون مهاجراً غير شرعي في المنطقة.

بالنسبة إلى جهاز الشرطة، كانوا مهاجرين سريين، بالنسبة إلى

منظمة الصليب الأحمر، كانوا رجالاً في ضائقة. ومن المُقلق العيش في ظلّ هذه الازدواجية وسط هذا الخوف الذي كان يعتصر البطون.

تلك الليلة، نحو الساعة الثانية، صعدوا إلى شاحنة ثقيلة بينما كانت تسير بخطّ مستقيم ضمن رتلِ المركبات التي كانت تتهيّأ لكي تسلك النفق الموجود تحت بحر المانش.

سأل آجاتاشاترو باندهاش كما لو أنّ هذه كانت النقطة الوحيدة المهمّة في الحكاية:

- تريدون أن تقولوا بأنّكم صعدتم إلى شاحنة كانت تسير في الطرق؟

ردّ فيراج بصوته الأجشّ:

- نعم. لقد فتح المهرّب الباب بوساطة قضيبٍ معدني وقفزنا إلى داخل الشاحنة. لا بدّ أنّ السائق لم ينتبه حتى لوجودنا داخل شاحنته.

- ولكنّ هذا أمرٌ خطير!

- كان بقاؤنا في البلاد هو الأمر الخطير. لم يكن هناك ما نخسره. أعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة إليك أنت أيضاً.

دافع الفقير الهندي عن نفسه، قائلاً:

- كلا، أنتم مخطئون في هذا، أنا لستُ مهاجراً سريّاً وليست لديّ النيّة أبداً في أن أسافر إلى إنجلترا. لقد قلتُ لكم ذلك، أنا فقيرٌ هندي أحظى بأقصى درجات الاحترام، وقد وجدتُ نفسي محبوساً في هذه الخزانة بينما كنتُ آخذ قياساتها في متجرٍ كبير. لقد جئتُ إلى فرنسا لكي أشتري سريراً ذا مسامير جديداً و...

قاطعه الأفريقي الذي لم يُصدّق للحظة واحدة الحكاية العجيبة للرجل الهندي، قائلاً بلهجة آمرة:

- كفّ عن أكاذيبك. نحن في المركب نفسه.

صحّح آخر كلامَ زميله بصوتٍ خفيض:

- في الشاحنة نفسها...

جرى حديثٌ مثالي بين هذين الرجلين اللذين بدا كلّ شيء مختلف بينهما، ابتداءً من باب خزانة، ولكنّ القدر كان يجمع بينهما في نهاية المطاف. ربّما كان أقلّ قسوة بالنسبة إلى مهاجرٍ سرّي أن ينكشف أمام بابٍ، مثل كرسيّ صغير للاعتراف وُجِد عرضياً ودون ترتيب وسط ارتجاجات شاحنة ثملة، بطريقة أفضل ممّا لو كان أمام نظرة رجلٍ آخر قد يحكم عليه بتقطيب حاجبيه أو رموشه. مهما يكن من أمر، فقد شرع يروي للهندي كلّ ما يُرهق قلبه منذ أن قرّر ذات يوم أن يبدأ بهذه الرحلة الطويلة المحفوفة بالارتياب. غالباً ما يبتكر المجهولون اعترافات لمجهولين آخرين.

أدرك آجاتاشاترو حينذاك أنّه إذا كان فيراج قد غادر بلاده، فذلك لم يكن لباعثٍ مبتذلٍ مثل الذهاب لشراء سرير من متجرٍ شهيرٍ للأثاث. كان السوداني قد ترك أهله لكي يجرّب حظّه في «البلدان الجميلة» مثلما كان يحلو له أن يسمّيها. لأنّ خطأه الوحيد كانت ولادته في الجانب السيئ من البحر الأبيض المتوسّط، هناك حيث زُرِع البؤس والجوع ذات يومٍ مثل مرضين توأمين، يفسدان ويدمّران كلّ شيء في طريقهما.

كان الوضع السياسي في السودان قد أغرق البلاد في ركودٍ

اقتصادي دفع عدداً كبيراً من الرجال، الأكثر قوّة وصلابةً، إلى الطرقات الوعرة للهجرة. ولكن حتى الرجال الأكثر قوّة وصلابةً تحوّلوا إلى حيوانات محطّمة ذات نظرة ميّتة، تملأُ عيونهم نجوم مطفأة. بعيدين عن منازلهم، كانوا يعودون جميعاً أطفالاً خائفين ومذعورين لم يكن بوسع أيّ شيء أن يواسيهم سوى نجاح مشروعهم.

وخلص فيراج إلى القول، وهو يدقّ على قفصه الصدري، أن يمتلك المرء القلب الذي ينبض بقوّة في الصدر. ورنّ ضجيجٌ خفيف بلغ خزانة آجاتاشاترو. أن يمتلك المرء القلب الذي ينبض بقوّة في الصدر في كلّ مرّة تخفّف فيها الشاحنة من سرعتها، في كلّ مرّة تتوقّف فيها الشاحنة. الخوف من أن تكتشفه الشرطة، متقوقعاً على نفسه خلف صندوقٍ كرتوني، جالساً ومؤخّرته على التراب وسط العشرات من صناديق الخضراوات. إنّه الإذلال. فللمهاجرين السريّين أيضاً كرامتهم. يتمّ تجريدهم من كل ممتلكاتهم، من جواز سفرهم، من هويّتهم، وهذا ربّما الشيء الوحيد الذي كان قد تبقّى لهم. الكرامة. ولهذا السبب كانوا يغادرون بمفردهم من دون نسائهم ولا أطفالهم. حتى لا يراهم أحد على الإطلاق في هذه الحالة. حتى لا يتذكّروا أنفسهم حينما كانوا كباراً وأقوياء. دائماً وأبداً.

ثمّ إنّه لم يكن الخوف من الضرب هو ما يمزّق الأحشاء، كلّا، لأنّه على هذا الطرف من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، لا يتمّ ضرب الناس، ولكن كان الخوف من أن يُعاد المرءُ إلى البلد الذي قَدِمَ منه، أو الأسوأ من ذلك أن يُرسَل إلى بلدٍ لا يعرفه، لأنّ البيض لا يأبهون كثيراً بالوجهة التي يرسلونك إليها، وإنّما المهمّ بالنسبة إليهم هو ألّا يعودوا يشاهدونك في بلدهم. إنّ رجلاً زنجياً يعني

إثارة الفوضى سريعاً وفي الحال. وكان هذا الرفض أشدّ إيلاماً من ضربات العصاة التي لا تؤذي في المحصّلة سوى الأجساد وليس الأرواح. إنّها ندبة غير مرئية لا تختفي أبداً والتي ينبغي أن يتعلّم المرء أن يعيش معها ويحيا معها.

لأنّ إرادتهم لم تكن تتزعزع.

كانت كلّ الوسائل مناسبة للوصول إلى «البلاد الجميلة». حتى وإن كان في أوروبا لم يكن يرغبون في اقتسام الحلوى معهم. كان فيراج وكوغري وباسل ومحمد ونيجام وأمسالو ستّة أشخاص من بين المئات الذين جرّبوا حظّهم قبلهم أو سوف يجرّبوه بعدهم. كانوا دائماً الرجال نفسهم، دائماً القلب نفسه الذي يخفق في تلك الصدور الجائعة ومع ذلك، في هذه البلدان التي كان كلّ شيء فيها ينمو على نحوٍ مفرط، البيوت، السيارات، الخضراوات، اللحم والماء، كان البعض يعتبرهم أشخاصاً في ضائقة وكان آخرون يعتبرونهم مجرمين. الجمعيات من جهة، والشرطة من جهة أخرى. من جهة، أولئك الذين يتقبّلونهم من دون أن يطلبوا منهم دفع الحساب، ومن جهة أخرى أولئك الذين يُعيدونهم إلى بلادهم من دون إنذار أو تبليغٍ مسبق. هناك أناسٌ من كلّ الميول في هذا العالم. وكان فيراج يردّد بأنّه من المستحيل العيش مع هذه الازدواجية وهذا الخوف الذي يعتصر الأحشاء من جراء عدم معرفتنا أبداً ما الذي سوف يصادفنا.

ولكن اللعبة كانت تستحقّ العناء.

هم، كانوا قد تركوا كلّ شيء لكي يذهبوا إلى بلدٍ كانوا يعتقدون بأنّهم سوف تُتاح لهم فرصة العمل وكسب المال فيه، حتى وإن اضطروا في سبيل ذلك إلى جمع البراز بأيديهم. كان ذلك كلّ ما يطلبونه، أن يجمعوا البراز بأيديهم، منذ اللحظة التي يتمّ فيها

قبولهم. العثور على عملٍ شريف لكي يتمكّنوا من إرسال المال إلى عائلتهم، إلى شعبهم، لكي لا تكون لأطفالهم تلك البطون الكبيرة والثقيلة مثل كرات السلّة والخاوية في آنٍ واحد، لكي يعيشوا جميعاً تحت الشمس، من دون تلك الذبابات التي تلتصق على شفاههم بعد أن تكون قد التصقت بمؤخّرات الأبقار. كلا، عذراً من أزنافور، البؤس ليس أقلّ شقاءً وصعوبةً تحت الشمس. لماذا يولَد البعض هنا ويولَد آخرون هناك؟ لماذا يمتلك البعض كلّ شيء، ولا يمتلك آخرون أيّ شيء؟ لماذا يعيش البعض، وليس لآخرين، ودائماً الفئة نفسها، سوى الحقّ في السكوت والموت؟

تابع الصوت الأجشّ:

- لقد تقدّمنا كثيراً الآن. لقد وَثِقَت بنا عائلاتنا، وساعدتنا أسرنا في دفع تكاليف هذه الرحلة وهي تنتظر منّا الآن أن نساعدها بدورنا. ليس هناك عيبٌ وخجل من السفر في خزانة، يا آجاتاشاترو. لأنّك تفهم عجز أبٍ حينما لا يستطيع أن يُعطي حتى قطعة خبز لأطفاله. هذا هو السبب الذي يجعلنا جميعاً أن نكون هنا معاً في هذه الشاحنة.

سادَ الصمت.

كانت هذه الصعقة الكهربائية الثانية التي يتلقّاها الفقير الهندي في قلبه منذ بداية هذه المغامرة. لم يقل شيئاً. لأنّه لم يكن هناك ما يُقال. خجلاً من بواعثه الدنيئة، شكر بوذا على وجوده على هذا الجانب من الباب وعدم اضطراره للنظر إلى عيني الرجل.

وفي نهاية المطاف، نجح الفقير الهندي في أن يغمغم متأثراً للغاية، وقال:

- أنا أفهم ما تقوله.

- حان دورك الآن، يا آجا. ولكن قبل ذلك، سوف نُخرجك لكي تستطيع أن تشرب بعض الماء وتتناول بعض الطعام. نظراً إلى صوتك المخنوق، لا بدّ أنّ الصندوق سميك.

غمغم لنفسه وهو يبتلع دمعةً:

- هذا ليس بسبب الصندوق...

لم يُجهش الفقير بالبكاء ولم يذرف الدموع غزيرةً، ومع ذلك نزل عبءٌ ثقيلٌ عن كاهله. كما لو أنّه لم يعُد موجوداً في داخل تلك الخزانة، وإنّما تحتها، مسحوقاً بفعل عبء الاكتشافات والندم وهذه الحياة التي يمكنها أن تبدو أحياناً قاسية جدّاً ومجحفة للغاية.

وأثناء تحريره من سجنه المعدني، تأكّد آجاتاشاترو بأنّه كان أعمى حتى هذه اللحظة وبأنّ هناك عالمٌ أكثر ظلمةً وحلكةً من العالم الذي شاهده وهو يولَد.

لم تكن الحياة بالنسبة له عبارة عن نهر غانجٍ طويل وهادئ. إذا تحدّثنا عن حياته الخاصّة، لم يكن قد حظي بما يمكننا أن نسميها، في جانبنا من الكوكب، بطفولةٍ سعيدة جداً أو طفولة نموذجية. لقد عانى أوّلاً من موت والدته وتخلّي والده عنه، ومن ثمّ الاعتداءات الجنسية وحالات الاغتصاب المتكرّرة التي يتعرّض لها رغماً عنه طفلٌ ذو ملامح جميلة وقوام جذّاب في الأوساط التي تُدار بقانون الأقوى. كان قد سُيّر في حياة رجلٍ بالغٍ، بما فيها من قبحٍ وقساوة إلى أقصى الدرجات، من دون المرور في خانة الطفولة. ولكن في النهاية، حظي بأسرة ومن ثمّ بأناسٍ أحبّوه، أبناء عمّته، جارته التي ربّته مثل ابنها.

لم يكن يعرف فيما إذا كان عليه أن يختبر المخلصين الأوفياء له. في الحقيقة، ربّما كان هؤلاء الناس يخشونه أكثر ممّا يحبّونه. وبسبب كلّ هذا لم يشعر قطّ بالرغبة في الرحيل وترك بلده. لقد عانى أحياناً من الجوع، هذا صحيح، ودفع ثمن ذلك على حساب جسده، والحالة هذه على حساب شاربيه، فقد نجح دائماً في إنقاذ يديه من البتر. ولكن في نهاية المطاف، يعيش الفقير حياة محفوفة بالآلام، أليس كذلك؟ إذاً، ممّا كان يشتكي؟

بينما كانت الألواح الخشبية للصندوق تتقصّف تحت ضربات القضيب الحديد، تخيّل آجاتاشاترو الأفارقة وهم يقفزون مثل السنّوريات خارج الظلام، ويصعدون إلى كلّ هذه الشاحنات السائرة التي شقّت طريقها حتى وصلت إلى هذا المكان. كان فيراج قد اعترف بأنّهم يدخلون إلى المقطورات أيضاً حينما يرتاح السائقون على أطراف الطريق السيّار، في الليل، وإذا أمكن أثناء هطول الأمطار لكي يغطّي ضجيج المطر على أصوات حركتهم. تخيّلهم وهم يختبئون خلف حاويات البضائع، يرتعدون برداً ويلهثون تعباً ويتضوّرون جوعاً.

ولكن لكلّ رحلة نهاية، حتى أكثرها مشقّة وقسوةً، حتى أكثرها عناءً، وتعبر إلى شاطئ الأمان، مع أنّ لندن، الواقعة وسط البراري، لا تندرج في هذا الإطار. لقد نجحوا في مهمّتهم. سوف يتمكّنون من البحث عن عملٍ وإرسال أموالٍ إلى أسرهم. وكان سعيداً بوجوده معهم على خطّ الوصول، وبكونه شاهداً على نجاح مشروعهم القيّم.

أضاف دون أنْ يوضّح بأنّ السرقة كانت تدخل في إطار هذا التعريف الجميل:

- لقد أدركتَ كلّ شيء يا فيراج، حينما لا يمنحك أحدٌ ما تستحقّه، يجب عليك أن تأخذه بنفسك.

كان الفقير الهندي قد أدرك بأنّه أمام المغامرين الحقيقيين للقرن الحادي والعشرين. لم يكونوا الملاحين البيض، في سفنهم ذات المائة ألف يورو، في سباقاتهم بالقوارب الشراعية، في جولاتهم حول العالم بشكلٍ منفرد التي يسخر منها الجميع عدا عن رعاتهم الدعائيين. هم لم يعُد لديهم أيّ شيء ليكتشفوه.

ابتسم آجاتاشاترو وسط الظلام. أراد هو الآخر، ولو لمرّة واحدة في حياته، أن يفعل شيئاً في سبيل شخصٍ آخر وليس فقط لأجل نفسه.

كان محمد، الأصغر سنّاً من بين السودانيين، قد عثر في أرضية الشاحنة على القضيب المعدني الذي استخدمه المهرّب لفتح أبواب الشاحنة الثقيلة. وسط الاستعجال، لا بدّ أن القضيب كان قد سقط من الرجل ونسيه هناك قبل أن ينزل من الشاحنة. فاستخدمه نيجام وباسل، الأكثر قوّة وصلابة، في خلع مفاصل الصندوق الخشبي الضخم الذي كان الفقير الهندي، المهاجر السرّي رغماً عنه، محبوساً فيه. بعد ربع ساعة، تمكّنا من ذلك وكشفا على ضوء مصابيحهما الكهربائية عن صندوقٍ كرتوني ضخم كان يحتوي على خزانة معدنية زرقاء اللون شبيهة بتلك الموجودة في مستودعات المطارات أو خزائن الألبسة في أندية كرة القدم.

أبعد فيراج بيديه سريعاً طبقات الورق الأصفر الذي كان يغلّف الخزانة وقال:

- كنتُ أتساءَل في نفسي كيف لا تزال تستطيع أن تتنفّس.

ثمّ انفتح الباب أخيراً وظهر آجاتاشاترو، مشرقاً وسط فوحان بوله.

صرخ الفقير الهندي حينما رأى للمرّة الأولى رفاقه في الرحلة مندهشاً:

- أنتم كما تخيّلتكم تماماً!

أجاب بصدقٍ القائد الذي كان ربّما توقّع أن يرى الراجستاني وهو يرتدي سارياً هندياً ويضع خنجراً ضخماً في حزامه ويُمسك برسن فيلٍ ذي أذنين صغيرتين:

- أمّا أنت، فلستَ كما تصوّرتك.

تأمّل لبرهة في الفقير الذي وقف أمامه، رجلاً طويل القامة، جاف العود وأعجر مثل شجرة. كان يضع عمامة بيضاء متّسخة بعض الشيء على رأسه، ويرتدي قميصاً أبيض اللون مجعّداً وسروالاً لبزّة رمادية اللون من الحرير اللامع. وكان يرتدي في قدميه جورباً رياضياً أبيض اللون. وكأنّه وزيرٌ وُضِع مع لباسه في غسّالة. هو بذاته، لم يكن هناك أيّ شيء قد يتخيّله عن مهاجر سريّ راجستاني، فيما لو أُتيح له ذات يوم أن يتخيّل ماذا عساه أن يشبه مهاجرٌ سريٌّ راجستانيّ.

مع ذلك أخذه بالأحضان وضمّه بقوّة قبل أن يقدّم له قارورة مياه كبيرة من ماركة إيفيان نصف فارغة وقطعاً من الشوكولا كان قد اشترى علبةً منها من سوبرماركت ليدل دي كاليه.

أمسك آجاتاشاترو، المرعوب من فكرة أن يموت من جرّاء الجفاف، بقارورة المياه وأفرغها في جوفه دفعة واحدة تحت الأنظار الشاردة للأفارقة.

قال كوغري وهو يهزّ رأسه:

- لا بدّ أنّك محبوسٌ منذ زمنٍ طويل داخل هذه الخزانة.

- لا أدري. في أيّ يومٍ من الأسبوع نحن؟

ردّ الرئيس، الذي كانَ وحده يعرف في أيّ يومٍ من الأسبوع كانوا:

- نحن في يوم الثلاثاء.

- وكم الساعة الآن؟

ردّ باسل، الذي كان الوحيد الذي يمتلك ساعة:

- إنّها الثانية والنصف صباحاً.

أضاف آجاتاشاترو وهو يعيد القارورة الفارغة إلى فيراج:

- على هذا، أكون ربّما محبوساً لمدةٍ لا تُذكَر.

وانتزع من يده قطعة من الشوكولا. لا نعرف أبداً...

قال القائد:

- حسناً. الآن وقد أصبحتَ هنا، وأكلت وشربتَ معنا، وبما أنّه لا تزال أمامنا ساعتان كاملتان، في حال كان من المحتمل أن تتوجّه هذه الشاحنة نحو لندن، سوف تروي لنا حكايتك، يا آجا. منذ البداية. لديّ رغبة جامحة في أن أعرف ما الذي دفعك إلى القيام بهذه الرحلة، حتى وإن كانت أسبابك لا تختلف كثيراً عن أسبابنا.

أصبح صوته رقيقاً وحنوناً، كما لو أنّ الوثوق به قد خلق بينهما رابطاً غير مرئيّ، بداية صداقة لن يكون بوسع أيّ شيء أن يُفصم عراها. قال الفقير الهندي في نفسه وهو يعضّ شفته العليا، وإن لم تكن هذه هي الحقيقة. ماذا سيكون بوسعه أن يروي لصديقه الجديد؟ إذا كان شعبه قد ساهم فعلاً في جمع المال في سبيل دفع نفقات رحلته، فذلك لأنّه كان يخدع شعبه ويسرقه منذ سنوات عديدة.

كيف سيكون بوسعه أن يعترف بأنّ آخر خدعةٍ له كانت عبارة عن التظاهر بالإصابة بداء الروماتيزم وبفتقٍ في غضاريف العمود الفقري لكي يدفعوا له نفقات رحلته هذه وقيمة هذا السرير ذي

المسامير الذي سيأخذه إلى بلدته لقاء ثمنٍ معقول؟ كيف سيعترف بهذا لرجلٍ تألّم في كلّ لحظةٍ من رحلته الشاقّة وغير المضمونة؟

بدأ آجاتاشاترو يتمتم بالصلوات والدعاء. يا بوذا، أعنِّي!

توسّل إلى بوذا في ذهنه في حين كان الرجل الزنجي الضخم ينتظر. في تلك اللحظة تقريباً، توقّفت الشاحنة فجأةً وبعنف وانفتحت أبوابها.

كان أوّل شيء رآه آجاتاشاترو في إنجلترا هو معطف صوفي أبيض اللون وسط عتمة الليل. كان للمشهد في حدّ ذاته شيءٌ غير واقعي، خاصّة في فصل الصيف. لم يكذبوا عليه، فعلاً كان الجوّ بارداً في هذه البلاد. ففي النهاية، لم يكن القطب الجليدي يبعد من هنا سوى لمسافة بضعة خطوط عرضٍ.

مع ذلك وعند اقترابه من الأبواب المفتوحة، أدرك الفقير الهندي بأنّ درجة الحرارة كانت مناسبة جدّاً بالنسبة إلى ليلة صيفية في المنطقة القطبية الشمالية وأنّ ما اعتبره في البداية ندائف ثلجٍ لم تكن في الحقيقة سوى لآلئ البوليستر التي تناثرت من غلاف خزانته وتبعثرت بالتيار الهوائي. وضع الرجل يده أمام عينيه مثل واقية شمس. كانت نجومٌ مبهرة للعينين مسلّطة عليه، لم تتأخّر في التحوّل إلى مصابيح سيارات. حينما استدار، أدرك بأنّه الآن وحيد في المكان وأنّ السودانيين، كما لو أنّهم أكثر حساسيّة منه حيال النور، قد هرعوا للاختباء خلف الصناديق الخشبية، مختفين تماماً وقد تركوه مكشوفاً للأنظار.

صرخ فيهم صوتٌ آمر في لغة إنجليزية أفضل من لغته ولغة الأفريقيين:

- اخرجوا بهدوء من المركبة وضعوا أيديكم فوق رؤوسكم!

امتثل الفقير الهندي، الذي لم يكن لديه ما يؤخَذ عليه، للأمر دون أن يتفوّه بكلمة وقفز من المقطورة. هنا، أصبح وجهاً لوجه أمام شخصٍ يرتدي عمامة بيضاء كبيرة، تشبه عمامته هو. في تلك اللحظة، اعتقد بأنّهم قد وضعوا أمامه مرآة، ولكن لم يحتج إلى الكثير من الوقت والتفكير حتى يُدرك بأنّ الشخص الذي أمامه لم تكن صورته في المرآة. كان الرجل حليق الذقن بعناية فائقة، على عكس آجاتاشاترو الذي كان لديه شارب ليفي وذقن لم يحلقها منذ ثلاثة أيام. ثمّ لأنّه كان يرتدي سترة سميكة مضادة للرصاص سوداء اللون مكتوب عليها UKBA بأحرف ضخمة بيضاء اللون. كان الفقير الهندي يجهل ما تعنيه عبارة UKBA ولكن المسدّس الذي يتدلّى من حزام الرجل كان في حدّ ذاته عنصراً كافياً للإجابة. ففكّر في الوقت المناسب بإطلاق العذر الذي كان قد أعدّه لهذا الغرض عشية اندساسه في الخزانة. نبش في جيبه، وأخرج منه قلم الرصاص الخاصّ بشركة ايكيا والمتر الورقي لتوضيح غاياته، وكلّ ذلك باللغة البنجابية.

أجاب، باللغة نفسها، الشرطي الذي على ما يبدو كان قد اعتاد على أن يجد يومياً مهاجرين سرّيين متخفّين في خزائن شركة ايكيا ومزوّدين بمترٍ ورقيّ للقياس وبقلم رصاص:

- أعرف، أعرف.

ثمّ دفعه على قارعة الطريق وجسّ كلّ عضو من جسمه عبر الثياب، بدقّة ولكن أيضاً على نحوٍ صارم، قبل أن يضع القيود في يديه في حين كان أربعة من زملائه، الخارجين من الظلام، يصعدون إلى المقطورة بحركات رياضية.

نزل الرجال من الشاحنة مصحوبين بالسودانيين الستّة، وأيديهم موثوقة بأربطة سيرفليكس، تلك الأربطة البلاستيكية التي يربط بها البستانيون الأشجار إلى الأوتاد لكي تنمو بشكلٍ مستقيم.

سأل الشرطي، مذهولاً، باللغة البنجابية:

- ماذا تفعل مع الأفريقيين؟

لم يعرف الفقير الهندي بماذا يجيب. كان الخوف يعتصر أحشائه، واكتفى بالنظر إلى رفاقه وهم يصعدون إلى عربة مطبوع عليها شعار UKBA، وكالة حدود المملكة المتحدة[1]، قبل أن يُدفَع هو أيضاً إلى داخل العربة. وقد عاش بدوره ما كان صديقه قد دعاه تناذر القلب الذي يدقّ بقوّة حينما تُبطئ الشاحنة من سرعتها ومن ثمّ تتوقّف. وقد رحّبت بهم «البلدان الجميلة» على طريقتها الخاصّة. كان فيراج محقّاً، لا يدري المرء أبداً ما سيصادفه في رحلته، ولكن هذه المرّة، بدا أنّ منظمة الصليب الأحمر لم تكن جزءاً من المشهد.

---

(1) UKBA (United Kingdom Border Agency): وكالة مراقبة حدود المملكة المتّحدة.

في الزنزانة المزدحمة بالموقوفين، علِمَ آجاتاشاترو من رجلٍ ألباني يرتدي قميصاً رياضياً وينتعل خفّين بأنّه كان في فولكستون، في إنجلترا، على بعد بضع دقائق مشياً على الأقدام، من مخرج (أو مدخل، هذا يتوقّف على الاتجاه الذي نسلكه) نفق يوروتونيل، وبأنّه كلّا، لم يكن يوجد هناك متجر ايكيا قريباً من المكان، وبأنّه نعم، كان في ورطةٍ.

نظر الفقير الهندي من حوله. كان الجميع موجودين في المكان، أولئك الرجال غير المرغوب فيهم في كلّ مكان. كانت للرحلة بالنسبة إلى فيراج وأصدقائه نهاية سعيدة وحسنة ولكنها لم تكن نهاية حاسمة بعد. وكما كان موعوداً، كان الفقير معهم على خطّ الوصول، ولكنّه لم يكن شاهداً على نجاح المشروع القيّم كما كان يعتقد حينما، وهو محجوزٌ في الخزانة، حرّره أصدقاءه الجدد المؤقّتون، بالتضامن، من سجنه المعدني والورق الأصفر، ومن ثمّ قدّموا له ما يأكله وما يشربه. لا بدّ أنّ أحداً ما قد خلط أوراق بوذا. لا يمكن أن يكون هذا هو مصير هؤلاء الرجال الشجعان! لا بدّ أن السماء قد أخطأت، فلم ترسل إليهم لجنة الاستقبال المناسبة.

التقت نظرة آجاتاشاترو بالنظرة الحزينة لفيراج الذي، جالساً على مقعدٍ إسمنتي بين موقوفين من شمال أفريقيا، بدا كما لو أنّه تقلّص وانكمش على نفسه. بدت عيناه كما لو أنّها تقول: «لا تهتمّ بأمرنا، يا آجا».

بينما كان الفقير الهندي يندسّ بين المعتقلين، المنتمين إلى تشكيلة ساحرة من الألوان واللهجات والروائح والمُرتَدين لقمصانٍ رياضية وصنادل خفيفة، وبينما كان يقترب من رفيقه في الرحلة وهو يحاول أن يتحدّث إليه ببضع كلمات معزّية، جاء الشرطي من ذوي الأصول الهندية الذي أوقفه قبل ساعة وسمّى نفسه الضابط سيمبسون وفتح الباب، المصنوع من مادة بليكسيغلاس، الذي كان يُحتَجَز الموقوفين خلفه مثل أسماكٍ في حوضٍ خالٍ من الماء، واقتاده إلى مكتبه.

قال له الألباني الذي سبق له وحاول لعشر مرّات أن يدخل إلى بريطانيا العظمى:

- سوف تُعاني الأمرّين وتقضي وقتاً عصيباً للغاية!

ولكنّ لكونه واثقاً من أنّ نيّته الحسنة وتفهّم الشرطي، الذي هو من لحمه ودمه نفسه في نهاية المطاف، سوف يبدّدان مرّة واحدة وإلى الأبد سوء التفاهم المرعب هذا، سار آجاتاشاترو بخطواتٍ مرحة في إثر ابن بلده.

قال سيمبسون، وهذه المرّة باللغة الإنجليزية، كما لو أنّه كان يقرأ في أفكار الفقير:

- ليكُن هذا واضحاً، أنا لستُ مواطنك.

ثمّ دعاه إلى الجلوس.

أضاف الشرطي منعاً لأيّ شكّ محتمل:

- أنا مواطنٌ بريطاني وموظّفٌ حكومي ومؤتمن على السلطة العامّة. أنا لستُ صديقك، ولا كذلك شقيقك أو ابن عمّك.

قال آجاتاشاترو في نفسه أنّ هذا الشرطي ملكيٌّ أكثر من الملك، متأكّداً من أن نيّته الحسنة وتفهّم الشرطي لن يكونا كافيين لتبديد سوء التفاهم المرعب هذا.

إذا كنتَ هنا اليوم، فذلك بالتأكيد لأنّ والديك اضطرا ذات يوم لأن يسافرا في مقطورة شاحنة ثقيلة بين صناديق الفراولة الإسبانية والكرنب البلجيكي. قال الفقير الهندي هذا الكلام في نفسه حريصاً على ألّا يتقاسم شعوره مع الشرطي المعني. لا بدّ أن والديك قد عاشا ذاك الخوف الذي يعتصر الأحشاء في كلّ مرّة أبطأت فيها الشاحنة من سرعتها أو توقّفت عن الحركة.

بعيداً عن هذه الأفكار، كتب الشرطي بعض الكلمات من خلال لوحة مفاتيح حاسوبه ومن ثمّ رفع رأسه.

- إذاً سوف تروي كلّ شيء منذ البداية وسوف تشرح لي كلّ التفاصيل.

سأله عن اسمه، وعن اسم والديه، كما سأله عن تاريخ ومكان الولادة ومهنته. اندهش أشدّ الاندهاش للإجابة الأخيرة التي تلقّاها.

قال مع تكشيرة خفيفة كعلامة على التشكيك والازدراء:

- عجباً، فقير، وهل ما زالت هذه الظاهرة موجودة؟

ثمّ أشار إليه بإصبعه ليدلّه على الجُريب الصغير الشفّاف المختوم والذي كان موجوداً على طاولة المكتب.

تعرّف الفقير الهندي في الحال على أشيائه الشخصية.

- إنّها متعلقاتك الشخصية التي عثرنا عليها أثناء التفتيش. تأكّد منها ووقّع على ذلك.

وهو يقول هذا، مدّ الشرطي أمام أنظار الموقوف ورقةً كان مدوّناً فيها كل غرض عُثِرَ عليه معه أثناء التفتيش:

- بطاقة زيارة واحدة تعود لشركة جيتان لسيارات الأجرة في المنطقة الباريسية.
- غلافٌ واحد لمضغةٍ وقد كُتِبَ عليه اسم ماري ودوّن بجانبه رقم هاتفٍ محمولٍ فرنسي.
- جواز سفرٍ هنديّ واحد سليم وأصيل مع سمة دخول شنغن سليمة وأصيلة ممنوحة من قبل السفارة الفرنسية في نيودلهي الهندية. كان تاريخ ختم الدخول يعود إلى 4 أغسطس في مطار رواسي - شارل ديغول في فرنسا.
- صفحة واحدة من كتالوغ متجر ايكيا، معلنٌ فيها موديل السرير ذي المسامير من ماركة كيسيفروتسبيك.
- حزامٌ واحد من جلدٍ مقلّد.
- نظارة شمسية واحدة منقوش عليها اسم ماركة بوليس ومؤلّفة من ست قطع.
- ورقة نقدية مزوّرة من فئة 100 يورو ذات نوعية رديئة مطبوعة على جانبٍ واحدٍ ومربوطة بخيطٍ غير مرئي بطول عشرين سنتيمتراً.
- 4 يورو وأحد عشر سنتيماً من قطع نقدية فراطة.
- قلم رصاصٍ خشبيٌّ واحد ومسطرة قياسٍ ورقية واحدة بطولِ مترٍ واحد من ماركة ايكيا.
- قطعة واحدة من نصف دولار بوجهين مماثلين.

سأل الفقير الهندي حائراً:

- لماذا نزعتم عنّي حزامي؟

ردّ الضابط سيمبسون بجفاء:

- حتى لا تشنق نفسك بوساطته. نحن ننزع عادة أربطة الأحذية أيضاً ولكنك لا تمتلك منها. هل يمكنني أن أعرف لماذا لا تنتعل أحذية؟

نظر الفقير الهندي إلى قدميه، لم تعُد جواربه الرياضية بيضاء ناصعة.

- لأنّها بقيت في متجر ايكيا، تلك الليلة، في اللحظة التي اضطررتُ فيها إلى الاختباء داخل الخزانة حتى لا يراني موظّفو المتجر...

ولأنّه كان قد اعتاد منذ تسعة أعوام على إخراج المهاجرين السريّين من المخابئ الأكثر خفاءً وعلى الاستماع إلى حماقاتهم طوال الليل والنهار، وحاله كحال زعيم السودانيين المهاجرين غير الشرعيين قبل ذلك بقليل، لم يُصدّق الضابط سيمبسون ولا كلمةً واحدة من حكاية آجاتاشاترو «لافاش/ بقرة» باتيل هذا، والذي شكّ أن يكون هذا هو اسمه الحقيقي.

- حسناً، طالما أنّك لست راغباً في الاعتراف وقول الحقيقة، سوف أختصر لك الأمر. لقد عثرنا مع زملائك الأعزاء، الجاكسون 5(*)، على العديد من العناصر والأدلّة التي تتيح لنا

(*) الجاكسون 5 (The Jackson 5): هي فرقة غنائية أميركية مكوَّنة من 5 إخوان من عائلة جاكسون، واشتهرت في السبعينيات وبداية الثمانينيات. - المترجم -

التأكّد من أنّكم قد زرتم برشلونة، في إسبانيا. نظراً إلى الطقس الجميل هناك، يتساءل المرء حقّاً لماذا جئتم تعرّضون أنفسكم للضجر والمتاعب هنا في إنجلترا! أنت تعرف أن الأمطار تهطل هنا باستمرار، أليس كذلك؟ الرياح الموسمية لا تشكّل شيئاً يُذكَر بالنسبة إليها.

- اسمع، أنا أرى جيّداً بأنّك تحاول أن تثبّط عزيمتي، وأنا أشكرك جزيل الشكر على تزويدي بكلّ هذه المعلومات المفيدة حول الطقس في بلدكم الساحر والذي سيكون محلّ سروري وسعادتي أن آتي إليه في ظروفٍ أكثر سياحية وأقلّ تعاسةً، ولكنني أؤكّد لك بأنني لم أشأ قط أن أزور إنجلترا وأنني لا أعرف هؤلاء السودانيين من قبل.

صرخ الشرطي فخوراً بإمساكه بالجاني في حالة تلبّس بجريمة الكذب:

- سودانيون؟ عجباً إذاً! أنت تعرف عنهم أكثر ممّا أعرف أنا. لم ينبس أصدقاءك الأعزاء ببنت شفة في التحقيق ولم يُفصحوا عن أيّ شيء، بل إنّهم رفضوا الإفصاح لي عن جنسيتهم. في كلّ الأحوال، لقد اعتدنا على هذه الحالات. أغلبية المهاجرين السريين يقومون بإتلاف أو إخفاء جوازات سفرهم حتى لا نتمكّن من تحديد جنسيتهم ونعيدهم إلى بلدانهم الأصلية.

- أنا أخبرتك من أين قدمتُ. وهذا يُبرهن على أنني لستُ مهاجراً سرياً.

- سمة الدخول خاصّتك ليست صالحة سوى في الدول المنضوية في إطار اتفاقية شنغن، وأنا أذكّرك بأنّ إنجلترا ليست

منضمّة إلى اتفاقية شنغن. وفي النهاية، أنت مهاجر سريّ إذاً. سمّي ذلك كما تشاء.

ثارت ثائرة الفقير الهندي وشرح من جديد أسباب قدومه إلى فرنسا، وفكرته (التي لما كانت أكثر ألقاً من هذا، لو أنّه كان يعلم) في النوم في متجر ايكيا لكي يستطيع أن يوجد في المكان في اليوم التالي ويتمكّن من شراء سريره ذي المسامير، من موديل كيسيفروتسبيك الخاصّ بالفقير المصنوع من الصنوبر الصغير السويدي الحقيقي، مع ارتفاع المسامير (غير القابلة للصدأ) غير القابل للتعديل، ذي اللون الأحمر كلون الأسد الأميركي. وقد أوضح بأنّه قد سجّل طلبيته البارحة، وبأنّه سوف يكون هناك بالتأكيد أثرٌ ما يؤكّد ذلك في مكانٍ ما وبأنّهم سوف يحسنون صنعاً إذا ما تثبّتوا من ذلك من متجر ايكيا في باريس.

وهو يقول ذلك، أشار إلى الكيس الشفّاف الذي كان يحتوي على متعلقاته الشخصية ولكنه سرعان ما تبيّن له أنّ إيصال الطلبية الذي كان الرجل الأصلع قصير القامة ذو النظارة قد أعطاه له كان موجوداً في جيب سترته التي بقيت في المتجر.

تنهّد الضابط سيمبسون.

- حسناً اسمع، لقد استمعتُ إليك بما فيه الكفاية. سوف أرافقك إلى الزنزانة وسوف يأتي فريق الإبعاد في وقتٍ باكرٍ من صباح الغد لكي يأخذك إلى المطار.

سأل آجاتاشاترو والخوف يملأ عينيه:

- إلى المطار؟ ولكن إلى أين سوف ترسلوني؟

قال ضابط الشرطة كما لو كان ذلك بديهياً وواضحاً:

- حسناً، سوف نرسلك إلى حيث أتيت. أنت ورفاقك الأعزّاء، سوف نُعيدكم إلى برشلونة.

كان قد عُثِر في جيوب السودانيين على بطاقات صندوق المحاسبة في متجر كورت إنغليس في برشلونة، وهو متجرٌ إسبانيٌّ ضخم على غرار غاليري لا فاييت حيث كان المهاجرون قد اشتروا ست علب بيرة وعلبة من الفول السوداني وعلبتين من كعك الدونيت بالشوكولا.

لم يكن رجال الشرطة البريطانيون في جهاز UKBA يحتاجون إلى أكثر من ذلك لكي يقوموا بترحيل الأشرار، بموجب الاتفاقيات الدولية المقرّرة، إلى آخر بلدٍ أقام فيه المهاجرون السريّون، والذي هو في هذه الحالة إسبانيا.

وبهذه الطريقة، كان البعض قد أُعيدوا إلى البلد الذي قدموا منه وذلك تطبيقاً لاتفاقية شيكاغو، بينما أُعيد آخرون، وهي حالات أكثر ندرةً، إلى البلد الأمّ. أي العودة إلى نقطة البداية.

في هذه الحالة المحدّدة، كان رجال الشرطة يعرفون حقّ المعرفة أنّ هذه الشاحنة التي أوقفوها كانت قادمة من فرنسا، لكونهم قد ضبطوها في مخرج نفق يوروتونيل. ولهذا، كان بوسعهم أن يُعيدوا المهاجرين، وهم يلتهمون فولهم السوداني وكعكهم المغطّس بالشوكولا، إلى بلد آكلي الضفادع الذي كانت حدوده منافذ حقيقية

لتهريب المهاجرين غير الشرعيين. كانت عملية الإعادة هذه سوف تستغرق ساعة واحدة على الأكثر وما كانت ستكلّف شيئاً أو القليل جدّاً.

ومع ذلك كان الترحيل نحو إسبانيا، حتى وإن كلّف ذلك الدولة ثمناً أغلى، يُعدُّ مكسباً كبيراً بالنسبة إلى السلطات البريطانية التي كانت تحاول، منذ بعض الوقت، أن تُرسل المهاجرين السريين، في كلّ مرّة أمكَنَها القيام بذلك، إلى أبعد مسافة ممكنة من حدودها. لأنها تعلم بأنّ هؤلاء المهاجرين سوف يحاولون في الحال من جديد أن يعبُروا الحدود نحو المملكة المتحدة ما أن يتمّ تحريرهم. لو كان بوسع السلطات البريطانية أن تبني منجنيقاً قاذفاً عملاقاً يرمي لمدى آلاف الكيلومترات، لوضعتهم كلّهم في داخله دون تردّد للحظة واحدة وقذفت بهم لأبعد مدى ممكن.

قال ضابط الشرطة قبل أن يُغلق محضر جلسة الاستجواب:

- إنّ طائرة مؤجّرة لهذه المهمّة من قبل شرطة الطيران التابعة للتاج الملكي سوف ترحّلكم نحو برشلونة.

وبهذه الطريقة وجد الفقير الهندي نفسه بعد بضع ساعات، بينما كانت الشمس قد أشرقت في الأفق، على مدرج مطار شورهام - باي - سي، على الشاطئ الجنوبي لإنجلترا، بالقرب من مدينة برايتون.

بالنظر جيّداً، كان يمكن للمرء أن يشاهد، في الطرف الآخر من بحر المانش، الصورة الحائلة والمزرقّة لبلاد الغال.

المياه المزرقّة.

السماء المزرقّة.

النوارس المزرقّة.

رأس المهاجرين السريين المزرقّة.

أخيراً، هذا ما رآه آجاتاشاترو عبر الزجاج المدخّن والمزرقّ لنظارته الشمسية التي أعاد تركيب قطعها. كانت النظارة قد أُعيدَت إليه مع بقية أغراضه الشخصية، لكونه، من جهة، لم يعُد يشكّل خطراً لا على نفسه ولا على الآخرين، ومن جهة أخرى، لأنّه سيكون حرّاً عمّا قريب، بل وأعيدت إليه حتى ورقته النقدية المزوّرة من فئة 100 يورو، معتبرين بأنّ هذا التزوير السيّئ التنفيذ، علاوة على أنّه على جانبٍ واحد، لن يخدع أحداً.

الآن، كان الفقير جالساً، من دون قيودٍ في يديه، بين شخصٍ مغربيّ مصابٍ بالربو وآخرٍ باكستاني منتفخ البطن.

مدفوعاً بالفضول لأن يعرف في أيّ وكرٍ جديد للزنابير سيُدخَل عمّا قريب، ولكي يزجي الوقت، طرح الفقير الهندي كمّاً هائلاً من الأسئلة حول برشلونة على جارَيه العزيزين. ماذا يوجد فيها يستحقّ أن نراه؟ ما الذي يمكننا أن نفعله هناك؟ هل يمكننا أن نسبح في هذا الفصل؟ هل توجد رياح موسمية هناك؟ ماذا يعني دونوت؟ آه، هل يوجد فيها متجر ايكيا؟

ولكن كلّ أسئلته ظلّت من دون إجابة. ليس لأنّ الرجلين اللذين لم يمتلكا أوراقاً ثبوتية لم يرغبا في الحديث معه، بل على العكس من ذلك تماماً، وإنّما لأنّ أيّاً منهما لم يكن قد وطئت قدماه أبداً أطراف مدينة برشلونة فما بالكم بإسبانيا كلّها.

كان الرجل الباكستاني قد وصل إلى أوروبا عبر مطار بروكسل مزوّداً بجواز سفرٍ بلجيكيّ مزوّر، قبل أن يصل إلى إنجلترا متخفّياً في شاحنة، بين لوحَي تحميل الكرنب. ولكنّ رجال الشرطة عثروا على مروحةٍ معه (لم تكن تحمل رائحة الكرنب) ولم يكن رجال وكالة

حدود المملكة المتحدة UKBA يحتاجون إلى أكثر من ذلك لكي يقرّروا بأنّ المهاجر السريّ قد قدِم من إسبانيا. لأنّ هذه المروحة كانت ذات شهرة عالمية ومعروفٌ أنّ الإسبان وحدهم لا يزالون يستخدمون، حتى يومنا هذا، هذه المهواة الصغيرة المهجورة التي تعمل بطريقة بدائية.

أمّا الرجل المغربي، فقد كان قد دخل إلى منطقة شنغن عبر اليونان بعد أن قام بجولة طويلة حول حوض البحر الأبيض المتوسط، ثمّ عبر دول البلقان والنمسا ووصل أخيراً إلى فرنسا مختبئاً في الأرضية المستعارة لحافلة لنقل السيّاح اليونانيين. لسوء حظّ الرجل، عثر رجال الشرطة البريطانيون في جيبه على ملعقة خشبية صغيرة كان مقبضها قد انكسر خلال رحلته البحرية. وكان شرطيّ بريطاني عائدٌ حديثاً من إجازته التي قضاها في إشبيلية قد تعرّف هناك على قطعة من ملعقة خشبية وتحدّد بذلك في الحال مصير الرجل المغربي. على الفور! إلى إسبانيا!

سأله الرجل الباكستاني:

- وأنت، على ماذا عثروا معك؟

ردّ آجاتاشاترو وهو يهزّ كتفيه:

- لا شيء، فقط عثروا عليّ في شاحنة لنقل البضائع مع أشخاصٍ سودانيين كانوا قد قدموا من برشلونة.

استدار وأشار إلى الرجال الستّة الزنوج الذين كانوا في الصفّ الرابع من المقاعد.

أضاف الرجل المغربي:

- إذا كنتُ قد أحسنتُ الفهم، لم يأتِ أيّ من ثلاثتنا من برشلونة.

وأردف الرجل الباكستاني:

- أعتقد أننا، على متن هذه الطائرة، لسنا الوحيدين على هذه الحالة.

- إذا كان يكفي أن يتمّ توقيف المرء مع قيثارة أو أن يكون الموقوف ذي شارب حتى يشتبه فينا الإنجليز بأنّنا قادمون من إسبانيا، هذا صحيحٌ إذاً، أعتقد بأننا لسنا الوحيدين على هذه الحالة...

أشار سرّاً إلى رجلٍ جالس في صفّهم كان يتباهى بشارب سميكٍ أسمر اللون ويعتمر قبّعة من النسيج سوداء اللون.

صرخ صوتٌ قويّ بلكنة روسية من خلفهم:

- أصدقائي، اعتبروا هذه رحلة سياحية مجّانية على نفقة الملكة! بالنسبة إليّ، حشروني في هذه الطائرة لأنني ألثغ حرف «الراء»!

أشارت الساعة إلى الثامنة صباحاً على ساعة منبّهٍ صدئة موضوعة في مكانٍ ما وسط قاذورات مزبلة البلدية التي كانت عائلة بالورد تُقيم على أطرافها.

- في هذه الساعة، لا بدّ أنّه موجودٌ في إنجلترا...

هذا ما قاله في نفسه غوستاف جالساً إلى طاولته المتحركة في مقطورته، بعيداً كلّ البُعد عن أن يتخيّل بأنّ الشخص المقصود في أفكاره هذه موجودٌ في هذه اللحظة على ارتفاع عشرين ألف قدمٍ فوق رأسه، في طائرةٍ تحلّق بأقصى سرعةٍ نحو الجنوب، بين رجلٍ مغربيٍّ مصابٍ بداء الربو وآخر باكستاني منتفخ البطن.

وهو يقول هذا في نفسه، داعب النصل المسنون لسكينه.

كان عزاءه الوحيد هو أنّ «القروي» قد سافر على متن مقطورة شاحنة ثقيلة، محبوساً في صندوق خشبي، من دون ماء ولا طعام. مع قليلٍ من الحظّ، سوف يقضي عليه القدر، ولا سيما بفعل العطش، مثل جرذٍ عالقٍ في فخّ. المؤسف بالنسبة إليه هو أنّه كان يرغب أشدّ الرغبة في أن يقوم بتصفية حسابه معه شخصياً وبيديه، بجعله يتألّم ببطء، ببطءٍ شديد.

تحرّك شيءٌ ما في المقطورة.

ظهرت زوجته مرسيدس - شايانا على عتبة الباب في مئزرٍ مزهّر. ثمّ جاء دور ابنته، ميراندا جيسيكا، لكي تطلّ برأسها، بشعرها الأشقر الكثّ والمنكوش ووجهها المغطّى بمساحيق التجميل على نحوٍ مفرط.

قال غوستاف لابنته وهو يهدّدها بإشارة عنيفة من إصبعه:

- لقد خرجت البارحة مساءً أيضاً! لقد أخبرتكِ أن تبقي في البيت (المقطورة) لكي ترتاحي. انظري إلى رأسكِ كيف أصبح الآن.

- هذه ليست مشكلة كبيرة، طالما أنّ كيفن - خيسوس لا يراني في هذه الحال. ثمّ أنني سأنام في الطائرة.

قال الأب بلهجة ساخرة:

- آه، كيفن - خيسوس الوسيم، كنتُ أعتقد بأنّكِ قد أنهيتِ علاقتكِ به.

كانت ابنته تتثاءب مع كلّ إجابة.

تدخّلت زوجته:

- أنتَ تهذي يا غوس، دعها في هدوء قليلاً.

كانت زوجته قد جلست لتوّها إلى الطاولة المتحركة الصغيرة وسكبت لنفسها فنجاناً من القهوة التي كان زوجها قد أعدّها حين استيقاظه من النوم.

وضعت الترموس ودهنت قطعة خبزٍ بالزبدة لابنتها ميراندا - جيسيكا التي جلست بجانبها.

قال سائق سيارة الأجرة وهو ينهض ويذهب لكي يُدير محرّك السيارة:

- حسناً، هذا ليس كلّ شيء، تحرّكا واستعجلا قليلاً إذا كنتما لا تريدان أن نتخلّف عن موعد الطائرة!

مثل طقسٍ دائمٍ لا يتغيّر، كان غوستاف بالورد وزوجته وابنتهما يغادرون، كلّ سنة مرّتين، المنزل العائلي (المقطورة) لكي يسافروا في عطلة. في المرّة الأولى، كانت العطلة بمناسبة أعياد الغجر في سانت - ماري - دي - لا - مير. كلّ يوم 24 مايو ومنذ القرون الوسطى، كان الغجر يجتمعون في منطقة كامارغ الفرنسية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط للاحتفال بعيد قدّيستهم سارا، التي كانوا يصحبون معهم تمثالها الشمعي الذي يذرف دموعاً ذهبية بدءاً من الكنيسة وصولاً إلى شاطئ البحر. أكثر من كونها زيارة دينية، كان التجمّع يتيح لهم أن يقابلوا أصدقاءهم من الجالية المهاجرة المبعثرة في أركان الكوكب الأربعة. كان البعض منهم يقطعون أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر لكي يشاركوا في هذا الحدث. أمّا عائلة بالورد، فكانت تسافر على مدى سبع ساعات بسيارتها التي تُجهّز لهذه المناسبة. ومنذ بضع سنوات، كانوا يذهبون إلى المكان من دون المقطورة (المنزل)، حيث كانوا ينامون هناك في منزل أقربائهم الذين كانوا قد فقدوا أثرهم منذ طفولتهم ومن ثمّ عثروا عليهم في سنٍّ متأخرة.

بالنسبة إلى الزوجين، كان هذا نشاطٌ لا يمكن التخلّف عنه. كانا ينتظران موعده طيلة السنة. أمّا بالنسبة إلى الفتاة، فعلى العكس من ذلك، فكانت هذه المناسبة عبارة عن غصّة وحسرة، أوّلاً لأنّها كانت تضطرّ لأن تترك عشيقها الجديد وتخشى من أن يجد، أثناء غيابها، فتاة أجمل منها حتى وإن لم تكن هناك أيّ فتاة غجرية أجمل منها. ومن ثمّ، لأنّ مواكب الآلاف من الغجر الذين يرتدون ثياباً

سوداء اللون وهم يبكون ويصرخون تحت ثقل تمثالٍ يزن عدّة مئاتٍ من الكيلوغرامات، لم تكن من نوع الأنشطة التي تحلم بها فتاةٌ في سنّها. علاوة على ذلك، لم تكن الأثواب الطويلة سوداء اللون وأغطية الرأس تناسبها. لم تكن قد أحبّت نمط مادونا قَط، مفضّلة عليها بما لا يُقاس نمط ليدي غاغا الأكثر ابتذالاً واختلالاً. وكان عزاؤها الوحيد، مساءً، هو الذهاب إلى المنبسطات الرملية وإغواء الرجال الذين كانوا يشاركون في لعبة مسبح الثيران أو في سباقات الثيران ذات القرون المزوّدة بكريات معدنية.

أمّا الحدث الثاني في السنة، فقد كان يُصادف العطلة الصيفية، في بداية شهر أغسطس، أي في هذا الوقت من السنة. كان غوستاف يأخذ أسبوعاً من الإجازة ويسافرون جميعاً إلى برشلونة باستخدام الطائرة ويصرفون النقود التي كسبها غوستاف بنزاهة حتى ذلك التاريخ.

كانوا يملكون في المدينة بيتاً حقيقياً من القرميد، والذي كانت ملكيته تعود قديماً إلى أحد أشقّاء جدّ غوستاف والذي حينما تقدّم به السنّ وشارف على آخر أيام حياته، لم يعُد يحتمل رطوبة المقطورات المسبقة الصنع.

بالنسبة إلى هذه الرحلة، لم تكن ميراندا - جيسيكا تتخلّف عنها أبداً وكانت تقدم على السفر برغبة واندفاع. فالمدينة الكتالونية تعجّ بالأندية والملاهي والمراقص الليلية وكذلك بالصبيان. كانت تعرف الأماكن الساخنة عن ظهر قلب، مثل ماريماغنوم وباريو غوتيكو وبورت أولمبيك التي كانت تمضي فيها ليالي ممتعة وهي تتمايل بخصرها على أنغام المغنين المفضلين لديها.

ولهذا السبب لم يكن من الممكن أن تفكّر ميراندا - جيسيكا في

ذلك الصباح في التخلّف عن موعد إقلاع الطائرة. فابتلعت الفتاة ما في كوبها من الشوكولا بالحليب في أقلّ من جرعتين وذهبت لكي تغيّر ثيابها في المقطورة. تبرّمت في سروالٍ جينزٍ قصير ينزل لحوالي عشرة سنتيمترات مربّعة، وارتدت القطعة العلوية لمايو بكيني أصفر اللون وانتعلت زوجاً من الأحذية ذا كعبٍ بعلو خمسة عشر سنتيمتراً مزيّناً بزخارف برّاقة وخرجت وهي تلبس بهذه الطريقة وتحت إبطها حقيبة يدٍ ضخمة. كانت سوف تستحمّ في عصر ذلك اليوم على شاطئ حي برشلونيتا وسط مدينة برشلونة.

فعلت والدتها الشيء نفسه. ولكن كان من غير المعقول بالنسبة إليها أن تخرج من دون أن تتبرّج. فانكبّت مرسيدس - شايانا على وضع طبقة أساسٍ من مسحوق التجميل على وجهها، ووضعت المسكرة من طراز ريميل على رموشها وصبغت شفتيها بقطعة كبيرة من أحمر شفاهٍ بلونٍ وردي غامق. لم تنزع عن نفسها مئزرها المزهّر الإسباني، الذي وجدته صيفياً ومناسباً جدّاً للرحلة، وارتدت فقط سروالاً من الليكرا وردي اللون وانتعلت صندلاً خاصّاً بالشاطئ.

صرخ غوستاف مُبدياً إعجابه وهو يضع الأمتعة في صندوق السيارة:

- يا له من ثُنائي جميلٍ من النساء!

ثمّ جلس خلف المقود، مُحدِثاً قرقعة خفيفة صادرة عن الكريات الخشبية الصغيرة التي كانت تُطرّز غطاء كرسيّه.

أشارت الساعة إلى الثامنة صباحاً من خلال جرس الكنيسة الواقعة أمام مفوّضية الشرطة. لم يكن ليظنّ المرء نفسه في قلب باريس.

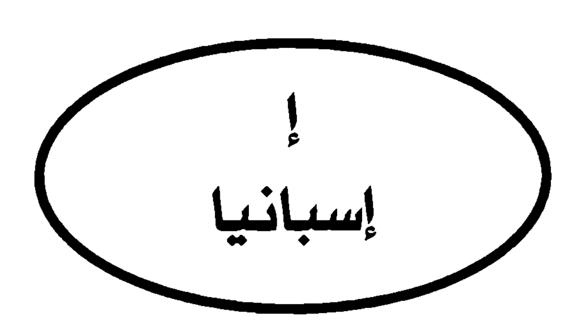
قالت قائدة الشرطة ألكسندرا لافيف الجالسة في مكتبها لنفسها:

- في هذه الساعة بالتحديد، لا بدّ أنّه في إنجلترا...

ومع ذلك لن تطلب من قاضٍ أن يحرّر مذكّرة توقيف دولية بشأن قضيّة نصب واحتيال بمبلغ مائة يورو. سوف تُعتبَر مغفّلة وسافلة إذا ما طلبت هكذا طلب. وأنتم تعلمون كم كانت تكره هذا الأمر. كانت لتفضّل أن تدفع له مبلغ المائة يورو من جيبها وتحافظ على كرامتها. وبالتالي أغلقت الشرطية ملفّ غوستاف بالورد، سائق سيارة الأجرة لدى شركة جيتان، ورمته في مقبرة القضايا التي تمّ إيقاف البحث فيها، وهي عبارة عن خزانة جرّارة ضخمة تشبه خزائن الصيدليات والتي كان يتراكم فيها خمسمائة ملفّ آخر يستحقّ الاختفاء من على وجه الأرض. نهضت بعد ذلك من مقعدها وراحت تنضم إلى الآخرين أمام ماكينة إعداد القهوة.

أثناء مرورها أمام المرآة المجرّدة من القصدير التي كانوا

يستخدمونها من أجل حالات التحقّق من الشخصية (المفروشات، كما كانوا يقولون)، وجدت بأنّها قد شاخت فجأة. كانت هالات رمادية اللون ضخمة تُحيط بعينيها الشبيهتين بقوسين لم تعُد لديهما القوّة لكي يستقيما. قالت في نفسها: هذه المهنة تلتهمني على نارٍ هادئة. أنا أحتاج إلى عطلة.


إ
إسبانيا

أثناء مروره أمام كوّات الوصول المزجّجة الضخمة في مطار برشلونة، وجد آجاتاشاترو بأنّه قد شاب فجأةً. كانت هالات رمادية اللون واسعة تُحيط بعينيه الشبيهتين بقوسين لم تعُد لديهما القوّة لكي يستقيما. قال في نفسه: هذه الرحلة تلتهمني على نارٍ هادئة. أنا أحتاج إلى سريرٍ مناسب.

لم يعُد صناعياً هندياً ثريّاً في شيء. كان له بالأحرى الهيئة الكابية لمهاجرٍ سريّ وأدرك الآن لماذا لم يُصدّق الشرطي، الذي استجوبه، حكايته مع ايكيا. لو كان هو في مكانه، لفعل الشيء نفسه ولما صدّقه.

كانت الساعة الجدارية الرقمية الضخمة في بهو المطار تُشير إلى منتصف الظهيرة تماماً. كانت تشير على نحوٍ خاصّ إلى الحرية لأنّ دوائر الهجرة الإسبانية بالكاد دقّقت في أوراقه، أثناء تسليم المهاجرين من قبل الحرّاس البريطانيين، ولم تأخذ عليه أي مأخذ، وقد وجّهته على مضضٍ، مع ثلاثة مسافرين محظوظين آخرين، نحو المخرج الأقرب.

وكانت الساعة الجدارية تُشير كذلك إلى أنّه في هذه الساعة، كان من المُفترض أن يكون آجاتاشاترو موجوداً في مطار رواسي -

شارل ديغول، على بُعد بضعة آلاف من الكيلومترات من هنا، وهو ينتظر إقلاع الرحلة التي كان يجب أن تقلّه إلى الهند، وتحت إبطه سريرٌ ذو مسامير جديد.

ولكن كلّ هذا كان من الماضي وعبارة عن حياته القديمة.

وهو يسير في الرواق رقم 1 الجديد، باتجاه المنطقة التي يتمّ فيها أخذ الأمتعة، وهو ممرٌّ إجباري للخروج حتى ولو لم تكُن لديك حقيبة أمتعة، أقسم الفقير الهندي بأن لا يُقدِم بعد الآن على أيّ أمرٍ غير مشروع. فكّر من جديد في ما قالته له ماري «**من حسن الحظّ أن نلتقي مع أشخاص أوفياء، صادقين مثلك. أشخاصٌ يُقدِمون على فعل الخير وينشرونه من حولهم**».

فكّر من جديد في اعترافات فيراج، قائد أعضاء فرقة **جاكسون خمسة** السودانيين، الذي تركَه لتوّه في منطقة التفتيش مع كوغري وباسل ومحمد ونيجام وأمسالو (لم تكُن لديهم أوراق ثبوتية وسيظلّون هناك لوقتٍ طويل). كانا قد افترقا منذ قليل بعد عناقٍ شديد، وهما يتمنيان لبعضهما رحلة سعيدة. وقد قال فيراج: «المكتوب ليس منه مهروب». لا بدّ أننا سنلتقي من جديد.

سوف يحاول السودانيون من جديد الدخول إلى أراضي المملكة المتّحدة. كانوا يؤمنون بأرضهم الموعودة مثلما كان المستوطنون الأوائل يؤمنون بأميركا حينما اكتشفوا شواطئها في الأفق. سوف يُغادرون إسبانيا ويعبُرون فرنسا وسوف يقيمون في كالي بانتظار تأمين عبورٍ، مختفين بين صناديق المعلّبات أو الكرنب.

كان فيراج قد سأله:

- وأنت، ماذا ستفعل يا آجا؟

- أنا؟ لا أدري بعد ماذا سأفعل. سوف أزور برشلونة طالما أنا هنا. حتى وإن كنتُ لا أملك قرشاً واحداً في جيبي.

وكان قد تجنّب تماماً أن يُخبر صديقه بأنّه سوف يجهد لكي يصبح رجلاً خيّراً، وأنّ حكايته قد غيّرته، وأنّه يتمنى هو أيضاً أن يكون لديه شخص يساعده ويعطيه.

كذلك احتفظ لنفسه بأفكاره عن ماري ومشاريعه المجنونة التي ولدت في ذهنه. وكذلك ما لا يُصدّق أنّه قد يُفشى هو أنّ صاحبنا الفقير قد صادف على هذه الأفكار الجميلة عن الحبّ وعن الحمة والإخاء، وجهاً لوجه، سائق سيارة الأجرة الباريسي الذي احتال عليه أمس على بعد آلاف الكيلومترات من هنا. وكان هذا الأخير بين ذراعي منْ بدتا وكأنّهما عاهرتان وكان ينظر إليه برغبة جامحة في أن يقتله.

أول شيء فعله غوستاف بالورد، حينما صادف الفقير الهندي، كان النظر إليه مع رغبة جامحة في أن يقتله.

- أيّها القروي، كنتُ أعرف جيّداً بأنني سوف ألتقي بك ذات يومٍ!

لم يندهش سائق سيارة الأجرة في أيّ لحظة لرؤية الفقير الهندي هنا، في برشلونة، في حين قبل ثلاث ساعات كان قد تخيّل بأنّه موجودٌ في إنجلترا، وأنّه لا يزال محبوساً مثل جرذٍ في مقطورة شاحنة سائرة في طريقها إلى أعلى خطوط العرض على الكرة الأرضية. كان غضبه العنيف بطبيعته يتفوّق غالباً على منطقه وقدراته على تحليل الأحداث.

لم يكن المرء بحاجة إلى أن يكون ملك أتباع المذهب الذهني، مع أنّ آجاتاشاترو كان بارعاً في هذا المذهب، ولا أن يتحدّث اللغة الفرنسية (والحالة هذه، لغة غجريّ غاضب) لكي يدرك أنّه لا ينبغي لصاحبنا الفقير أن يدوم في هذا المكان. ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي ليؤتي بأدنى حركة.

صرخ غوستاف الذي أراد أن يقتله:

- سوف أقتلك!

وهو يقول هذا، رمى في وجهه المثلّجة التي كان قد التقطها من على البساط المتحرّك لنقل الأمتعة.

بدورها، صرخت ابنته التي لم يكن يُسمَح لها أبداً أن تضع مجوهرات ثقوب الجسد:

- ما أجمل مجوهرات ثقوب جسده!

سألت زوجته بكل بساطة، والتي كانت ترى للمرّة الأولى هذا الرجل الذي يعتمر عمامةً ووجهه الكامد مسطّر بشارب، طويل القامة، جاف العود وأعجر مثل شجرة.

- مَنْ يكون هذا الرجل؟

ولكن حالما أدركت أنّ هذا الرجل ليس صديقاً للعائلة، تضامنَت مع زوجها في هبّة شجاعة وضربت بحقيبتها المصنوعة من جلد الثور والمليئة تماماً على جنبات الرجل المجهول.

لم يستطع آجاتاشاترو، الذي بوغِتَ بالهجوم السافر لملوك الغجر(*) (Gipsy Kings) يوم الأحد هؤلاء، أن يتحاشى المثلّجة التي تزن سبعة كيلوغرامات والتي ارتطمت بخدّه ولا لسعات الحقيبة الجلدية على خاصرته. ولأنّه كان نحيفاً أكثر ممّا ينبغي، انقذف كريشة ضربتها الرياح على البساط المتحرّك لنقل الأمتعة القادمة من جزيرة مايوركا. ظلّ لبرهةٍ من الوقت طريحاً، وذلك بدافعٍ من الاستراتيجية (استراتيجية التظاهر بالموت) أكثر منه بدافع الألم (طالما...)، بين عربة أطفال وجبلٍ من علب معجنات أنسيماداس (لا تعرفون ما هي معجنات أنسيماداس؟ وهو أيضاً لا يعرفها. ولكن

(*) Gipsy Kings: جيبسي كينغ وتعني «ملوك الغجر»، وهي فرقة موسيقية فرنسية من بلدية آرل ومونبلييه في جنوب فرنسا. - المترجم -

حينما فتح عينيه، بطريقة مخفية، بينما لم يكن الغجري يتوقّع سوى أن يؤدّي ذلك إلى أن توجّه له ضربة جديدة من المثلّجة على وجهه، تبيّن للفقير الهندي بأنّه قد بالغ في التظاهر بالموت وأمضى وقتاً أكثر ممّا ينبغي في ذلك. تماماً كما في حكاية آليس في بلاد العجائب، كان الفقير الهندي قد نُقِل إلى الجانب الآخر من المرآة، أي، إلى مستودع الأمتعة. كانت الماكينة التي تتقيّأ الحقائب قد ابتلعته مثل حقيبة تافهة أكملت دورة على البساط المتحرّك لنقل الأمتعة دون أن يرغب أحدٌ في أخذها.

مزّق ألمٌ حادّ وجهه.

مسّ خدّه مسّاً خفيفاً. كان العديد من القطع البلورية الناعمة، والتي لا شكّ أنّها تناثرت من المثلّجة عند ارتطامها بخدّه، قد استقرّت في الندوب الناتجة عن حبّ الشباب الذي كان قد فتك بوجهه خلال مرحلة مراهقته.

كان النصف الأيسر من وجهه مجمّداً بالكامل، كما لو أنّه قد تلقّى ضربة من المجمّدة على رأسه، والحقيقة كادت تكون كذلك، أو تلقّى ضربة من مكواة نُسيَت لوقتٍ طويل في غرفة باردة، الأمر الذي يُعدُّ في حدّ ذاته، على ما أعلم، مقارنة غريبة جدّاً.

فكّر في نفسه في الحال: رعبٌ ولعنة! لأنّه إذا كان قد نجح في الفرار من المريض الآخر ونَمِرتيه (من أنثى النمر)، فإنّ الأسوأ قد يكون هو القادم.

كان يوجد في الواقع في المنطقة الآمنة، وبالتالي المحرّمة، في مطارٍ أوروبيٍّ كبير، الأمر الذي لم يكن أفضل وسيلة لكي يوفي بوعده الذي قطعه على نفسه بأن يعود إلى سلوك طريق الاستقامة.

لو أنّ رجال شرطة مرّوا في تلك اللحظة، لصادفوا علاء الدين

شائخاً وقد استبدل بساط الريح خاصّته ببساط متحرّكٍ لنقل الأمتعة.

وإذا ما كانوا بكفاءة وفعالية زملائهم الإنجليز، بعد أن يزول الذهول، سوف ينكشف علاء الدين قبل أن يحظى بالوقت الكافي لكي يقول «أوف»، وحسب الاتفاقيات الدولية نفسها لإعادة المهاجرين التي أرسلته إلى هنا، في مكانٍ ما بين القطب الشمالي وأيسلندا لسببٍ بسيطٍ ووجيهٍ والتي يمكن إيجاده في قطع البلور الصغيرة التي ترصّع خدّيه.

حينذاك، مثل مجرمٍ راغبٍ في إزالة الأدلّة الدامغة أكثر من غيرها، حكّ الفقير الهندي وجهه بعنف باستخدام كمّ قميصه في حين كان البساط المتحرّك يواصل، برباطة جأش، نقله داخل تعرّجات المستودع.

منذ ما يقارب خمس دقائق، كان توم كروز - خيسوس كورتيس يتمرّا في المرآة العاكسة لسيارته الصغيرة المكشوفة الخاصّة بنقل الأمتعة والتي كانت مطبوعة باللونين الأحمر والأصفر الخاصّين بشركة إيبيريا للطيران.

على الرغم من أنّه كان في الثامنة والعشرين من عمره، وجد بأنّه قد شاخ فجأةً. كانت هالات رمادية اللون ضخمة تحيط بعينيه الشبيهتين بقوسين لم تعُد لديهما القوّة لكي ينتصبا. قال الرجل في نفسه: هذا العمل الدنيء يلتهمني على نارٍ هادئة. أحتاج إلى عقد عملٍ بمدّة غير محدّدة. بينما كان في طريقه للعودة إلى مستودع الأمتعة، اقترب منه رجلٌ يمسك بين يديه مثلّجة بخطوات سريعة. كان برفقة امرأة ترتدي مئزراً مزهّراً بدت وكأنّها خارجة من الحمام وفتاة لها هيئة الفتيات المحترفات التي كان قد اعتاد أن يراهُنّ على قارعة الطريق حينما كان يأتي إلى مكان عمله.

قال الرجل بلغة إسبانية سليمة مطبوعة بلكنة فرنسية:

- سنيور، لقد ابتلعَت الماكينة حقيبتي.

عاقداً العزم على ألّا يدعَ الفقير الهندي يفلت من بين يديه هذه المرّة، كان ذلك كلّ ما وجده غوستاف لكي ينتقل إلى الجانب الآمن

من المستودع. كان كرشه الضخم مليئاً بالبيرة وكان افتقاره إلى الرشاقة البدنية تمنعه من أن ينزلق على البساط المتحرّك لنقل الأمتعة ويسلك الطريق نفسه التي سلكها عدّوه.

ردّ عامل الأمتعة، متعباً من كونه يضطرّ دائماً لأن يردّ على الطلبات الغبية للمسافرين منذ أن خالفه الحظّ في أن يوجد على هذا الجانب من بهو المطار:

- انتظر قليلاً، سوف تخرج الحقيبة من جديد، البساط المتحرِّك يدور دورة كاملة.

- أعرف، أعرف...

- إذاً لا مشكلة إذا كنت تعرف...

ارتجل سائق سيارة الأجرة الباريسي حينما رأى بأنّ خطّته الأولى لم تنجح:

- نعم، ولكن المشكلة هي أنّ ابنتنا هذه على وشك أن تتسبّب لنا بنقص السكّر في دمنا!

- فرس نهر(*)؟ ليس من اللطيف القول عن هذه الفتاة الجميلة بأنّها تشبه فرس النهر!

أفرجت ميراندا - جيسيكا، التي تمّت مغازلتها، عن ابتسامةٍ وأخفضت رأسها، وقد احمرّ خدّاها. كان الفتى الإسباني جذّاباً في زيّه الأزرق اللون الخاصّ بالعمل. كاد أن يكون أكثر جاذبية من كيفن - خيسوس.

(*) استخدم الكاتب هنا الاختصار Hypo وهو مقطع لفظي مشترك في كلمتي Hypoglycémie التي تعني «نقص السكّر في الدم» و Hippopotame التي تعني «فرس النهر» ولذلك هناك لعب على هذا التطابق اللفظي. - المترجم -

صحّح الغجري وهو في هيئة مفجوعة:

- نقص السكّر في الدم! ابنتي مصابة بداء السكّري! يجب أن تأخذ في الحال حقنة من غلوكوجين لكي ترتفع نسبة السكّر في دمها! والغلوكوجين موجود في الحقيبة.

لطالما أراد أن يقتبس تعليقاً من مسلسله الأميركي المفضّل، أي آر. وقد جاء أخيراً اليوم الذي لطالما انتظره.

ردّ عامل الأمتعة الذي لم يفقد شيئاً من برودة أعصابه على الرغم من الحالة الطارئة:

- لا يبدو عليها بأنّها في حالة سيئة.

نكز غوستاف بكوعه ميراندا - جيسيكا، التي رفعت رأسها في الحال متظاهرة بالألم الشديد.

استسلم عامل الأمتعة لإلحاحه:

- حسناً، سوف أذهب لجلبها.

آثَرَ عامل الأمتعة الاستجابة بأسرع ما يمكنه لطلب السائح بدل البقاء في حالة الجدال معه هنا. ثمّ إنّ الفتاة كانت جميلة وظريفة.

أقلع بسيارته المكشوفة الصغيرة الخاصّة بنقل الأمتعة.

أضاف غوستاف، ليس من دون منطق، وهو يضع المثلّجة على الأرض وردفيه الضخمين على مقعد الراكب بجانب السائق:

- سوف أرافقك. أنتَ لا تعرف أي حقيبة تخصّنا.

تأمّل توم كروز - خيسوس كورتيس سانتا ماريا للحظة في الذكر الجالس بجانبه. كان رجلاً قصير القامة في حوالى الخمسين من عمره، يرتدي سروالاً أسود اللون رخيص الثمن وقميصاً من اللون نفسه. كانت تتدلّى في رقبته سلسلة ذهبية كبيرة (تُستخدم هذه السلاسل نفسها في ربط قُلس اليخوت)، وقطعة موكيت ذات وبر

طويل كستنائية اللون. لولا المثلّجة الموجودة مع غوستاف وهيئة مرافقتيه، لراهن الرجل أنّ الفرنسي كان ذاهباً إلى مراسم دفن ميّتٍ.

تبّاً له، ولكن هذا مؤكّد!

سأل وهو يكاد أن يكون متأكّداً من توقّعه:

- هل أنت غجري، أيّها الأخ؟

أجاب غوستاف، كما لو كان الأمر بديهياً، وهو يلوّح في الوقت ذاته بأصابعه الضخمة المزيّنة بالخواتم الذهبية:

- آه، طبعاً! نعم، أنا غجري.

قال توم كروز - خيسوس كورتيس سانتاماريا بنشاطٍ وحيوية ومرح وهو الآخر يلوّح بأصابعه الضخمة المزيّنة بخواتم الشعارات الكبيرة الذهبية، كما لو كان ذلك إشارة تعارفٍ سرية بينهما.

- آه إذاً! كان عليك أن تخبرني بهذا مبكّراً!

ثمّ اندفع بسيارته السريعة في بهو المطار. لم يكن ليتأخّر حينما كان الأمر يتعلّق بإنقاذ غجرية جميلة.

بدافعٍ من الفضول الشديد، كان آجاتاشاترو قد فتح واحدة من العلب الكرتونية الغامضة الموجودة أمامه على البساط المتحرّك والتي كان مكتوبٌ عليها بأحرف جميلة حمراء وذهبية اللون، **أنسيمادا مالوركينا**.

وقد فوجئ مفاجأة كبيرة، فقد كانت عبارة عن صنفٍ من البريوش الذي يقع في شكله بين الحلزون وتسريحة شعر الأميرة ليا، ذي دائرة تساوي تقريباً دائرة قرص فينيل ذي ثلاثة وثلاثين لفّة. قضم منها قطعةً ووجدها لذيذة جدّاً. كان من الممتع أن يتناول طعاماً. كانت الحلوى مشبَّعة بالطحين وعجينية بعض الشيء ولكن كان يمكن معالجة هذا الأمر من خلال شرب القليل من الماء. المشكلة أنّه لم يكن لديه ماء.

بينما كان يتساءل في نفسه كيف يمكن للناس أن يستودعوا جبالاً من البريوش مثل حقائب عادية، وأن يقوم عمال البضائع بتحميلها في الطائرات من دون أن يتناولوا منها قطعةً أو قطعتين أثناء نقلها، سمع هدير سيارة تقترب منه.

في حركة سريعة، قفز الفقير الهندي من على البساط المتحرك.

كان الوقت قد حان لكي ينزل لأنّ البساط كان يتهيّأ لأن ينطلق من جديد باتجاه مدخل بهو المطار حيث ينتظره من دون أدنى شكّ الرجل الباريسي ومثلّجته القاتلة.

ألقى نظرة خاطفة على اليسار وأخرى على اليمين. لم يكن هناك أيّ شيء. لم يكن هناك أي شيء سوى تلك الحقيبة الجلدية الكستنائية اللون، الضخمة بحجم ثلاّجة، والتي كانت تمرّ على بعد بضعة أمتار منه على بساطٍ متحرّك كان يسير باتجاهٍ آخر. من دون أدنى تردّد، انقضّ عليها. لحسن حظّه لم تكن هناك أقفال على الحقيبة. سحب سحّاب الحقيبة من طراز إيكلير وهو ينظر في الوقت ذاته من خلف كتفه. كانت سيارة صغيرة حمراء وصفراء اللون تأتي باتجاهه. بدا أنّ السائق والراكب الجالس بجانبه، والذي لم يتبيّن وجهه جيّداً، لم يرياه.

كانت الحقيبة الجلدية عبارة عن خزانة متنقلة تغصّ بالثياب. إنّها حافظة ثياب! قال آجاتاشاترو في نفسه ذلك وفي عينيه ومضة شكّ وريبة. انتزع بقوّة وعنف الثياب المعلّقة على التعليقات ورماها في أكداسٍ خلف البساط المتحرِّك. كانت هناك أثواب أنيقة، وألبسة داخلية رقيقة، وعلب مساحيق التجميل مجهّزة ومرتّبة. كانت الحقيبة تخصّ من دون شكّ شخصاً مهمّاً أو ثرياً، أو مهمّاً وثرياً في آنٍ واحد.

اندسّ الفقير الهندي في الحقيبة، وفي يده نصف قطعة من بريوش الأنسيمادا، وأغلق على نفسه الحقيبة من الداخل.

لم يكن قد دخل أبداً إلى حقيبة بهذه الضخامة في حياته ولو لمرّة واحدة، لم يحظَ بفرصة أن يخلع كتفه كما كان قد اعتاد أن

يفعل حينما كان يندسّ إلى داخل صندوقه السحري. تنهّد. على الأقلّ، لن يخترق أحد هذه الحقيبة بسيوفٍ طويلة مسنونة. طبعاً، إذا لم يضبطه سائق سيارة الأجرة الفرنسي...

بينما كان عامّة الناس الذين يرتدون سراويل برمودا القصيرة وصنادل يواصلون الزحف مثل حشرات أمّ الأربع والأربعين بين المقاعد ويتّخذون أماكنهم داخل الطائرة، كانت صوفي مارسو، التي صعدت إلى الطائرة أوّلاً، تشرب كوباً من الشامبانيا رخيصة الثمن في الصفّ الثاني من المقاعد. أثار رجلٌ إيطالي كان يمرّ بجانبها ويتحدّث بصوتٍ عالٍ ذرّة صغيرة من الغبار إلى العين الخضراء للممثّلة الحسناء. وقد أدّى الغضب والانفعال الناجمين عن ذلك إلى أن تفقد الممثّلة عدستها اللاصقة التي اختفت في الحال بين الوبر الكثيف للموكيت أزرق اللون الذي كان يفترش أرضية الطائرة.

خلال بضع دقائق، وجدت المرأة الشابّة نفسها تجثو على ركبتيها وهي تنبش بين الألياف الصوفية بأصابعها الطويلة والرقيقة، إلى أن اقتربت مضيفة لكي تساعدها. لم تكن النتيجة أفضل ممّا كانت واضطرت صوفي مارسو أن تعتاد على الواقع المرعب: لقد أصبحت عوراء. الأمر الذي لم يكن من الممكن التسامح معه، سوف توافقون على ذلك، بالنسبة إلى ممثّلة أبت أن تمثّل حتى في فيلم قراصنة الكاريبي.

بينما كان الركاب يواصلون التقدّم نحو أماكنهم، سارت

المضيفة بعكس التيار مثل سمكة سلمون وتحدّثت لبضع ثوانٍ في الممرّ مع امرأة ترتدي بزّة عملٍ مع صدرية عاكسة للضوء صفراء اللون، وقبّعة ضخمة على أذنيها ومعها جهاز لاسلكي.

كان يجب من كلّ بدّ العثور على حقيبة صوفي مارسو من طراز فويتون وجلب علبة التبرّج خاصّتها التي كانت موجودة في الجيب الخارجي للحقيبة.

لحسن الحظ، لم تكن الحقيبة قد حمّلت في الطائرة بعد. على المدرَج، شرح رئيس قسم الأمتعة للفتاة التي تحمل الجهاز اللاسلكي بأنّ الحقيبة قد حظيت بمعاملة خاصّة، مراعاةً لصاحبتها (لم تكن الممثلة الشهيرة والجميلة صوفي مارسو كلّ يوم على متن طائرته)، وبالتالي لم تكن تسافر مع بقية الحقائب في الحاويات المعدنية الضخمة من طراز AKH. فأشار لها إلى حقيبة جميلة من طراز فويتون كستنائية اللون لها أبعاد ثلّاجة صغيرة (55 × 128 × 55 سم) محمولة على عربة ذات عجلات.

نبشت الفتاة الإسبانية الجيب الخارجي للحقيبة، وأخرجت منه علبة التبرّج المتناسقة مع زخارف الحقيبة وأغلقت كلّ شيء من جديد. كانت هذه هي المرّة الأولى التي ترى فيها حقيبة بهذه الفخامة. براتبها المتواضع، وخاصّة في أزمنة الأزمة والضائقة الاقتصادية هذه، ما كانت لتستطيع أبداً أن تشتري لنفسها حقيبة مثل هذه. ربّما كانت بالكاد تستطيع أن تشتري علبة التبرّج على الأكثر.

قالت لرئيس قسم الأمتعة:

- حسناً، هذا جيّد.

حمّل رئيس قسم الأمتعة، مصحوباً برجلين آخرين، الحقيبة في العنبر الوحيد للطائرة الذي يتمتّع بالتهوية والتدفئة وتكييف الضغط.

أجل، في أعماق هذه الحقيبة المظلمة، كان آجاتاشاترو، الضائع بين سروالٍ داخليّ صغير وقطعة من بريوش أنسيمادا، قد تضرّع إلى جنيّ خيّر، وسيكون هذا الأخير قد قال له بصوته الأجشّ مثل صوت المغني باري وايت: «أيّها الفقير، لدي خبرٌ جيّد وآخر سيئ لأخبرك بهما. الخبر الجيد، هو أنّك قد وُضِعتَ للتوّ في العنبر الوحيد للطائرة الذي يتمتّع بالتهوية والتدفئة وتكييف الضغط، وهذا سيجنّبك الوصول إلى مقصدك على شكل قطعة ثلجٍ إيطالية. أمّا الخبر السيئ، هو أنّك لن تزور برشلونة أبداً، لأنّك قد حُمّلت في عنبر طائرة سوف تُقلِع في غضون بضع ثوانٍ نحو وجهةٍ مجهولة. إنّها تنطلق في جولة حول العالم!».

لم يستغرق المشهد سوى بضع دقائق، ولكن حينما دخل غوستاف بالورد وتوم كروز - خيسوس كورتيس والبقية إلى مستودع الأمتعة، كان الفقير الهندي قد اختفى تماماً ولم يبقَ له أثر.

كان غوستاف، الذي حقد على نفسه لكونه قد كذِب على غجريٍّ، قد اعترف بالحقيقة لعامل الأمتعة ما أن أصبح داخل السيارة الصغيرة. والحقيقة كانت أنّه يريد تحطيم فم الغريب الذي احتال عليه بمائة يورو. وكان الفتى الإسباني، الذي لم يعُد هناك ما هو أكثر قداسة بالنسبة إليه من روابط الدم والذي لم يخسر قط الفرصة المناسبة لتحطيم فم شخصٍ، قد انضمّ إلى قضية أخيه في الجماعة دون المزيد من الشرح والتوضيح. زدْ على ذلك أنّ الفتى قد ارتاح لكونه قد علم بأنّ الفتاة الجميلة ليست مُصابة بداء السكّري، وبالتالي لم تكن في خطرٍ أيضاً.

هكذا، مهتاجين بمطاردة الرجل المرتجلة، سار الغجريان بخطى واسعة في الممرّ التيهي بحثاً عن الفقير الهندي الذي تجرّأ ذات يومٍ على إهانة أحد أفراد بني جلدتهم.

لم تعُد مثلّجة غوستاف في متناول يديه، ولكنّه كان يداعب في جيبه سكينه التي لا تفارقه ذات المقبض العاجي والتي كان قد استلّها

بفرح من بين أمتعته حينما خرج من الطائرة. في حال لن يعيد السارق ما يدين به له، بالإضافة إلى الفوائد، لن يتردّد للحظة واحدة في تحويله إلى مصفاةٍ.

سرعان ما وصل الرجلان إلى نهاية البساط المتحرّك، ولكن لم يعثرا على أيّ أثرٍ للرجلِ الشرير المحتال. ولأنّ حمّالاً للأمتعة مرّ من هناك، سأله الفتى الإسباني إن كان قد رأى رجلاً هندياً، طويل القامة، جافّ العود وأعجر مثل شجرة، له شارب طويل في وجهه وعمامة بيضاء على رأسه.

رجلٌ هندي.

أجاب الرجل وهو يشير إلى غوستاف بإصبعه بإشارة تهديدية:

- الهندي الوحيد الذي رأيته هنا، ها هو! ماذا يفعل في هذا المكان؟ من غير المسموح أن يوجَد في هذا الجانب من بهو المطار.

أجاب الفتى الغجري كاذباً:

- أعرف، أعرف، ولكننا نبحث عن حقيبة تحتوي على غلوكوجين... السكّر من أجل ابنته التي تعاني من نوبة انخفاض سكّر الدم.

ردّ الموظّف:

- آه...

ثمّ وبعد بضع خطوات:

- حسناً وما شأن الهنديّ بكل هذا؟

لم يعرف توم كروز - خيسوس كورتيس سانتاماريا بماذا يجيب. ولكنّه أدرك في الحال بأنّه قد لا يحصل على عقد عمله لمدّة

غير محدودة إذا ما حشر نفسه في أمورٍ لا تعنيه. وبالتالي عاد أدراجه.

بينما كان يرافق الرجل الفرنسي إلى بهو المسافرين ويحاول أن ينسى هذه الحادثة المشؤومة، لفت انتباهه كدسٌ من الثياب المرمية على الأرض على أطراف بساطٍ متحرّك.

بدافع الضمير المهني أكثر منه بدافع الشكّ والاشتباه، أوقف سيارته وراح يلملم الثياب. كانت الثياب عبارة عن أثواب جميلة للسهرة والاحتفالات وألبسة داخلية مثيرة جنسياً، قياس 36، والتي تجعل المرء يفترض أن صاحبتها ليست قبيحة المنظر.

سأل سائق التاكسي الفرنسي الذي جاء ينضمّ إليه:

- ما هذه الثياب؟

- لا أدري، وكأنّ أحدهم قد رمى هذه الثياب هنا دون أن يهتمّ كثيراً بقيمتها. إنّها ثيابٌ جميلة للغاية. إنّها تعود بكلّ تأكيد إلى شخصية ثريّة، أو هامّة، أو ثريّة وهامّة في آنٍ واحد. في كلّ الأحوال، إنّها تعود لامرأة، هذا مؤكّد، لا بدّ وأنّها ليست قبيحة المنظر، إن أردت رأيي في الموضوع.

قاطعه غوستاف، كعجوزٍ فطنٍ لا يستسلم للشرود أمام زوجٍ من السراويل الداخلية، وسأله:

- إلى أين تذهب هذه الأمتعة؟

كان يشير إلى الحقائب اليدوية وحقائب الثياب التي تواصل سيرها على البساط المتحرّك.

اقترب حمّال الأمتعة من عربة دفعٍ كانت تمرّ من هناك وقرأ اللصاقة الخضراء والبيضاء التي كانت معلّقة بها.

- اف سي او.

ردّد غوستاف دون أن يفهم شيئاً:

- اف سي او.

أوضح حمّال الأمتعة:

- هذه الأمتعة في طريقها إلى مطار فيوميتشينو في روما.

حينما دارت المحرّكات النفّاثة بأقصى طاقتها وأقلعت الطائرة، أدرك آجاتاشاترو في الحال:

1) إنّه موجودٌ في طائرة ؛ 2) إنّ الحقيبة التي كان يختبئ فيها لم تكن قادمة إلى مطار برشلونة وإنّما تغادره.

كشخصٍ لم يسافر أبداً من قبل، وجد بأنّ الأمور تسير معه على ما يُرام منذ أمس. يقول المثل إنّ الأسفار تصنع الشباب، وبالطريقة التي يسافر بها سوف يعود عمّا قريب وليداً جديداً، إذا كانت مرآة وحقيبة هي وسائط النقل الأكثر مناسبةٍ للاحتفاظ بهذا الشباب. لم يكن ذلك مؤكّداً، مع كلّ تلك الأوجاع وآلام الظهر التي تتسبّب بها هذه الرحلة.

كان قد وصل إلى أوروبا منذ أربع وعشرين ساعة، والتي بدت له وكأنّها دهرٌ. وكان قد تنقّل خلالها بين فرنسا وإنجلترا وإسبانيا. وهذا المساء، سيكون أيضاً في بلدٍ آخر. لم يعد بوذا يتركه وشأنه أبداً. أيكون قد حكم عليه بأن يكون مهاجراً سريّاً رغماً عنه لما تبقّى من حياته؟

أين سيحطّ به الرحال هذه المرّة؟ كان يجهل الإجابة عن ذلك.

كان فقط يتمنى ألّا تذهب هذه الطائرة إلى كاليدونيا الجديدة.

لم يكن يرغب في أن يمضي الساعات الاثنتين والثلاثين القادمة متقوقعاً على نفسه في حقيبة ارتفاعها مترٌ وعشرون سنتيمتراً وليس معه من الطعام سوى نصف قطعةٍ من بريوش الأنسيمادا.

على الأقلّ، لم يكن رأسه إلى الأسفل. لم يكن ليتحمّل تلك الوضعية المقلوبة. فقد تمّ تمديده على جانبه، الأمر الذي كان، بحدّ ذاته، مناسباً جدّاً للنوم حتى وإن كانت ركبتاه في فمه. إنه نعشٌ جميل من ماركة فويتون.

فحتى إذا كان يتمنى أن يُدفَن في التراب، بخلاف الفقراء الهندوس الآخرين الذين كانوا يخلّدون التقليد الألفي لحرق الأموات وتحويلهم إلى رماد، فإنّه كان يريد، تفضيلاً، أن تأتي نهاية متأخّرة بأقصى ما هو ممكن. وكان قد تحدّث عن رغبته مع ماري أثناء تناولهما الطعام في كافيتريا المتجر. مْن يدري. لو أراد إرهابيٌّ يرتدي حزاماً ناسفاً أن يفجّر نفسه في تلك اللحظة في كافيتريا متجر ايكيا ونجت المرأة من التفجير، لربما سيكون بإمكانها أن تستجيب لآخر رغبات الهندي المسكين.

كانت الفرنسية قد قالت له:

- أمّا أنا، فأريد أن تُحرَق جثّتي وتحوّل إلى رماد. سوف أخاف كثيراً إذا ما استيقظت داخل نعشٍ.

وكان الفقير قد ردّ عليها وسألها:

- وأن تستيقظي في جرّة رمادٍ، ألا يُخيفكِ هذا؟

راودت ذهن آجاتاشاترو فكرة أنّه لا يمكن أن يموت قبل أن يلتقي مرّة أخرى مع ماري. استعاد في ذهنه ابتسامتها، يديها الجميلتين، وجهها الجميل الشبيه بوجه دمية من البورسلين. عقد

العزم على أن يتّصل بها هاتفياً ما أن يصل إلى وجهته، أين كانت.
تضرّع قائلاً: اللهم اكتب لي النجاة وسوف أصبح رجلاً محسناً، رجلاً مستقيماً وصالحاً كما نويت على ذلك.
في تلك اللحظة، أجابه بوذا على شكلِ نباحٍ فاتر.

في عنبر الطائرة، كان يوجد كلب. ومن خلال الحكم على تأوّهاته الشاكية وأنينه، لا بدّ أنّ الكلب لم يكن زبوناً عادياً، لم يكن مسافراً دائماً.

بأصابعه الرشيقة، بحث آجاتاشاترو بطريقة اعتباطية عن الآلية البسيطة التي استخدمها حينما أغلق الحقيبة من خلفه. إذا كان قد استطاع أن يُغلق الحقيبة على نفسه من الداخل، لا بدّ أنه سوف يتمكّن من فتحها بالطريقة نفسها.

بعد بضع ثوانٍ، تمكّن من تحرير جسده من الحقيبة مثل قطعة موزٍ ناضجة جدّاً ومنبثقة من قشرتها. لحسن الحظّ، لم يكُن عدد الحقائب في عنبر الطائرة كبيراً بحيث تُعيق خروجه. أمّا وقد أصبح طليقاً أخيراً، مدّد ساقيه ومسّد فقراته القطنية وربلتي ساقيه. فكّر في المثل الشعبي وأضاف عليه: الأسفار تصنع الشباب، عندما لا تشوّهكم. إنّ الانتهاء إلى التقوقع على النفس في حقيبة بعد ليلةٍ عصيبة في زنزانة مركز توقيف مكتّظة بالموقوفين، ليس بالطريقة المثلى، إن جاز القول، لحفاظ المرء على صحّته.

انتصب الفقير الهندي على قدميه ولكن سقف العنبر، المنخفض جدّاً وغير المتناسب مع طول قامته، أرغمه على أن ينثني على نفسه.

وبالتالي قرّر أن يتقدّم على طريقة مشية البطّة نحو المكان الذي كان يأتي منه صوت أنين وتأوّهات الكلب. كان التقدّم على طريقة مشية البطّة نحو كلبٍ بحدّ ذاته شيئاً مبتكراً بما فيه الكفاية.

ولأنّ العنبر كان غارقاً في الظلام، كان آجاتاشاترو يتقدّم وهو يتحسّس بيديه المكان من أمامه. في كلّ مرّة كان يُصادف عقبة، واحدة من تلك العقبات غير المعروفة وغير المحددة، يُنحّيها جانباً أو يلتفّ عليها، حسب وزنها.

وصل سريعاً أمام عينين برّاقتين كانتا تنظران إليه دون أن يرفّ لهما جفن وسط ذلك الظلام الدامس. كان الفقير الهندي يحبّ الحيوانات كثيراً، ولم يكن يخاف منها. حينما يقضي المرء طفولته المبكّرة مع ثعبان كوبرا كحيوانٍ رفيقٍ، لن يعود يخاف من أيّ حيوانٍ آخر، فما بالكم بكلبٍ، الذي هو أوفى صديقٍ للإنسان.

مدّ آجاتاشاترو نحو قفص الكلب قطعة بريوش الأنسيمادا التي كانت قد تبقّت له.

وعلى الرغم من أنّ الحيوان كان ليفضّل اللحم البشري على البريوش، قال الفقير الهندي:

- هذا ظريف، هذا ظريف.

فأحسّ حينذاك بلسانٍ ضخمٍ رطبٍ وبارد، ذي تركيبٍ شبيهٍ بتركيب قطعة إسكالوب من لحم العجل (المقدّس)، يلعق بنهم أصابعه.

توقّفت صرخات الحزن التي كان الحيوان يُطلقها. بدا أنّه قد ارتاح لقطعة البريوش أكثر منه من هذه الصحبة غير المنتظرة.

- هل تعلم إلى أين نذهب؟ لأنّه بالنسبة إليّ، ليست لدي أيّ فكرة عن وجهتنا، بل لا أدري حتى إذا كنّا نتوجّه نحو الجنوب أو

الشمال، نحو الشرق أو الغرب، إذا كنّا نطير فوق البحر أم أننا فوق جبال. ثمّ أنني مهاجرٌ سريّ إلى حدّ ما، في هذا المكان. أخيراً، هذه المرّة، يراودني الشكّ بأنني سوف أعاني من رهاب الطائرة التي تُبطئ من سرعتها والتي تتوقّف عن الحركة. ومع ذلك، لا توقف أجهزة الشرطة الأوروبية الطائرات وهي تحلّق في الجوّ، أليس كذلك؟

الكلب الذي كان عاجزاً عن فهم الموضوع، لم يُجب عن أسئلته. وسط عتمة عنبر الطائرة، كانت حساسية حواس الفقير الهندي قد زادت بعشرة أضعاف، مثلما كان حاله حينما ظلّ حبيس الخزانة أثناء السفر بشاحنة نحو المملكة المتحدة. وكذلك الحال بشأن ضرره الكبير وحاسّة الشمّ لديه أيضاً. جعلته رائحة حيوانٍ نتنة أن يسدّ منخريه ولكنّه سرعان ما اكتشف بأنّ تلك الرائحة لم تكن تصدر عن القفص الموجود أمامه.

كان هو مَن تفوح منه هذه الرائحة النتنة. وإذا كان صاحبنا الفقير غير قادرٍ على أن يقاوم التعب والجوع والعطش، فعلى العكس من ذلك كان مقاوماً شرساً للاستحمام. كان يحصل له أحياناً ألا يستحمّ لعدّة أسابيع. وإذا كان خلال اليومين الأخيرين قد وجد نفسه في وضعٍ يستحيل معه أن يستحمّ، فقد كان خلال الأيام الخمسة السابقة على السفر يستطيع أن يفعل ذلك. ولكنّه لم يكن قد غسل وجهه بقليلٍ من الماء منذ زمنٍ طويل. المرّة الأخيرة التي صبّ فيها ماءً على رأسه، كانت مياه المطر. والأمطار لا تهطل غالباً على صحراء تارتار، صدّقوني!

كان سيذهارتا غوتاما، بوذا، قد ظلّ يتأمّل لمدّة سبعة أسابيع تحت شجرة لسان العصفور المقدّسة. هل كان هو الآخر يستحمّ؟

ولأنّه كان لديه الوقت ولن يأتي أحدٌ ليزعجه في هذا المكان، جلس آجاتاشاترو القرفصاء على الأرضية المعدنية لعنبر الطائرة، في وضعية زهرة اللوتس الخاصّة برياضة اليوغا، أمام العينين البارقتين للكلب وأخذ يتأمّل في هذه الحياة الجديدة، حياة الرجل المُحسن والمستقيم هذه التي كانت تنتظره في الخارج. لقد أعطى فعلاً منذ قليل قطعة بريوش صالحة للأكل لكلبٍ، ولكن هذا الأمر ليس كافياً لكي يتغيّر كلّياً. مَن عساه إذاً أن يُساعده في ذلك؟ وكيف؟

كان الفقير الهندي غالباً ما تراوده الرغبة في أن يكتب.

لم تكن الأفكار هي ما تنقصه. كان لديه خيالٌ واسعٌ جدّاً. ربّما كانت حياته المضطربة كافية لكتابة شيء ما. في كلّ الأحوال، كان هذا الخيال الطافح يساعده كثيراً حينما كان يضطرّ لاختلاق الخدع والحيل لكي يجعلا ما هو غير واقعي واقعياً وما هو غير ممكن ممكناً.

مع ذلك، لم يكن قد دوّن أبداً حكاياته على الورق. ربّما كان الانتقال إلى الفعل أكثر تعقيداً ممّا كان يُعتقد وكان باستمرار يؤجّل اللحظة التي يخوض فيها المحاولة.

أيكون ذلك اليوم قد جاء؟ أيكون هذا النشاط الشريف والمُربح الذي يبحث عنه لكي ينطلق في حياته الجديدة هو نشاط الكاتب؟ ليس كاتباً عمومياً، كلا. لم يكن يرغب في أن يجلس على رصيفٍ، خلف آلة كاتبة ذات حمالة، وينتظر أن يطلب منه شخصٌ مارٌّ من هناك أن يكتب له رسالة حبّ. كلا، لديه طموح في أن يصبح كاتباً تحقّق أعماله أفضل المبيعات في الأسواق. كان هذا الطموح معقولاً أكثر من أن يصبح راقصاً لرقصة فُكستروت الأميركية أو فارسَ سباق. وإلا، سوف يبقى له إلى الأبد أن يكون بائع برج إيفل في باريس.

- ما رأيكَ أنت، يا صديقي؟ هل أصبح كاتباً؟

نبح الكلب ثلاث مرّات.

فسرّ آجاتاشاترو هذا النباح بأنّه يريد القول: «أعتقد أنّ هذه فكرةٌ حسنة، يا رجل، هيّا انطلق!».

إذاً ها هو، على غلاف الكتاب، سوف نرى سيارة قديمة تعود لعصر اللون الأصفر، مع كلمة تاكسي مكتوبة على جنبيها، وهي تندفع بأقصى سرعتها في شوارع نيودلهي. سوف تكون في الرواية شخصيتان. السائق، وهو رجلٌ بَدين وملتح ومشعّث الشعر. ورجلٌ شابّ بعكازتين وهو يجري أمام السيارة، بأقصى سرعة، على الرغم من إعاقته الجسدية.

ابتسم آجاتاشاترو وسط العتمة.

لم يكن سائق الأجرة في سيارته سوى نسخة روائية من السائق الباريسي مع مثلّجته، أمّا هو، فقد كان المريض المُعوّق الذي يعبُر الشارع راكضاً.

والعنوان سيكون شيئاً من قبيل: **الإله يسافر في سيارة أجرة.**

الآن وقد أصبح لديه العنوان والغلاف، كان الفقير على أهبّة الاستعداد ليبدأ بكتابة روايته. أليست هذه هي الطريقة التي يباشر بها المرء بالعمل؟

قام الرجل إذاً بخلع قميصه، وأمسك بقلم الرصاص الخشبي من ماركة ايكيا وبدأ يكتب على القماش، هناك، وسط الظلام الدامس لعنبر الطائرة، فصول الحكاية التي كانت تولَد من ذهنه.

* * *

لم يفهم جيّداً لماذا كان ممنوعاً السفر على متن طائرة مع شوكة طعام في حين يمكن قتل شخصٍ باستخدام قلمٍ. لم يفهم جيّداً لماذا كان ممنوعاً السفر على متن طائرة مع سكينٍ صغيرة قابلة للطي في حين تُعطى سكاكين معدنية لركاب درجة رجال الأعمال لكي يستطيعوا أن يتناولوا وجبتهم بأناقةٍ وتميّز.

في الواقع، لم يفهم كلّ هذه الإجراءات الأمنية في حين كان من السهل جدّاً أن يقتل شخصاً باستخدام أصابعه. إذا كان هذا هو المنطق السائد في التعامل، ألا ينبغي علينا أن نبتر أيادينا، هذه الأسلحة الخطيرة، قبل أن نصعد على متن الطائرة؟ أو تسفيرنا في عنبر الطائرة، مثل البهائم، بعيداً تماماً عن قمرة الطيّار هذا المثير للشهيّة والطمع؟

(مثل هذا الكلب الذي يصغي في هذه اللحظة إلى هذه الحكاية والذي تشكّل عيناه اللامعتان المَعلَمين الوحيدين بالنسبة إليّ وسط الظلام؟ رواية الإله يسافر في سيارة أجرة سوف تروي محن ومصائب شابّ إرهابي انتحاري أعمى، شابّ أفغاني يُدعى وليد نجيب، قبل بضع دقائق من الإقلاع باتجاه المملكة المتّحدة. لماذا أعمى؟

ربّما لأنني أنا شخصياً في هذه اللحظة وسط الظلام. في نهاية المطاف، لا يكتب المرء سوى ما يعرفه. سوف يجري المشهد في مطار كولومبو، في سرلانكا، نقطة الانطلاق التي اختارها الإرهابي لكي لا يُثير الشُبهات من حوله. المهم، ها أنا ذا أكمل لكم سرد الحكاية).

أصبح الرجل عصبياً على نحوٍ متزايد، وهو يؤجّل في كلّ مرّة إلى أبعد ما يمكن المرور من كاشف المعادن الذي كان يفصله عن المنطقة الآمنة وهو يذهب إلى المغاسل ويحبس نفسه فيها. في الواقع كان قد أخفى في الأنبوب المجوّف لعكازه كمية كافية من المواد المتفجّرة لكي ينسف في عرض الجوّ الطائرة التي كان سيسافر على متنها. لم يشكّ أحد في شخصٍ أعمى.

أعدّ خطّته بإحكام تامّ، ولكن خوفاً شديداً كان يُلاحق الرجل. لم يكن الخوف من الموت، لأنّه على أتمّ قناعة بقضيته وسوف يكون من دواعي سروره أن يموت في سبيل الدفاع عنها. ما كان يُقلقه، هو خوفه من أن يتمّ توقيفه من قبل السلطات قبل أن يتمكّن من تنفيذ خطّته (أم هو رُهاب الشاحنة التي تبطئ من سرعتها وتتوقّف؟)

ولكنّه كان قد فكّر في كلّ شيء وأعدّ له. لقد مرّت عليه ستّة أشهر وهو يرتّب بدقّة لكلّ تفصيلٍ من تفاصيل رحلته الأخيرة. كان قد نجح في الحصول على جواز سفرٍ سرلانكيّ مزوّر بطريقة متقنة للغاية كما كان قد نجح في الحصول على سمة دخول إنجليزية مزوّرة لزيارة عملٍ قصيرة. كان يرتدي بزّة رمادية مفصّلة على مقاسِه ويحمل حقيبة وثائق تحتوي في داخلها على وثائق شركته الوهمية، وهي عبارة عن شركة متخصّصة في صباغة السيارات والتي سوف يقدّمها إلى شركة فوكسهول، النسخة الإنجليزية من شركة أوبل. كما كان يحمل معه عيّنات من الدهانات الجديدة التي عرضتها شركته مؤخّراً في السوق، ومن بينها أحمر البوما وأزرق السلحفاة. عددٌ لا يُحصى من الدزجات اللونية المختلفة، وهو أمرٌ مبالغٌ فيه بالنسبة إلى رجلٍ أعمى! ولكن السيناريو الذي كان قد أعدّه كان

محبوكاً جيّداً، فقد كان قد تدرّب وتعلّم استخدام أطراف أصابعه، على غرار طريقة البريل الخاصّة بالعميان، تحسباً لطرح الأسئلة عليه. كان قد فعل كلّ ما بوسعه. وترك الباقي على الله.

دون أن يرفع نظارته السوداء، صبّ الرجل قليلاً من الماء على وجهه. لو لم يكن ضريراً، لرأى في مرآة المغاسل رجلاً مسنّاً أنيقاً، حليق الذقن. لم يكن هناك أيّ شيء يدلّ على أنّه سوف يقوم بتفجير طائرةٍ تحلّق في السماء فوق بحر العرب، بعد إقلاعها بقليلٍ من الوقت.

تلمّس وليد نجيب الجدار وسحب من علبة معدنية كبيرة بعض المناديل الورقية التي مسح بها يديه. ثمّ، سلك بخطى ثابتة طريقاً حتى وصل إلى منطقة التحكّم. كان يحفظ المسار عن ظهر قلب. كان عكازه يمسح أمامه كلّ سنتيمترٍ مربّع. كان قد داسَ على هذه البلاطات لعشرات المرّات، برفقة آخرين في البداية ومن ثمّ بمفرده.

وصل أخيراً إلى أحد الطابورين اللذين كانا يؤدّيان إلى الأروقة واعتذر من الشخص الذي اصطدم به والذي كان ينتظر لكي يمرّ. بدأ بنزع الحزام. جاء موظّفٌ في المطار لنجدته وساعده في التخلّص ممّا تبقّى: سترة بزّته وحقيبة الوثائق خاصّته.

أخيراً، بعد بضع ثوانٍ، حان دوره لكي يمرّ من تحت رواق كاشف المعادن.

(حسناً، لقد رويت لكم البداية. سوف نواصل. نبح الكلب لثلاث مرّات لكي يقول لي بأنّه لم يكن ينتظر سوى هذا).

* * *

الفصل الثاني

تجري أحداث الحكاية الآن في سجنٍ سرلانكيّ صغير. كان صاحبنا الإرهابي قد ضُبِط وأودِعَ هذا السجن، دون أن تجري له أيّ محاكمة أخرى. لم يُحكَم عليه بالموت، وإنما عوقِبَ بالسجن في هذا الكوخ القذر المقزّز الأمر الذي كان بمثابة الإعدام نفسه.

كان وليد نجيب قد زوّد برداء راهبٍ بوذي لا بدّ أنّه كان أحمر اللون ذات يوم ولكنّه استحال إلى اللون البرتقالي الشبيه بثياب معتقلي غوانتانامو من شدّة ما تمّ غسله.

علِم الأفغاني أنّ الرهبان يرتدون ثوب التُوجة(*) في هذه البلاد وأنّ هذا الثوب يُعطى للسجناء لكي يقوموا بتطهير أرواحهم. في كلّ الأحوال، بالنسبة إليه هو، ليس هناك أي أهمية أن يكون لهذا الثوب لونٌ أحمر حائل لأنّه لن يراه أبداً.

كان هناك ما بين الأغراض الموجودة في صرّة الاستقبال خاصّته أيضاً منشفة حمامٍ خشنة الملمس، ورزمة من عشر قطع صغيرة من الصابون (يُنصَحُ بعدم التقاطها إذا ما سقطت في غرف الاستحمام) ومشطٌ بلاستيكي.

وقد وجد الرجل نفسه في اليوم ذاته في زنزانة مساحتها سبعة أمتارٍ مربّعة. وبما أنّه كان مسنّاً وضريراً، فقد وضع في الزنزانة مع سجينٍ واحدٍ فقط. بينما كان النزلاء الآخرون يوضَعون كلّ أربعة أو خمسة أشخاص في غرفة واحدة من السجن. لم يكن هناك مكانٌ للجميع في هذا السجن.

(*) تُوجة: ثوبٌ رومانيّ فضفاض. - المترجم -

كان زميله في الزنزانة يُدعى ديفانامبيا.

- بصفتي ديفانامبيا تيسا، الملك السنهالي، مؤسس مدينة أنور أدابورا، أنا سعيدٌ بلقائك، أيّها الغريب.

كان السجين السرلانكي قد مدّ يده بمودّة ولطف نحو الوافد الجديد. ولكن هذا الأخير لم يبادره بشيء. وحينما رأى النظارة السوداء للرجل، أدرك ديفانامبيا أنّه ضريرٌ.

كان السجين الأفغاني يتحدّث اللغة السنهالية قليلاً، هذه اللغة التي كانت تضرب الحنك بقوّة وتُصدِرُ فرقعات خفيفة جافّة. وقد سهّل هذا الأمر الأحاديث الأولى التي تبادلها الرجلان. وبعد ذلك، أصرّ ديفانامبيا على أن يعلّمه لغته. كان لديهم متّسعٌ من الوقت لذلك. وسرعان ما تمكّنا من الخوض في نقاشات كبرى حول العالم والله وضرورة إسماع صوت الله في العالم.

وعلى الرغم من أنّ الرجل السرلانكي لم يكن متّفقاً مع الأفكار المتشددة لرفيقه في الزنزانة، إلا أنّه اتّفق على القول بأنّه يجب أن يسير الناس بهدي من الإيمان والدين وأنّ ضعف الروحانية الذي يسيطر على الغرب سوف يُلحق الضرر باستقرار الأمور وتوازنها على الكرة الأرضية. لا يوجد دينٌ على الكواكب الأخرى، وقد شاهدنا ما نجَمَ عن ذلك: ليست هناك أيّ حياة خارج كوكب الأرض. هذا أمرٌ ذو دلالة ومغزى!

ذات صباح، بينما كانا يعودان من الحمّامات، سأل الضرير زميله ديفانامبيا إن كانت هناك نافذة في زنزانتهما. اعتقد السجين السرلانكي أنّ زميله سوف يُشركه في خطّة للهروب من السجن.

- غالباً ما أسمع أصوات ضجيج المدينة والسيارات وأجراس الدرّاجات الهوائية وأشمّ رائحة التوابل في السوق. أنت الذي

تحظى بعينين وبرؤية العالم كما هو على حقيقته، هل يُمكنك أن تصف لي ما تراه من خلال النافذة؟ هذا سيخفّف عني ويُريحني كثيراً.

بدءاً من ذلك اليوم، كان ديفانامبيا يروي كلّ صباح ما كان يجري في الخارج. شرح بأنّ للنافذة ثلاثة قضبانٍ غليظة ولكنّها تترك ما يكفي من الفراغ لمشاهدة ساحة السوق التي كانت تمتدّ أمام السجن. في وسط الساحة، كانت هناك بسطات تُغطى بوقاءٍ في الأيام الماطرة أو في الأيام التي تكون الشمس فيها قويّة. والتجّار والباعة يفرشون على ألواحٍ خشبية كبيرة بضائعهم من الأطعمة والمؤن الثريّة بألوانها. كان الفضوليون السُذّج الذين يتجوّلون في الشوارع يتجمهرون في هذا السوق بشكلٍ دائم وكان يسُود ساحة السوق هذه هيجانٌ مستمرّ يجعل الناس ينسون بأنّه على بُعد بضعة أمتارٍ من المكان وخلف جدرانٍ حجرية سميكة، كانت الحياة قد توقّفت ذات يومٍ بالنسبة إلى المئات من السجناء.

على الجانب الأيسر من الساحة، كانت هناك دارٌ كبيرة، تعود من دون شكّ إلى مالكٍ ثريّ. بالوقوف على رؤوس أصابع القدم، كان يمكن للمرء أن يرى زاوية حوض سباحة كانت سيّدة من أصلٍ أوروبي، ذاتُ بشرة بيضاء فاتحة تسبح أحياناً فيه في حالة عُري تام. ولكنها كانت تختفي مباشرة خلف أشجارٍ ضخمة قد زُرِعت من دون أدنى شك للحفاظ على الحياة الحميمية للسكّان وإثارة خيال السجناء.

على الجانب الأيمن، كانت هناك محطّة للقطارات، وكان السجناء يسمعون غالباً صوت الضجيج المعدني لفرامل القطارات على السكك الحديد.

وفي الأمام تماماً، بين السجن والسوق، كانت هناك جادة واسعة والتي تسيرُ فيها المركبات بمختلف أنواعها. عرباتٌ صغيرة تجرّها ثيرانٌ، سيارات حديثة، درّاجات هوائية ذات ثلاث عجلات ولها مقطورة مغطاة، شاحنات محمّلة بالبضائع، حافلات مزدحمة بالناس، مع أناسٍ يتعلّقون بنوافذها أو يتمدّدون على سطحها أو حتى يتجمّعون على مراقيها وسلالمها الصغيرة. كانت هناك دراجات هوائية، الكثير من الدرّاجات الهوائية وعليها شخصان، بل ثلاثة أشخاص، ودرّاجات قديمة جدّاً ذات محرّك والتي كانت إنجلترا قد أعادت بيعها هنا. وكان هناك الكثير من الناسّ المتجمهرين على مدى النظر.

بثراءٍ مدهشٍ في المفردات بالنسبة إلى شخصٍ يعيش في ظروفه، كان السرلانكي يصف كلّ سنتيمترٍ مربّعٍ ممّا يراه عبر القضبان الحديد الغليظة للنافذة. حينما كان وليد يطلبُ منه أن يشرح له معنى كلمةٍ، كان يوقف سردَه ويصبح معلّماً لبضع دقائق.

كان السجين الأفغاني يحفظ كلّ شيء.

كان كلّ يوم يسأله عن السيّدة الأوروبية.

- ألا تسبح الأوروبية اليوم؟

- كلا. لقد مضت عدّة أيام وأنا لا أراها.

- والتاجر الثالث بدءاً من اليمين، الرجل الضخم التي تُشاهَدُ أذناه من هنا، هل باع كلّ مخزونه من حلوى الطُلْمية؟

- نعم. زوجته، التي لها جديلة كبيرة، تعدّ كميات جديدة من الحلوى بالقرب منه مع مقلاةٍ موضوعة على موقد. أتمنى ألا تحرق شعرها!

- أنا أشمّ رائحتها من هنا (حلوى الطُّلْمية وليس الشعر المحروق).

امممم. . . هذه الرائحة تثير الشهية والرغبة في تناول قطعة منها.

ثمّ استنشق الضرير بصخبٍ شديد الرائحة النتنة للبطاطس التي قُدِّمَت له متخيّلاً بأنّها قطعٌ من حلوى الطُّلْمية بتوابل السيّدة ذات الجديلة.

كان الرجلان يمضيان أيامهما بهذه الطريقة. كان وليد قد بدأ يُجيد اللغة السنهالية وكان ديفانامبيا سعيداً بإعادة النظر والحياة إلى عيني رفيقه في السجن.

وبهذه الطريقة، ولد تفاهمٌ كبير بين الرجلين.

كانت الحياة في السجن تسير على إيقاع السرديات الوصفية المتوهّجة والدقيقة للسرلانكي ديفانامبيا. وفي الأيام التي كانت تهطل فيها أمطار غزيرة ويُغطى السوق بأغطية ملوّنة كبيرة تُعيق رؤية الرجل الشاب، أو في الأيام التي كان السوق فيها بكل بساطة معطّلاً، أيام الثلاثاء، كان السجين الضرير يضغط مع ذلك على رفيقه في الزنزانة لكي يصف له المشهد في أدقّ تفاصيله.

ذات يوم، وبينما كان السجين السرلانكي يقف على أطراف أصابع قدميه ويتمسّك بقوّة وحزم بالقضبان الحديد للنافذة، روى لرفيقه وليد الحَدَث الغريب الذي كان يجري في الخارج:

- كان رجلٌ في حدود الأربعين من عمره، له شارب ويرتدي قميصاً أبيض اللون وسروالاً صوفيّ اللون ويستعين بعكازتين يعبُر الجادة (التي تشهد حركة مرورٍ جنونية!) عندما هرعت سيارة حديثة صفراء اللون، شبيهة بسيارات الأجرة في مدينة نيويورك، مسرعة

نحوه. وحينما رأى بأنّ السيارة لا تستطيع التوقّف، قذف الشابّ العاجز عكازتيه وركض حتى بلغ الرصيف المقابل، رصيف السجن، دون أن يترك نفسه عرضة للسحق تحت عجلات السيارة المسرعة. إنّه أمرٌ لا يُصدّق!

هتف وليد الذي كان قد مُنِع من الهتاف باسم الله:

- الإله يسافر في سيارة أجرة! هذه معجزة!

قبض الضرير على ردائه بقبضته اليمنى وحكّ القماش بساقه.

- حسناً، هيا أخبرني الآن. ما الذي يجري!

- أرى الآن تجمهراً من الغوغاء، ولكنّه يبدو أنّه على رصيفنا، أكاد لا أرى شيئاً. الرؤية محجوبة بسبب برج الحراسة. في كلّ الأحوال، هناك بلبلة تحدث في الأسفل.

ردّ الضرير هامساً:

- حسناً، حسناً.

لم يكن هناك أي حدثٍ آخر جديرٍ بالاهتمام في ذلك اليوم.

* * *

الفصل الثالث

كانت النظافة شبه معدومة في السجن وكذلك مستلزمات الصحّة. حتى الماء الذي يسيل من صنبور الحمامات كان له لونٌ غامق ومشوبٌ بالتراب. كانت هناك صراصير في الزنازين والنزلاء يسعلون دائماً طيلة الليل والنهار. تفوح رائحة نتنة من الممرّات والأقسام المشتركة. والمغاسل دائماً مزدحمة وحينما لم تكن

كذلك، كانت خيوطٌ من المياه المصفرّة تسيل من أحواض المغاسل وتنصب على الأرضية المبلّطة المتكسّرة. وبالتالي كان السجناء يتخبّطون بصنادلهم أو حُفاة القدمين وسط فضلاتهم مثل حيواناتٍ محبوسة في أقفاص.

ذات يوم، بينما كان الرجلان يعودان من فناء السجن حيث سُمِح لهما أن يُريحا ويُنعشا سيقانهما لبضع ساعات، انهار ديفانامبيا، الذي كان يسعل سعالاً متواصلاً منذ بضعة أسابيع، بين ذراعي وليد، الذي صُعِقَ لما حدث.

استُدعي الطبيب على عجل. حينما وصل، فحص جسد الشاب السرلانكي وهو لا يزال على الأرض. ثمّ نزع سماعته وحرّك رأسه بحزن وأجلى صبيّان ضخمان الجثّة وهما يسحبانها وسط المياه المصفرّة المتجمّعة في الممرّ.

كان وليد قلقاً للغاية وسأل أحد السجناء عمّا يحدث وعلِمَ بأنّ صديقه قد مات.

(أتساءل الآن إن كان العميان يبكون. سيكون عليّ أن أتحقّق من ذلك. إذا كانت هذه هي الحالة، إذاً سوف يبكي وليد. سوف يبكي كثيراً. وأنا غارقٌ في هذه الأفكار، نبح الكلب لثلاث مرّات لكي أستأنف سرد حكايتي).

إذاً لقد بكى وليد (يجب التحقّق من هذا الأمر).

كان قد سكب كلّ دموع جسده وقلبه في تلك الليلة. وكان صوت شهقاته ونحيبه يُسمَع حتى في بلده، في أفغانستان. كان قد فقد صديقاً، صديقه الوحيد هنا، وقد فقد معه، من جديد، بصره. وسط هذه الظروف، سوف يتحوّل السجن سريعاً إلى جحيم.

* * *

لم يحظَ وليد نجيب بالوقت الكافي لكي يعتاد على وحدته في الزنزانة. بعد بضعة أيام من وفاة صديقه، دُقَّ الباب الخشبي السميك وانفتح على مصراعيه.

قال حارس السجن:

- كنّا نودّ كثيراً لو أننا تركناك لوحدك في هذه الزنزانة، ولكن لم يعُد لدينا متّسعٌ من المكان. أتمنى أن تسير الأمور على ما يُرام.

قال هذه الجملة الأخيرة كما لو أنّه قد عرف شيئاً ما عن الوافد الجديد كان الضرير يجهله، ولكنّه كان من الواضح أنّه أمرٌ غير محمود.

حينما انغلق الباب من جديد، ساد صمتٌ شبيه بالموت المكان. تكلّم الأفغاني أوّلاً، كما لو أنّه أراد أن يطرد الأرواح الشريرة المنبئة بالمصير السيئ. قدّم نفسه دون أن ينسى تذكير الوافد الجديد بأنّه ضرير وبالتالي أنّ على هذا الأخير أن يبذل جهداً لكي يتحدّث إليه.

لم يردّ الوافد الجديد بأيّ شيء على هذه الكلمات.

تقصّف قش إحدى الحشايا المتّسخة كما تتقصّف أوراق الخسّ تحت أسنانٍ حادّة. لا بدّ أنّ الرجل قد استلقى. وسرعان ما نام، لأنّ شخيراً قويّاً، مثل شخير الدببة، ثقب أذني وليد. اعتقد الضرير أنّ رفيقه الجديد في الزنزانة لا بدّ وأن يكون متعباً ولم يزعجه.

بعد بضع ساعات، حينما جاءت وجبة الطعام، استيقظ الرجل من النوم وتناول طبقه من العصيدة. استطاع وليد أن يسمع صوت

مضغه وجشآته المتواصلة كما لو أنّه كان موجوداً في معدته. استغلّ ذلك لكي يتوجّه إليه بالكلام.

- اعذرني إذا تفوّهت قبل قليلٍ بكلامٍ أزعجك أو ضايقك في شيء. أنا أعمى ولا يمكنني أن أرى تعابير وجهك. إذا لم تُخبرني أيّ شيء، أخشى ألا أعرف أبداً مع مَنْ أتقاسم هذه الجدران الحزينة. سوف يمرّ الوقت على نحوٍ أسرع بالتأكيد إذا ما تعارفنا على بعضنا.

في النهاية، ما أقوله أنا...

لم يُجب السجين الآخر عليه.

ظلّ وليد يسمع صوت أسنانه غير المرئية وهي تفتّت العصيدة بصخبٍ شبيه بما تصدرها الأحذية طويلة الساق وهي تخوض في الطين. احتار وليد فنهض وجسّ بيده إلى أن لمس البشرة الدبقة لزميله في الزنزانة. توقّف هذا الأخير عن مضغ الطعام.

صرخ الرجل بلغة سنهالية مشُوبة بمشاكل حقيقية في الإملاء:

- كفّ عن ملامستي، أيّها العجوز الضالّ!

سحب وليد يده على الفور كما لو أنّه وضعها على النار.

- كلا، كلا، لا تُسِئ الظنّ بي! أنا أعمى. أردتُ فقط أن ألفت انتباهك لأنّك منذ أن وصلت إلى هنا، لم تتوجّه إليّ بكلمة كلا...

قاطعه السجين السرلانكي وهو يتلعثم:

- لا تتحمّل مشقّة الكلام، أنا أصمٌّ شديد الصمم.

وقع الخبر مثل سقوط المقصلة على وليد.

كان الوافد الجديد رجلاً ضخماً يبلغ طوله مترين، وذي عضلاتٍ مفتولة وكرشٍ كبير. وكان شاربٌ رفيعٌ يرسم وجهه كما لو

أنه يريد القول «من هذا الفم، لا تخرج ولا كلمة واحدة». ولكن تارغين استطاع، بفضل تمارين عضلية ومفصلية مجهدة، أن يكتسب ملكة الكلام على عكس التشخيص المتشائم لجميع الأطباء الذين فحصوه. وبذلك لم يعُد تارغين أبكماً، بل أصمّاً فقط، وهي الإعاقة التي لم يستطِع أن يفعل أيّ شيءٍ حيالها.

حينما دخل إلى هذه الزنزانة، كان قد لفت انتباهه في الحال غرابة هذا الرجل ذي النظارة الشمسية.

لم يكن لهذا الاكسسوار معنى في مكانٍ تكاد الشمس لا تدخل إليه.

بنظارته السوداء ويديه المتنقلتين، كان للسجين هيئة رجلٍ ضالٍّ بكل معنى الكلمة. لا شكّ أنّه قد تمّ سجنه منذ سنواتٍ عديدة في هذا المكان البَئِس وأنّه محرومٌ من العلاقات الجنسية، في كلّ الأحوال هو زمنٌ كافٍ لكي يغيّر رأيه ولكي يرى في رجلٍ عملاقٍ ذي شارب يبلغ طوله مترين ويزن مائة وثمانين كيلوغراماً وكأنّها فتاة عذراء شهيّة في العشرين من عمرها.

ومن ثمّ أصبح كلّ شيء واضحاً. النظارة السوداء، وتحرّكات الرجل بالتحسّس في الزنزانة والعكازة البيضاء المسندة إلى السرير كانت أدلّة كافية لكي تدلّ تارغين، الذي كان بطيء الفهم بعض الشيء، على أنّ رفيقه في الزنزانة كان ضريراً.

قال وليد في نفسه: أطرشٌ وأعمى في زنزانة واحدة، يا لها من صفقة جميلة!

بينما بدأ الليل بالحلول وبدأ السجناء يسمعون في الممرّات الصخب الشبيه بأصوات الطبلة والأصناج التي تُرافق بإيقاعاتها توزيع وجبات النهار، نهض تارغين من فراشه واقترب من الأعمى

الذي بدا، برأسه المرفوعة نحو السقف وشفتيه المختلجتين، كما لو أنّه يهذي أو يُصلّي.

قال:

- أنا أُدعى تارغين، بكلّ بساطة.

أخيراً، لم يكن الرجل الضخم شخصاً سيئاً.

(إذاً، ما الذي قد يحدث؟ فكرة، فكرة سريعة، نبح الكلب!)

في قليلٍ من الوقت، أصبح الرجلان صديقين لأنّ لكلٍّ منهما شيءٌ يميّزهما عن بقية السجناء ويقرّب كلّ منهما من الآخر. كان الأوّل لا يرى، وكان الثاني لا يسمع شيئاً. وكانا، بطريقة ما، يكمّلان بعضهما. ما لم يكن يراه أحدهما، كان الآخر يصفه له. ما لم يكن يسمعه أحدهما، كان الآخر يكتبه له.

كانت تلك المرّة الأولى التي يرى فيها تارغين رجلاً أعمى يُجيد الكتابة. كان الرجل يلمس بيدٍ أطراف الورق المقوّى لكي لا يخرج عن إطارها أبداً، ويكتب باليد الأخرى بأحرف صغيرة قدر المستطاع. كانت الجُمل تتناثر في كلّ الاتجاهات وتشكّل بذلك مجموعات جميلةً من الكلمات.

تحدّث وليد، الذي كان كلّ يوم يزداد حسرةً وتأسّفاً على خسارته لصديقه ديفانامبيا ويُفكّر فيه بشوقٍ وحنين، تحدّث ذات يوم إلى شريكه الجديد في الزنزانة تارغين عن العريضة الغريبة التي كان قد صاغها ذات صباح لرفيقه السابق في الزنزانة.

كتب بكلماتٍ بعضها خاطئة إملائياً: «صِفْ لي ما تراه من خلال هذه النافذة».

كان عدد كبير من الأسئلة يحرق شفتَي وليد منذ فقدانه لصديقه. لم تكن الصلوات هي ما ينطق بها الرجل خلال هذيانه،

مثلما اعتقد تارغين، وإنما السرد. كان الرجل ينطق بالسرديات الوصفية لصديقه ديفانامبيا والتي كان الضرير لا يزال يحتفظ بها في ذاكرته وكان يرويها على نفسه بنفسه من جديد لكي يتوهّم برؤية ما كان قد وصِف له من قبل صديقه خلال الأشهر الأولى من وجوده معه في هذه الزنزانة نفسها.

هكذا قرأ الرجل الضخم، في ذلك اليوم الربيعي الأوّل، الكلمات التي خربش بها وليد بقلمٍ على قطعةٍ من الورق المقوّى.

وإذا كان الأفغاني يتحدّث اللّغة السنهالية بطلاقة وعلى نحوٍ صحيح، فقد كان على العكس من ذلك لديه الكثير من الأخطاء الإملائية.

- أنت تكتب بطريقة أفضل من بعض الأشخاص الطبيعيين، يا وليد. هناك بعض الأخطاء، ولكن كتابتك مفهومة. بالمقابل، أنا لا أرى جيّداً ما تريده. أخبرني وسوف أتمّم لك رغبتك.

كان تارغين يتحدّث أحياناً مثل بعض الجان الذين يخرجون من المصابيح السحرية في القصص المشرقية. كان الجواب الوحيد للضرير هو أن نقرَ بسبابته على الورق المقوّى كما لو أنّه أراد أن يلحّ على ما كان قد كتبه.

قال الرجل الضخم:

- النافذة تطلّ على جدار. جدار من القرميد. لا شيء آخر يمكن رؤيته.

ظلّ الأعمى جامداً في مكانه للحظة.

ماذا؟

وكأنّ يداً غير مرئية أمسكت به وحوّلته إلى تمثالٍ من الحجر.

ثمّ أخفض رأسه، بهدوءٍ وبطء.

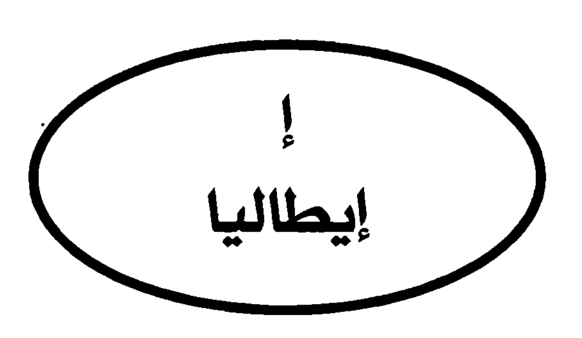
كان العالم ينهار من حوله.

أدرك أنّ شريكه السابق في الزنزانة كان يخترع كلّ شيء من عنده بهدفٍ وحيد وهو أن يُدخل المسرّة إلى قلبه. كانت مبادرة مؤثّرة ونزعة غيرية نزيهة من صديقه. مبادرة حبّ وإخاء وصداقة.

(حسناً، لقد كتبتُ على واجهة القميص وعلى الأكمام وقد أنهيتُ للتوّ الكتابة على الظهر. إذا كنتُ قد أحسنتُ الحساب والتقدير، لم يعُد لديّ المزيد من المكان. مهما يكن من أمر، لم أعد أعرف ما الذي أكتبه. سيكون عليّ أن أعيد النظر في الأسلوب. ولكن، هذا ليس بالأمر السيئ بالنسبة إلى رواية أولى...).

* * *

هذا الافتخار بالقدرة على تحويل أفكاره إلى كلمات، كانت الصعقة الثالثة التي يتلقّاها الفقير الهندي في قلبه منذ بداية هذه المغامرة. كان يدرك بأنّه يحتفظ هنا بحكاية جميلة وأنّ ليس عليه سوى أن ينسخها على الورق لكي تتحوّل إلى كتاب. عزم على أن يكتب كلّ هذا بمجرّد أن يصل إلى وجهته، أيّاً كانت تلك الوجهة. بعد أن يتّصل بماري، بالطبع. كانت الرغبة تشتدّ فيه إلى ذلك.


إ
إيطاليا

ختم آجاتاشاترو حديثه قائلاً بابتسامةٍ خفيفة:

- وبهذه الطريقة وجدتُ نفسي في حقيبتك، يا سيّدتي.

أن يختبئ في قاع حقيبة في برشلونة لكي يظهر في روما كان يبدو ذلك أفضل جولة سحرية حقّقها في حياته بما لا يُقاس. ما كان أستاذ فنّ الوهم هوديني نفسه ليفعل أفضل من هذا.

كانت الفتاة الحسناء ذات العينين الخضراوين والشعر الرمادي الأحمر تتفرّس فيه، حائرة بين المفاجأة، والشكوكية وبين الرغبة في الصراخ. كانت قد أصبحت أفضل حالاً من نوبة الهستيريا التي انتابتها حينما اكتشفته وهي تفتح حقيبة السفر. أخفضَت مصباح السرير الذي كانت قد أمسكت به كسلاح. بكلّ تأكيد كانت الحكاية غريبة وتشيب لها الولدان، ولكن كان هناك شيء من الحقيقة والصدق في نبرة الرجل. ومن ثمّ كيف يمكن لأحدٍ أن يخترع كذبة كبيرة بهذا الحجم؟

- سوف أخرج الآن من هذه الغرفة ولن أزعجك بعد الآن، يا سيّدتي. ولكن قبل ذلك، أودّ أن أطرح عليكِ سؤالاً.

استطاعت أن تتلعثم بلغة إنجليزية لا تشوبها شائبة:

- أنا أصغي إليك.

- أين نحن الآن؟ قد تكون هذه هي المرّة الرابعة التي أطرح فيها هذا السؤال على نفسي خلال يومين. لو تعرفين كم هذا مزعجٌ...

أجابت صوفي مارسو:

- في روما، في فندق باركو داي برينشيبي.

- آه. تقصدين روما في إيطاليا؟

أكّدت صديقة جيمس بوند في فيلم الغد ليس كافياً:

- نعم، نعم. روما في إيطاليا. هل تعرف روما أخرى؟

- كلا.

بدا الرجل مسالماً جدّاً والموقف مضحكاً للغاية بحيث لم تستطع الممثلة أن تمنع نفسها من الإفراج عن ابتسامة.

هي التي اعتقدت في البداية بأنّها قد وقعت في ورطة مع أحد معجبيها غير الأسوياء ارتاحت الآن وهدأت.

نظرت إلى هذا الرجل الهندي، طويل القامة، جافّ العود وأعجر مثل شجرة، في وجهه الكامد شارب كثيف جدّاً مثل أسلاف رجال الشرطة القضائية الفرنسية. كان قميصه الأبيض والمدعوك مغطّى بالعديد من الكتابات الناعمة جدّاً. وكأنّه كفنٌ مطبوعٌ بطلاسم مخطوطة بقلم رصاص.

سألت وهي تشير إلى قميصه:

- ما هذا؟

- هذا؟ هذا قلم رصاص. قلم رصاص من شركة ايكيا. ولكن على نحوٍ أدقّ، إنّها روايتي الأخيرة، أقصد... أريد أن أقول، روايتي الأولى، المكتوبة وسط العتمة.

- وهل لديك عادة أن تكتب رواياتك على قمصانك؟

ردّ آجاتاشاترو بلهجةٍ ساخرة:

- هل كنتِ لتفضّلين أن أفعل ذلك على قمصانك؟

انفجرت صوفي مارسوا ضاحكةً رغماً عنها. ثمّ التفتت نحو حقيبتها الفاغرة والفارغة تماماً.

- أمّا قمصاني، أتصوّر أنّها قد بقيت في برشلونة. أقصد، إن أحسنتُ الفهم، لم يعُد لديّ أي شيء أرتديه.

أخفض آجاتاشاترو رأسه مثل طفلٍ ضُبِط وهو مخطئ. لم يمتلك الشجاعة على أن يقول لها بأنّه قد احتفظ بأحد سراويلها الداخلية في جيب بنطلونه.

قال:

- ولا أنا كذلك.

لم يعد لديه أيّ شيء من البزّة الجميلة والقميص وربطة العنق التي كان قد استأجرها من العجوز دجامال. السترة وربطة العنق فُقدتا باكراً في فرنسا والقميص غُطّي بالصفحات الأولى من الرواية.

قالت صوفي مارسو كاذبة:

- مهما يكن من أمر، لم أكن أحبّ تلك الفساتين.

ثمّ أضافت فرحةً بفكرة الذهاب للسطو على المتاجر:

- ألسنا في بلد غوتشي وفيرزاتشي؟ يجب ألا تكون هناك مشكلة في العثور على شيءٍ ما نرتديه، أليس كذلك؟

قال آجاتاشاترو الذي لم يكن يعرف أبداً أن يجيب عن الأسئلة المطروحة بصيغة النفي:

- أعتقد.

- وعدا هذا، هل لديك خطط من أجل السهرة؟ في أيّ ساعة تنطلق خزانتك الجديدة؟

للمرّة الأولى في حياته، وثق به أحد وصدّقه، هكذا، دون أن يضطرّ لاستخدام حيلة دنيئة، أو خدعة تافهة، وإنما بكلّ بساطة من خلال قول الحقيقة.

كانت «البلدان الجميلة» فعلاً عبارة عن علبة شوكولا مليئة بالمفاجآت. ولم تكن الشرطة دائماً عبارة عن لجنة استقبال. انزوى الحنين إلى بلده دفعة واحدة لبضع ثوانٍ.

هنا كانت الصدمة الرابعة التي يتلقّاها الفقير الهندي في قلبه منذ بداية هذه المغامرة، بل وقد تمّ تقديم المساعدة له. ولكن متى سيكون بوسعه إذاً أن يساعد أحداً بدوره؟

متأثّرة بحكاية الرجل الهندي، عرضت عليه صوفي مارسو أن يقضي السهرة معها. كانت شخصية غريبة جداً، طريفة وصادقة، وسوف تتيح لها أن تنسى خلال وقت العشاء الشخصيات السطحية والهزيلة التي تحضر عرض الأعمال الذي كانت ترتاده منذ أن بدأت تمثّل في الأفلام الأميركية ذات الإنتاج الضخم. فضلاً عن ذلك، لم تصدّق تماماً حكايته وآثرت أن تعتقد بأنّ آجاتاشاترو كان كاتباً سياسياً مطلوباً في بلده ولذلك اضطرّ أن يسافر بطريقة سرية وغير مشروعة لكي يصل إلى أوروبا ويطلب اللجوء فيها. كان هذا الاحتمال أكثر إثارةً.

كان الفندق الذي ستُقيم فيه الممثّلة خلال الأيام التالية، بمناسبة مهرجان السينما اللاتينية، يقع على مرتفعات العاصمة الإيطالية، تماماً خلف حدائق **فيلا** بورغيزي الرائعة، التي تُعتَبر الرئة التي تتنفّس منها المدينة.

ولأنّ الإقامة في **باركو داي برينشيبي غراند هوتيل أند سبا** كانت غالية جدّاً بالنسبة إلى آجاتاشاترو لافاش، والذي نجحت في أن تلفظ اسمه لفظاً سليماً، فقد دعته إلى النوم في الغرفة المجاورة، الغرفة رقم 605، الذي كان وكيل أعمالها قد حجزها، مع ما يُقارب

عشر غرف أخرى في الطابق نفسه، لكي لا يتمّ إزعاج النجمة السينمائية من قبل الفضوليين.

كان هذا يستحقّ فعلاً عناء السفر في حقيبة إذا كان سيُمنَح للمرء في أعقاب ذلك النوم لليلة واحدة في غرفة أحد أكثر فنادق روما أبّهة وبذخاً، في حجرة بالقرب من المرأة الأكثر جمالاً في العالم. ومع ذلك أحسّ الفقير الهندي بأنّه مذنبٌ بعض الشيء. في تلك الساعة نفسها، لا بدّ أن فيراج وأصدقائه لم يكونوا محظوظين مثله. تخيّلهم وهم جالسون في قاع مقطورة شاحنة للبضائع وهي تعبُر الحدود الفرنسية - الإسبانية، وهم يتناولون أطعمة المعلبات بانتظار أن يتمّ توقيفهم من جديد من قبل الشرطة.

على الرغم من أنّ الفقير الهندي لم يكُن يعلم ما الذي سيحدث له خلال الدقائق العشر القادمة، إلاّ أنّه كان سعيداً بوجوده في هذا المكان. في هذه الساعة بالضبط، كان من المفترض أن يكون على متن الطائرة في طريق العودة إلى بلاده. والأغرب من ذلك، إنّه لم يكن مشتاقاً إلى ذلك. على الأقلّ في هذه اللحظة، في هذا المكان، لأنّ الضغط كان قد خفّ عليه بعض الشيء. قال في نفسه بأنّه قد قام برحلة رائعة وبأنّه قد التقى مع أشخاصٍ رائعين. كان عليه أن يستفيد من هذا الفرح العارم، لأنّه بعد لحظات سوف يجد نفسه بالتأكيد وهو يتقلّب في سريره وحيداً، نهباً لأشدّ درجات الإحباط، إحباط الأشخاص المنفيين وغير المستقرين، إحباط المقيمين الذين يجدون أنفسهم وقد هبطوا بعيداً عن وطنهم، الذين يتألمون لبلدهم ويشتاقون إليه والذين لم يعُد لديهم أيّ غصنٍ يتعلّقون به.

فكّر في ابن عمّته، البعيد جدّاً. ربّما أحبّ كثيراً أن يتقاسم كلّ هذه اللحظات المثيرة معه، ولكنّ لو كان معه، ربّما ما كان لأيّ

شيءٍ من كلّ هذا أن يحدث له. ومن ثمّ، لم تكن حقيبة فويتون لتسعهما معاً على الإطلاق. لا بأس، سوف يروي له كلّ ما حصل معه لدى عودته، إذا ما عاد ذات يوم. فقط لو استطاع أن يُعلِم أسرته بما حدث معه من تطوّرات أوّلاً بأوّل. لقد رأى في أوروبا، خلال يومين فقط، أشياء لم يرها قط خلال ثمانية وثلاثين عاماً من حياته والتي ما كان ليراها بالتأكيد لو لم يقرّر ذات يوم أن يختبئ في خزانة في متجرٍ كبير. وهذا مفاده أنّ الحياة تتعلّق بأمرٍ زهيد وأنّ الأماكن الأكثر تفاهةً تكون أحياناً بداية لمغامراتٍ مثيرة.

ما أن أصبح في غرفته الباذخة، قفز آجاتاشاترو على سريره الواسع لكي يختبر الراحة فيه. قال في نفسه إنّ الحياة البوهيمية وحياة الشعوذة قد انتهت، لديّ الآن طموحات أخرى. من بينها، ومن دون ترتيب، أن أساعد أحداً وأن أنشر كتابي وأن ألتقي مع ماري.

راضياً عن الحشية ومرتاحاً فيها، نهض وذهب إلى صالة الاستحمام. كان في الحمّام حوضُ استحمامٍ أبيض اللون ذي قوائم وذي صنابير ذهبية اللون. اعتقد الفقير الهندي أنّ حمّاماً ساخناً وممتعاً قد يكون بمثابة وسيلة صحيحة بما فيه الكفاية لبدء حياة جديدة. سيكون ذلك شبيهاً إلى حدٍّ ما كما لو أنّه يغتسل من كلّ ذنوبه.

حينما خرج من الحمام، بعد ساعةٍ من ذلك، وهو يرتدي مئزر حمام ناعم الملمس ناصع البياض. وجد ثياباً نظيفة مطوية بعناية وترتيب على سريره. قميصٌ جميل كستنائيّ اللون وبنطلونٌ صوفي اللون، جوارب خام بيضاء اللون وحذاء سكّري اللون. كان هنالك من تلوينات اللون الصوفي أكثر مما هو موجود على مبسط شركة

بانتون(*) للألوان. كانت قصاصة ورق معنونة، موضوعة على طاولة السرير، تُخبره في كتابة أنثوية جميلة: أنا أنتظرك بعد ساعة من الآن في بهو الفندق. سارع إلى قياس الطقم. كان كلّ شيء يناسب قياسه تماماً، كما لو أنّه مفصّل ومخيّط على مقاسه. لم يكن خبيراً كبيراً، ولكن الأكمام لم تكن قصيرة تماماً ولا طويلة للغاية وكان البنطلون ينزل تماماً على حذائه.

نظر آجاتاشاترو إلى نفسه في المرآة المدخّنة الكبيرة الموجودة في الغرفة. لم يتعرّف على نفسه. كان منظره جميلاً. هذه المرّة، كان حقّاً يشبه ثرياً صناعياً هندياً. يا لها من أناقة فائقة. كان يصعب عليه التصوّر بأنّه هو نفسه مَن يظهر في هذه المرآة. وجد نفسه وسيماً وجميلاً. لو كانت لديه آلة تصوير، لالتقط لنفسه صورةً وأرسلها على الفور إلى ماري. ولكنّه لم يكن يتوفّر لا على آلة التصوير ولا على عنوانها. ثمّ إنّ هذه الثياب الأنيقة لم تكن سوى مجرّد واجهة ومظهر. لم يكن يمتلك كلّ ما يرافقها ويناسبها من ساعة اليد والحاسوب والهاتف المحمول والسيارة والمنزل والحساب المصرفي في سويسرا. لماذا كانت صوفي سخيّة معه إلى هذه الدرجة؟ إنّه رجلٌ مجهول. لم تكن لديه الفرصة بعد لكي يساعد أحداً ولكنّه كان يتساءل في نفسه تُرى أيّ وجهٍ سوف يكون لأوّل شخصٍ سوف يقدّم له يد العون والمساعدة!

في تلك اللحظة، لم يكن يرى أيّ شيء سوى وجهه هو. تقدّم

(*) بانتون: شركة تُعرَف باسم «نظام المضاهاة بانتون»، وهي المالكة للفضاء اللوني المستخدم في الصناعات المختلفة، وأهمها الطباعة، وأحياناً في صناعة الطلاء الملون، والنسيج واللدائن. - المترجم -

خطوةً إلى الأمام نحو المرآة. كان هناك شيءٌ ما ينقص هذه اللوحة المثالية حتى يكون التحوّل كاملاً. أو بالأحرى، كان هناك شيءٌ ما زائد عن اللزوم.

للمرّة الأولى في حياته، نزع الفقير الهندي قرط شفتيه اللحيمتين وحلق شاربه، بطريقة أكثر لطفاً ورقّة ممّا قد يُفعَل به يوم إدانته والحكم عليه. قد تكون هذه آخر جولة له من التحوّل والاختفاء. كان الفقير الهندي يتلاشى تماماً وسط بخار صالة الاستحمام وكان كاتبٌ يولَد في اللحظة نفسها.

خلال النصف ساعة المتبقية قبل أن يحتفل بموعده، قرّر آجاتاشاترو أن يتّصل هاتفياً مع ماري، كما كان قد عزم على ذلك إذا ما نجا من رحلته في عنبر الطائرة. تحسّر على عدم امتلاكه هاتفاً محمولاً، مثل ابن عمّته جامليِنداناب. كانت الرواية الرسمية هي أنّ شخصاً متخاطراً لا يرَ حاجةً إلى هاتف، في حين كانت الرواية شبه الرسمية هي أنّه لم يكن يملك ما يكفي من المال لشراء هاتف، أمّا الرواية الحقيقية والتي لا يمكن الاعتراف بها فهي أنّه لم يكن لديه أحد ليتّصل به بالهاتف. وبالتالي، اكتفى بالهاتف الثابت لوالدته بالتبنّي.

فاتّصل مع مكتب الاستقبال في الفندق وطلب أن يوصلوه بالرقم الذي كانت السيّدة الفرنسية قد كتبته له على غلاف مضغةٍ.

بينما كان الهاتف يرنّ، بدأ قلب الفقير الهندي يدقّ بإيقاع قطعة تكنولوجية في صدره. ما الذي سوف يقوله لها؟ هل لا تزال تتذكّره؟ هل كانت تنتظره؟

ظلّت هذه الأسئلة من دون جواب لأنّه لم يرفع أحد السماعة.

شعر الفقير الهندي بالإحباط والارتياح في آنٍ واحد، فوضع السماعة وقد شابت مسحة من الحزن عينيه اللتين بلون الكوكا كولا. كان

يرغب في أن يلتقي بماري من جديد. الآن، أصبح متأكّداً من هذه الرغبة. ما الذي دهاه حتى رفض مبادراتها نحوه؟ لم يشأ أن يرتبط بها حتى لا يعرّض مهمّته للخطر. ولكن أيّ مهمّة في نهاية المطاف؟ مهمّة شراء سرير ذي مسامير والذي لن يلزمه في أيّ شيء بعد الآن، وقد أصبح روائياً؟ ربّما، عدا عن جعله رفوفاً بعد أن يتمّ تفكيكه. خمسة عشر ألفاً من المسامير، كان ذلك ينبئ بساعات كاملة من الهزل والعمل التافه! مهما يكن من أمر، لم يشترِ ذلك السرير ذي المسامير عديم الجدوى. هذا أفضل.

يا لها من حماقة! فكّر من جديد في اليد الشبيهة بيد دمية من البورسلين حينما حطّت بلطف على يده. وكان قد أبعدها عن يده. لن تأتيه على الإطلاق فرصة مثل هذه التي أضاعها.

بخطى وئيدة، راح يبحث عن قميصه القديم، الذي كان قد وضعه بحذرٍ على حافة حوض الاستحمام قبل أن يدخل إلى الحمّام، وجلس إلى المكتب.

أمسك بقلمٍ مطبوعٍ بشعار الفندق وبورقةٍ كبيرة وبدأ ينسخ بدقّة متناهية ما كان قد كتبه على قميصه حينما كان في عنبر الطائرة. واجه بعض الصعوبة في إعادة قراءة ما كان قد كتبه. لم يكن من المألوف بالنسبة إليه أن يكتب في العتمة. وعلى غرار شخصيته العمياء، استخدم إصبعاً كدليلٍ لرصاص القلم لكي لا يكتب في الفراغ. كانت الأحرف ناعمة جدّاً وكانت بعض الكلمات قد انمحت في بعض الأماكن، وقد تحوّلت روايته بذلك إلى نصّ ضخم ذي فجوات. ولكن بما أنّه كان هو كاتبها، فلم يعاني كثيراً في استعادة بعض كلماتها وابتكار كلمات أخرى.

تساءل في نفسه عمّا حلّ بمستمعه الأوّل، الكلب الذي كان معه

في عنبر الأمتعة. ولأنّه عاد إلى مخبئه حينما كانت الطائرة تحطّ في المطار، لم يرَ آجاتاشاترو أبداً رأساً، أقصد خطم أليفه في الرحلة. لا شكّ أنّه لم يخطر ببال الحيوان بأنّه كان يشاهد هنا اللحظات الأخيرة لآجاتاشاترو الفقير واللحظات الأولى لآجاتاشاترو الكاتب.

لقد كان شاهداً على أكبر عملية تحوّل بشرية، وهو يتابع الأمر من كثب في عنبر طائرةٍ.

رفع الرجل الراجستاني نظره نحو النافذة. في الخارج، كانت الشمس تتوارى خلف أشجار الحديقة. كان الوقت قد مرّ سريعاً جدّاً. وضع قلمه ونهض بخفّة ورشاقة. سوف يُكمل كتابة النصّ فيما بعد. لم يشأ أن يتأخّر عن أوّل موعدٍ غراميٍّ له.

لم يكن على غوستاف بالورد سوى أن يرى الثياب الفاخرة المرمية على الأرض، قرب السجاد المتحرّك، حتى يُدرك أنّ الرجل الذي كان يبحث عنه قد أفرغ حقيبة سفرٍ من محتوياتها لكي يختبئ في داخلها. في تلك الساعة من الوقت، لا بدّ أنّ الرجل الهندوسي كان موجوداً في مكانٍ ما على مدرج الطيران، جاهزاً للإقلاع والطيران في عنبر طائرة تنطلق باتجاه إيطاليا.

كان يمكن للغجري أن يقول للغجري الآخر، توم كروز - خيسوس كورتيس بلا - بلا - بلا، ويقوده إلى الطائرة. وأن يفتّش هناك عنابر الطائرة وأن يخترق بسكينه ذات المقبض العاجي كلّ الحقائب التي يمكن لها أن تحتوي الجسد الطويل القامة، الجافّ العود والأعجر مثل شجرة لعدوه اللدود.

ولكنّه لم يفعل أيّ شيءٍ من هذا القبيل. كانت لديه فكرة أفضل من ذلك بكثير. لم تكن العنابر جميعها مزوّدة بتكييف الضغط والتدفئة، وهذا الأمر يتعلّق بطراز الطائرة. وبالتالي هناك فرصٌ قوية لأن يتحوّل الرجل الهندي، خلال رحلة الطيران، إلى قطعة صغيرة وجميلة من الجليد. أكّد له حمّال الأمتعة أنّه على ارتفاع ستّة وثلاثين قدماً (أي ما يعادل تقريباً أحد عشر ألف كيلومتر)، وهو

ارتفاع الطائرة في رحلة جوية تجارية، تصل درجة الحرارة إلى 56,5 درجة تحت الصفر. ولأسبابٍ اقتصادية، لا تتمّ تدفئة كلّ العنابر، وهذا هو ما يفسّر أنّ الحقائب تكون غالباً باردة حينما نأخذها من على السجاد المتحرّك الخاصّ بنقل أمتعة المسافرين.

إذا لم يكن الضغط في العنبر مكيّفاً، سيكون الأمر أسوأ بكثير. قد ينفجر رأس اللصّ ويتحوّل إلى قطعٍ في عمامته ما أن تُقلع الطائرة وتصعد في الجو.

بيد أنّ غوستاف كان رجلاً متبصّراً ومحترساً. ومع احتمال أن ينجو لصّه (لقد عُثِرَ على الكثير من المهاجرين السرّيين الأفارقة والأميركيين الجنوبيين، المصمّمين على السفر مختفين في عجلات هبوط طائرة، وقد تجمّدوا برداً ولكنّهم ظلّوا على قيد الحياة)، سوف يعدّ له لجنة صغيرة ولطيفة لاستقباله في روما. كان ابن عمّه جينو، المزيّن المحترف، يعيش في العاصمة الإيطالية منذ سنواتٍ خلت.

ولكن كان عليه قبل كلّ شيء أن يعرف إلى أين ستذهب بالضبط الحقيبة التي اختارها الرجل الهندي لتكون ملاذاً ومخبأً له، لأنّ روما عبارة عن ملعبٍ واسعٍ للعب. ولهذا الغرض، اعتقد أنّه من النباهة والفطنة أن تُناط مهمة هذا البحث والتحقيق إلى حليفٍ ممتاز، إلى زوجته. في الواقع، ومثلما أشار حمّال الأمتعة الإسباني الشابّ بوضوح إلى ذلك حينما اكتشف الثياب المرمية بجانب السجّاد المتحرّك، فإنّ هذه الثياب التي تمّ لمّها كانت تبدو أنّها تخصّ شخصيّة ثرية أو شخصيّة هامّة، أو ثريّة وهامّة معاً. والحال أنّ زوجة غوستاف، كقارئة نبيهة ومواظبة للمجلات الاجتماعية، كانت تعرف جميع الشخصيات الثرية أو الهامّة أو الثريّة والهامّة في آن واحد على الكرة الأرضية. وفي وقتٍ قليلٍ للغاية في لغة الصمّ والبكم، سوف

تقوده نحو مالك هذه الثياب مثلما يقود بندول تريفون تورنيسول المغامر تان تان إلى كرات الكريستال السبع.

كان سائق سيارة الأجرة راضياً بما حصل عليه لقاء نقوده حينما حمل إلى مرسيدس - شايانا، التي كانت تجلس مع ابنتهما على رصيف بارٍ في بهو المطار، بعض العيّنات من كومة ثيابٍ كان قد عثر عليها.

صرخت زوجته وهي تدقّق في ثوبٍ أسود مرصّعٍ بالألماس:

- يا أمّ يسوع! إن لم يكن هذا ثوب صوفي مارسو!

لقد تعرّفت الزوجة على ثوب السهرة المقوّر والذي كانت الممثّلة الشهيرة قد ارتدته خلال انتظارها الطويل للسير على السجادة الحمراء في مهرجان كان في شهر مايو المنصرم.

أخذت قياسات الثوب باستخدام إبهامها ثمّ أمسكت به بيديها ومدّته أمامها مثل خيّاطة محترفة تقوم بتفحص عملها الأخير. قد يكون التفصيل مناسباً، نعم. وبعد أن شرح لها زوجها أين عثر على هذه الثياب الخرافية، نظرت إليه بهيئة واثقة وراضية وأعلنت بأنّ هناك حظوظاً كبيرة بأن تكون هذه الثياب للنجمة، مراهنة على حياة ابنتها التي كانت تغازل في تلك اللحظة الفتى حمّال الأمتعة.

- هذه الثياب هي ثياب صوفي مارسو، أراهنك على حياة ابنتي التي تغازل حمّال الأمتعة!

هسسسسسسسس...!

وهي تصفّر، كنست الهواء بضربة قويّة من يدها كما لو أنّها تُخيف الذباب أو الفتيات اللائي يتغزّلن بالرجال أمام أمهّاتهنّ.

قال غوستاف وهو يداعب سلاميات أصابعه الغليظة المليئة بالخواتم الذهبية:

- حسناً، حسناً. الآن، توم كروز - خيسوس، حان دورك في اللعب.

قال الإسباني الذي سمع اسمه بشرود:

- عفواً؟

وبما أنّه يعمل في قطاع الطيران، لا بدّ أنّه لم يكن من الصعب جدّاً على الرجل الشاب أن يتأكّد فيما إذا كانت الممثّلة الفرنسية ضمن قائمة المسافرين على الرحلة المتوجّهة إلى روما - فيوميتشينو. وإذا كان هذا صحيحاً، فلن يكون من الصعب عليه كذلك أن يكتشف خدمة سيارات الأجرة الخاصّة بالشخصيات المهمّة جدّاً التي سوف تحجزها لها وكالته عند وصولها. وبالتالي سوف يعرف أين تنزل النجمة وسوف تنتهي مهمّته عند هذا الحدّ.

سأل غوستاف وهو يفصل يد النبيل الإسباني الوسيم عن يد ابنته:

- هل فهمت كلّ شيء؟

ثمّ أضاف وهو يشير بإيماءة من رأسه إلى ميراندا - جيسيكا:

- إذا جلبت لي كلّ هذه المعلومات، سوف تنال مني مكافأةً.

أجاب الفتى مبتهجاً ومندفعاً:

- أعتقد أنّ هذا لن يكون مشكلة بالنسبة إليّ.

- حسناً، حسناً. ما أن تعرف المزيد من المعلومات، تعال لتناول العشاء معنا في البيت. لدينا شقة صيادين صغيرة في حي برشلونيتا وسط مدينة برشلونة.

وهو يقول هذا، أخذ الغجري الورقة التي توضع تحت كوب البيرة من زوجته وكتب عليها عنواناً.

- إلى اللقاء.

نهضت الزوجة وابنتها وأخذ غوستاف مثلّجته.

سألت مرسيدس - شايانا زوجها وهي تشير إلى كومة الثياب:

- هل يمكنني الاحتفاظ بكلّ هذا، يا غوس؟

أجاب سائق سيارة الأجرة وهو يتخيّل زوجته وقد ارتدت الثياب الداخلية الرقيقة للممثّلة الحسناء صوفي مارسو:

- هذه هدية لكِ، يا جميلتي.

- أنت حبيب، يا عزيزي غوس. سوف ترى زوجتك الجميلة...

ارتدت أحد الأثواب، كان شبيهاً بثوبٍ رومانيّ فضفاض وردي اللون، ومن تحته مئزرها المزهّر. المهمّ أنّه كان متناسقاً مع لون سروالها وصندلها. فكّرت وهي تقول في نفسها: يا لها من امرأة راقية!

كانت مرسيدس - شايانا تتبختر على الشاطئ، وهي تمرّر قدميها في الرمل بأثوابها الجديدة.

أمّا ابنتها، فقد كانت تفكّر بطريقة لكي تسرق منها الأثواب المتناسقة المثيرة لكي تسلب لبّ الفتى الإسباني الوسيم حمّال الأمتعة. وقد نست سريعاً كيفن - خيسوس.

أمّا زوجها، فكان يتخيّل نفسه وهو يخرق جسد الرجل الهندي بسكّينه مثل عجينة تارت التي لا يريد المرء أن يراها وهي تنتفخ.

أمّا توم كروز - خيسوس، فكان يقول في نفسه بأنّ لديه مصلحة في أن يحقّق المجد لاسمه الأوّل في هذه **المهمّة المستحيلة** إذا كان يريد «كسب» الحسناء الشقراء.

لم تلقَ صوفي مارسو عناءً في سبيل العثور على ثوب سهرة جديدة. هي الأخرى استعدّت للذهاب إلى الموعد.

كانت تنتظر في بهو الفندق، وهي ترتدي ثوباً رماديَ اللون، وكان إكليلاً رزيناً مرصّعاً بالألماس في شعرها الرمادي الأحمر.

رفع آجاتاشاترو، الذي اعتاد سريعاً على أبّهة الفندق الكبير والذي كان منشغلاً بفكّ طلاسم صحيفة إيطالية، رفع عينيه اللتين بلون الكوكا كولا نحو المرأة الشابّة. كانتا تفوران مثل الصودا حينما نسكبه في كوبٍ زجاجي.

- أنتِ متألّقة!

- شكراً. وأنت أيضاً لا بأس بك هكذا. تبدو أكثر شباباً من دون شارب. بالمقابل، كان عليك أن تغسل عمامتك، إنّها متّسخة بعض الشيء.

قال الفقير الهندي بهيئة متأنّقٍ إنجليزي:

- أنا لا أنزع عمامتي أبداً، حتى أمام سيّدة.

ولكنّه فكّر بأنّه قد يضطرّ إلى غسلها قبل اللقاء بماري ذات يوم. ما أدراكم، ربّما كانت الفرنسيّات يفكّرن بالطريقة نفسها وهو لا يريد

أن يُعطي انطباعاً سيّئاً للمرأة التي تجعل قلبه يدقّ مثل موسيقى تصويرية لفيلمٍ من أفلام البوليوود.

في تلك اللحظة، دخل إلى بهو الفندق رجلٌ أوروبي بدينٌ بعض الشيء، يرتدي ثياباً فضفاضة من الكتّان الأبيض تمنحه مظهراً غير مألوف، شيءٌ ما بين شيخ روحي لطائفة وسائق سيارة إسعاف، دخل إلى بهو الفندق وتقدّم نحو صوفي مارسو.

قال لها الرجل بلغة لم يفهمها الراجستاني ولكنّه استطاع مع ذلك أن يعرف بأنّها اللغة الفرنسية:

- هيّا، يا صوفي، سوف نصل متأخرين.

- هيرفيه، أقدّم لك صديقي آجاتاشاترو لافاش.

ثمّ التفتت إلى الهندي وقالت باللغة الإنجليزية:

- آجاتاشاترو، دعني أقدّم لك هيرفيه، مدير أعمالي.

انحنى الرجل الهندي إلى الأمام ثمّ صافح الوافد الجديد. كانت يده ضخمة ورطبة وطريّة.

ردّد الرجل الفرنسي البدين وهو يتساءل في نفسه أيّ أبوين خسيسين استطاعا أن يمنحا اسماً مثل هذا لطفلهما:

- لا - شات - آ - ترو - لا - فاش؟ سررتُ بلقائك!

ثمّ أخذ مُهرته الشابّة من ذراعها وقادها نحو مخرج الفندق دون أن يُبدي اهتماماً كبيراً بالرجل.

صرخت الممثّلة وقد تبيّن لها أن وكيل أعمالها لم يدرج الهندي ضمن خططه:

- آجاتاشاترو، تعال معنا!

- صوفي، هذه وجبة دسمة. يجب علينا نحن أن نعثر له على دورٍ في الفيلم القادم بيكاسيني.

صحّحت صوفي مارسو:

- بالتأكيد تريد بكلمة «نحن» أن تقول «أنا».

لو كانت عيناها مشعاعين، لذابت كيلوغرامات شحوم الوكيل الفرنسي في الحال أسرع مما لو استخدم نظام وايت واتشرز(*).

الرجل الهندي، الذي كانت معرفته الوحيدة باللغة الفرنسية تنحصر ببعض الكلمات التي اعتاد أن يسمعها من التلفزيون الهندي بمناسبة أعياد الميلاد، أي من قبيل **عطر للرجال**، **عطر للنساء**، أو أيضاً **العطر الجديد من كريستيان ديور**، لم يكن على الرجل الهندي أن يُخرجَ قاموساً لكي يفهم محتوى المجادلة القصيرة بين حاميته ووكيل أعمالها.

تضايق فلحق بهما وقال باللغة الإنجليزية:

- لا تقلقا بشأني، سوف أبقى في الفندق هذا المساء. فأنا منهك. لقد أضناني السفر داخل الحقيبة. ثمّ إنني لم أنم الليلة الماضية.

لم يفهم هيرفيه، الذي كان يتحدّث قليلاً بلغة شكسبير، لم يفهم كثيراً ما كان يقصده الرجل بالسفر داخل الحقيبة، بالتأكيد هو تعبيرٌ إنجليزي ولكنّ هذا الأمر لا يعنيه في شيء، سيما وأنّه صادرٌ من رجل يُدعى لا - شات - آ - ترو - لا - فاش. نحى بصوفي جانباً وسألها مَن يكون هذا الهندي ومن أين خرج. رداً على السؤال الأوّل، أجابت الممثّلة بأنّ صديقها راجستاني وبأنّه كاتبٌ عبقري مضطهدٌ في بلده. وردّاً على السؤال الثاني، أجابت بأنّه قد خرج من حقيبتها الفويتون.

(*) وايت واتشرز (Weight Watchers): شركة عالمية تأسّست في عام 1963، وهي تقترح نظاماً غذائياً مخصّصاً لفقدان الوزن. - المترجم -

حينذاك، اضطرّ وكيل الأعمال أن يقبل بأن يرافقهما الصديق الجديد لصوفي. فإمّا يرافقهما أو يراها وهي تعود إلى غرفتها في الفندق ويخسرا بهذه الطريقة العقد الذي لا يمكن مقاومته، والذي كان سيُعرَض عليهما. كان يعلم بحكم تجربته بأنّه من العبث معاندة النجمات غريبات الأطوار.

هكذا، نحو الساعة الثامنة والنصف مساءً، نزلوا من سيارة أجرة أمام عمارةٍ مهيبة تغزوها عريشة لبلابٍ كبيرة زاحفة والآلاف من الأزهار وقد عُلّقت عليها لوحة كبيرة باللونين الأبيض والأحمر، كُتب عليها **تو غوندوليير**. كان مطعماً إيطالياً، ولكن أيّ مطعم لم يكن كذلك في إيطاليا؟

نطق هيرفيه باسم إيميلي جولي لرئيس الندّل، فهزّ هذا الأخير رأسه احتراماً كما لو كان الأمر يتعلّق برمزٍ سريّ وحدهم المطّلعون على السرّ، يمكنهم معرفته وقادهم إلى طاولة جميلة في مؤخرة الصالة، في زاوية مخفية.

بعد خمس دقائق، وصل شخصان غريبا الأطوار إلى طاولتهم. فهم آجاتاشاترو بأنّ الأطول قامةً منهما كان يُدعى ميك جاغر - لوكولتر، وكان شبيهاً بعازف موسيقى الروك أند رول تملأ معصميه ساعات. والآخر، الذي بدا وكأنّه وكيل أعماله، كان قصير القامة وبديناً له يدان رطبتان وطريتان ويحمل اسم ستيف. نظر آجاتاشاترو على التوالي إلى هيرفيه والقادم الجديد متسائلاً إذا ما كان كلّ مدراء النجوم مصنوعين في القالب نفسه.

قال عازف موسيقى الروك أند رول وهو يمسك بيد الممثّلة ويطبع عليها قبلة رقيقة:

- صوفي، هذا شرفٌ لي أن ألتقي بكِ.

لم تكن لياقته الرفيعة تتناسب في شيء مع شخصيته. كان يرتدي بنطلون جينز ذي ثقوب ويضع أقراطاً في أماكن مختلفة من جسمه وكان شعره مصبوغاً باللون الأحمر، ويرتدي سترة خضراء ناحلة اللون. كان في هيئة تقع بين فقير ومهرّج.

حينما التفت نحو الرجل الهندي، قدّمته الممثّلة الفرنسية على أنّه صديقٌ جديد.

قال المخرج السينمائي غريب الأطوار:

- رائع، وكيف التقيتما؟

- حسناً، لقد وجدته في حقيبة سفري، بكلّ بساطة.

ضحك جميع الحاضرين.

- أظنّ أنّك لم تولد في حقيبة سفر، يا سيّد شا - آ - تروك...

- أنا قادمٌ من راجستان.

هبّت نفحة اعجابٍ من حول الطاولة.

سأل وكيل أعمال ميك جاغر - لوكولتر:

- حقّاً هذا مثيرٌ للاهتمام. وما هي مهنتك في الحياة؟

حاول آجاتاشاترو أن يلفظ كلمة فقير، كما اعتاد على ذلك، ولكن تلك لم تعُد مهنته في الحياة من الآن فصاعداً.

- أنا كاتب.

أضافت صوفي مارسو:

- وآجاتاشاترو ليس كاتباً ككلّ الكتّاب. إنّه يكتب رواياته على قمصانه.

قال المخرج السينمائي الذي كان يحبّ الأشخاص غريبي الأطوار مثله:

- أوه، حقّاً؟ يا له من ابتكار! وهل نُشِرَت قمصانك؟

ابتسم الهندي.

- بصراحة، لقد بدأتُ بالكاد.

- إنّه لأمرٌ مدهش! فلنرفع كؤوسنا نخب هذه المهنة العظيمة التي تنفتح أمامك.

رفع الجميع كؤوسهم المترعة بالشامبانيا.

رفع آجاتاشاترو كأسه المليئة بالماء.

- وهل لديك ناشر؟

- هأ، هأ... كلا.

اقترحت صوفي وهي ترمش بعينيها كي تُفتِن وكيل أعمالها:

- ربّما يمكننا ترتيب هذا الأمر، أليس كذلك يا هيرفيه؟

في البداية كان الرجل متحفّظاً على الفكرة، وفكّر للحظة قبل أن يسلّم أخيراً بطلب مهرته، كما هي العادة دائماً.

- حسناً، حسناً، أنا أعرف شخصاً في دار نشر غرابوج. سلّمني مخطوطتك غداً صباحاً وسوف أوصلها إليه.

صرخت صوفي وهي تثب في كرسيّها مثل فتاة صغيرة حصلت على ما تريده:

- رائع!

مرّ ما تبقى من وقت عشاء العمل من دون حدثٍ يُذكَر، سوى توقيع العقد المهمّ. تمّ تقديم حلوى البروفيترول بالشوكولا للبعض، والتيراميسو للبعض الآخر، وجدّد البعض طلب الشامبانيا، وجدّد الكاتب المُكتَشَف طلب الماء. باختصار، بهذه الطريقة وضع آجاتاشاترو لافاش باتيل، الذي يُطلق عليه معشر الفانين اسم «لا فاش - La vache - البقرة» الفقير الذي تحوّل إلى كاتب، قدمه على أول

طريق حياته الاجتماعية الجديدة وأصبح شاهداً على توقيع أحد أضخم العقود السينمائية في التاريخ. ولأنّ المرء لا يتغيّر بسهولة ولأنّه من الصعب دائماً أن يمحي في بضع ثوانٍ حياةً أمضاها في القيام بالخدع والحيل، في فترة ما بين الحلوى والقهوة، لم يُقاوم صاحبنا إغراء ثني ملعقة بنظرة مجرّدة وغرز نكّاشة أسنانٍ في عينه تحت أنظار الضيف النصف هلعة والنصف لاهية.

متكوّراً على نفسه بين شراشفه الفاخرة الناصعة البياض، كان آجاتاشاترو يبكي الآن مثل طفل. كان هذا هو ما أصابه، الاكتئاب الذي كان يخشاه كثيراً. كان لا بدّ لذلك أن ينفجر ذات يوم. لقد تورّط في رحلةٍ غامضة لم يعُد يرى لها نهاية، بعيداً عن بلده وعن أهله وعلاوة على ذلك، يلحَق به قاتلٌ حاقد أينما حلّ ويظهر له كلّما تبدأ مشاكله بالحلّ ويتّخذ الوضع وجهاً حسناً.

كان كلّ هذا العبء ضغطاً كبيراً للغاية بالنسبة إلى فقيرٍ واحد. رفع نظره نحو السقف. كان شعاع من الضوء ينسلّ من فوق الستارة ويُنير الجدار المقابل الذي كانت لوحة لخيسوس كابيلا ذات إطارٍ ذهبي معلّقة عليه. كانت اللوحة تمثّل منظراً ريفياً. يظهر فيها فلاحان، يرتديان زيّاً شبيهاً بزيّ القرن الماضي، يبدوان وكأنّهما يستغرقان في التأمّل أمام حزمةٍ من العشب المجفّف.

حسد الهندي هدوء الرجلين. كانت رفقتهما باعثة على الارتياح. على الرغم من المفارقة التاريخية، أحبّ كثيراً لو أنّه وقف إلى جانبهما، جامداً وصامتاً. يستغرق في النظر إلى تلك الحزمة من العشب المجفّف طيلة حياته والكفّ عن معرفة هذا الألم الذي يعتصر بطنه. كان يعلم أنّ الغجري لن يأتي أبداً للبحث عنه في هذا

المكان، في هذا الحقل. وإذا ما حصل ذلك لسوء الحظّ، فإنّ صديقه الفلاح سوف يدافع عنه بمذراته الكبيرة.

مسح آجاتاشاترو عينيه بقطعة من النسيج. بعد بضع دقائق، وقد هدأ بفعل اللوحة الفنية والبكاء والتعب، استسلم للوقوع بهدوء بين ذراعي شيفا(*).

(*) شيفا: شيڤا أو شِوَ هو أحد أهم الآلهة في الهندوسية، وغالباً ما يسمى «المسيطر»، وهو أحد الآلهة في التريمورتي إلى جانب براهما الخالق وفيشنو الحافظ. وفي الشيفية هو الإله الأعلى. - المترجم -

في صباح اليوم التالي، استيقظ آجاتاشاترو متوثباً من سريره نحو الساعة التاسعة والنصف، وهو ينضح عرقاً من جرّاء كابوسٍ رأى فيه أنّ ابن عمّته جامليداناب، وقد تحوّل إلى طماطم كرزية، كان يُشوى ويُشكّ على سيخٍ فوق نارٍ. وكان غجرٌ من حوله يعزفون على القيثارة ويرقصون بفرح وابتهاج.

وكان جامليداناب يصرخ من الألم من دون أن يبالي أحد به. وحده آجاتاشاترو بدا مدركاً لألم ابن عمّته، ولكنّه لكونه هو الآخر قد شُكّ على السيخ نفسه في هيئة بقرة (مقدّسة)، لم يكن بوسعه أن يفعل الشيء الكثير لأجله.

فرك الهنديّ عينيه. حمد بوذا وشكره لوجوده في غرفة فارهة في فندقٍ في إيطاليا وليس في سلطة طماطم كانت جاهزة لأن يلتهمها غجرٌ جائعون. فتذكّر بأنّه كان من المفروض أن يصل إلى نيودلهي مساء أمس وبأنّه لم يستطع حتى أن يخبر جامليداناب بتأخيره. ربّما يكون هذا الأخير لا يزال ينتظره في المطار، حانقاً عليه أو قلقاً عليه.

حينما سيعُود إلى البلد، سوف ينتهي من دون شكّ على طرف هذا السيخ المدهون بزيت الزيتون والثوم الذي كان قد تخيّله أثناء

نومه، وسوف يرقص هنودٌ من حول النار. ولم تُسعد هذه الفكرة الكاتب، الذي كان في السابق فقيراً.

اتّصل آجاتاشاترو برقم مكتب الاستقبال في الفندق وطلب أن يتم وصله برقم الهاتف الثابت لأمّه بالتبني سيهرينغ، الذي كان الرقم الوحيد الذي يعرفه. ولأنّ ابن عمّته كان قد غيّر لمرّات عديدة هاتفه المحمول، لم يشعر الهندي أبداً بضرورة حفظ كلّ أرقامه عن ظهر قلب.

بعد عدّة رنّات، رنّ صوت السيّدة العجوز عبر السمّاعة. أجهشت بالبكاء حينما علمت أنّ المتّصل هو عزيزها آجا. كانت تعتني بنفسها كثيراً. ولكن ما الذي كان قد حدث لها؟

تلعثمت غارقةً في دموعها:

- البارحة، ابن... عمتك انتظرك... طيلة الليل. لقد قلب السماء... والأرض لكي يعرف ما حدث لك. في المطار، دقّقوا في قائمة المسافرين على رحلتك... وقيل له بأنّك لم تستقلّ الطائرة. لماذا... بقيتَ... في باريس، يا بُنيّ؟ هل أنت بخير؟

كانت لا تزال تتحدّث معه كما لو كان صبيّاً صغيراً، ابنها الصغير، وهي وسيلة لتعويض عدم قدرتها على الإنجاب.

- لم أعد في باريس، يا سيهرينغ العزيزة. أنا الآن في روما.

سألت السيّدة العجوز مندهشةً وقد توقّفت فجأةً عن النحيب:

- أنتَ في روما؟

- هذه حكاية طويلة. أخبري جامليداناب بأنني بخير، وبأنني أصبحتُ رجلاً شريفاً، أصبحتُ كاتباً. سوف أعود قريباً.

هذه الكلمات الأخيرة لآجاتاشاترو أوقعت العجوز الهندية في حيرةٍ كبيرة. رجلٌ شريف، كاتب؟ عن ماذا يتحدّث؟

كان آجاتاشاترو على الدوام صبيّاً شريفاً على حدّ علمها. وعلاوة على ذلك، كان موهوباً بقدرات خارقة للطبيعة والتي جعلته، منذ طفولته، أكثر تميّزاً وشخصاً استثنائياً. اعتقدت لبرهةٍ أنّه قد فقد موهبته، وهو ما قد يفسّر هذه العودة المفاجئة وغير اللائقة إلى وضعية الشخص العادي.

كاتب؟ ولماذا ليس راقصاً لرقصة فُكستروت الأميركية أو فارس سباق؟

كرّر الهندي، الذي لم يكن يعرف بأنّ النطق بهذه الجملة كان كافياً لكي تقلق السيّدة العجوز أكثر من ذي قبل:

- لا تقلقي.

ثمّ وبعد بضع كلمات لمواساة العجوز وطمأنتها، أغلق السماعة.

دون أن يترك سمّاعة الهاتف من يده، اتّصل من جديد بمكتب الاستقبال في الفندق وطلب أن يتمّ الاتّصال بالرقم الفرنسي الذي حاول الاتصال به أمس من دون جدوى. بعد عدّة رنّات، رنّ صوت ماري المذهل عبر السمّاعة.

- آجاتاشاترو؟ هل هذا حقّاً أنت؟

لو كانت المخاطبة بضمير المفرد المخاطب والجمع المخاطب موجودة في اللغة الإنجليزية، كانت ماري قد مالت نحو ضمير المفرد المخاطب.

- نعم، هذا أنا.

ساد صمتٌ في الطرف الآخر من الخطّ استغرق بضع ثوانٍ. إذاً كانت لا تزال تتذكّره.

- هل ما زلت في باريس؟

- كلا. أنا في روما.

بدا أنّ الجواب قد فاجأ السيّدة. بالنسبة إليها، لم يكن هناك سوى مكانين يمكن للراجستاني أن يوجد في أحدهما في هذه اللحظة، باريس أو كيش - أو - يوغورت، (كيشانيوغور) قريته في الهند.

- في روما؟

قال آجاتاشاترو، كما لو أنّه كان يلفظ هذه الجملة طيلة حياته:

- متطلّبات مهنية. لقد اتّصلتُ بكِ لأخبركِ بأنّ...

تردّد مثل صبيّ مراهقٍ يجري مكالمته الأولى مع فتاة. انتقل إيقاع دقّات قلبه من موسيقى الراب إلى موسيقى التكنو ورسا في النهاية على موسيقى فيفالدي.

- أرغب كثيراً في المجيء إلى باريس لألتقي بكِ.

استقرّ سهم ملاك الحبّ كوبيدون مباشرةً في قلب ماري. كان الرجل قد نطق بكلّ كلمة بحنانٍ ورقّة جعلت عينيها تتلألآن. احمرّت وجنتاها خجلاً، وقد ارتاحت قليلاً لكون وجهها لا يُرى عبر الهاتف. كانت تستردّ شبابها فجأةً. كرّرت في نفسها: لكي يلتقي بي. ربّما يكون ذلك سخيفاً، ولكن لم يُقَل لها منذ سنوات عديدة، كلماتٌ بهذه العذوبة وبهذا اللطف. الشبّان الصغار الذين كانت تلتقي بهم في السهرات لم يكونوا راغبين أبداً في اللقاء بها مرّة أخرى. ثمّ إنّهم لم يكونوا لطفاء وظرفاء مثل آجاتاشاترو. كانوا بهائم بلا تحفُّظ، لم يرغبوا فيها إلّا لتهدئة اندفاعات الهرمونات الذكرية لديهم.

ختم الرجل حديثه برقّة:

- لقد أحببتُ حديثنا وضحكاتنا وعينيكِ. سوف أنهي بعض الأمور في روما وسوف أعود.

أنهى الحديث، متضايقاً:

- إلى اللقاء قريباً.

إذا كان هناك شيءٌ ما قد أدركته ماري، فهو أنّه يمكن لامرأةٍ في الأربعين من عمرها أن تقع في غرام رجلٍ مجهولٍ التقته في كافيتريا متجر ايكيا. ربّما لم يكن ذلك معقولاً جدّاً، ولكن ماذا يكون هذا الأمر إذن! الأمر الذي يُظهر بأنّ لا شيء يضيع أبداً. كانت حبّة واحدة من آجاتاشاترو تساوي كلّ مضادات القلق والإحباط في العالم. وضعت السمّاعة، تلتهمها ألسنة نارٍ مستعرة.

أغلق آجاتاشاترو السمّاعة.

تبيّن له بأنّه حينما اتّصل بمكتب الاستقبال في الفندق قبل بضع دقائق، لكي يتم وصله بفرنسا، لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا كان سيقوله لماري. ربّما كان سيقول لها بأنّه بخير وبأنّه يفكّر فيها. وماذا أيضاً؟ التزم فقط بالوعد الذي قطعه على نفسه في عنبر الطائرة. أن يتّصل بها إن نجا وبقي على قيد الحياة. هذا كلّ ما في الأمر. لم يكن معتاداً كثيراً على المحادثات الهاتفية، فما بالكم بالمحادثات مع النساء.

ولكنّ قلبه تحدّث نيابةً عنه. سوف أنهي بعض الأمور في روما وسوف آتي، سمع نفسه وهو يقول هذا الكلام. سوف آتي؟ إلى أين سآتي؟ إلى باريس؟ متى، وخاصّة كيف؟ لم يكن يعرف أيّ شيء عن هذا الأمر. مرّة أخرى كلمات في الهواء!

أكاذيب!

كيف يمكن الذهاب إلى باريس؟ كان يمزح. سوف أنهي بعض الأمور في روما وسوف آتي، قالها بالطريقة الأكثر تلقائية وعفوية في العالم، وكأنّه كان يمتلك المال الكافي لكي يسمح لنفسه بهذا النوع من البذخ والترف. مشاريعُ رجلٍ ثري لرجلٍ لا يملك حتى روبية

هندية واحدة في جيبه. لديه فقط بزّة جميلة صوفية اللون ومن ماركةٍ شهيرة. رأى نفسه جالساً خلف حمولةٍ من البطاطس، في بزّته الجميلة، والخوف يعتصر بطنه كلّما أبطأت الشاحنة من سرعتها. كان عليه إذن أن يجد وسيلةٍ أخرى.

هيّا، سوف نفكّر في هذا الأمر فيما بعد.

أزاح هذه الأفكار عن ذهنه، تمدّد على سريره وضبط التلفزيون على القناة الرياضية.

ماري، من جهتها، وضعت السمّاعة، كما سبق لنا وقلنا ذلك، تلتهمها ألسنة نارٍ مستعرة، الجملة التي لا تعني الشيء الكثير لكنها تمتلك قوّة أدبية مجازية من أكثر القوى فعالية، وكذلك مجانسة صوتية مع لفظ الحرف «f» لا يُستهان بها.

حدّقت في الجدار لبضع ثوانٍ دون أن تقول شيئاً.

- هل كلّ شيء على ما يُرام، يا ماري؟

التفتت السيّدة نحو الشاب الوسيم ذي الخمسة وعشرين ربيعاً والذي كانت قد وجدته قبل بضع ساعات في قسم الألبان من سوبر ماركت الحي. كان مستلقياً على سريرها، وفي فمه سيجارة، عابساً، مركّزاً في تمثيله دور جيمس دين بعد ممارسة الحب.

- عُد إلى بيتك، يا فرانك.

صحّح الشاب:

- بنيامين.

- عُد إلى بيتك، يا بنيامين.

لا بدّ أنّه قد اعتاد أن يرتمي من سرير غزواته النسائية لأنّه نهض وارتدى ثيابه بلا اعتراض أو تذمّر، والسيجارة بين شفتيه ولا يزال عابساً.

حينما أصبحت أخيراً لوحدها، نزعت ماري شراشف السرير ورمتها في سلّة الألبسة المتّسخة. كانت تشعر بالتقزّز أحياناً. كيف استطاعت أن تعاود السقوط في الفعل نفسه؟ الشعور بالوحدة بالتأكيد، والرغبة في إثارة الإعجاب. ولكن هؤلاء الفتيان الصغار الذين كانت تظفر بهم من حين إلى آخر لم يكونوا يصلون إلى كعب آجا. كان آجا رجلاً، كان رجلاً حقيقياً. كان وحشاً مثقوب الشفتين، له شارب وعينان بلون الكوكا كولا وجلدٌ كامد. حينما أقف أمامه، أشعر أنني فتاة صغيرة. لم أشعر قطّ بأنني محمية مثلما شعرت بذلك في مقهى متجر ايكيا. ربّما أتمسّك بغصنٍ فاسد. ربّما يكون كلّ هذا وهماً، خرافةً. ولكن لِمَ لا؟ طالما لديّ الرغبة في تصديق ذلك. إنّه مختلف. ربّما نحن الاثنان، لدينا من النقاط المشتركة أكثر ممّا تريد المظاهر أن تجعلنا نصدّقه.

هيّا، سوف نفكّر في ذلك فيما بعد.

أزاحت هذه الأفكار عن ذهنها، تمدّدت على سريرها وضبطت التلفزيون على القناة الرياضية.

عند منتصف النهار، نزل آجاتاشاترو إلى مكتب الاستقبال في الفندق. لدى عودته من المطعم، مساء أمس، كان قد صعد إلى غرفته وانتهى من نسخ مخطوطته لكي يسلّمها إلى هيرفيه باندفاع وحماسة. في تلك الساعة، كان من المفترض أن يوصلها الفرنسي إلى الناشر، الذي كان يُقيم في روما خلال هذا الأسبوع.

كانت صوفي مارسو تنتظره وهي تُطالع كتاباً فرنسياً لم يفهم آجاتاشاترو عنوانه، بما أنّ العنوان لم يكن يتضمّن كلمات **عطر**، **رجل**، **امرأة**، **عطر جديد**، **كريستيان ديور**، وإنما كان قد كُتب على غلافه شيءٌ من قبيل **الأرانب تصيح بشكلٍ محزن على الطريق في صباحات الشتاء** لكاتبة تُدعى أنجيليك ديتوا ديلاميزون(*). حينما أحسّت بحضوره، رفعت المرأة الشابّة عينيها عن الكتاب ودسّت علامة تحديد الصفحة من ورقٍ جميلٍ أحمر اللون ومقوّى في المكان الذي كانت قد توقّفت فيه عن المطالعة.

- لقد طرأ تغييرٌ على برنامجنا، يا آجا. سوف نتناول الغداء معاً

(*) اسمٌ متخيّل من قبل الكاتب إذا قُرئ باللغة الفرنسية يعطي معنى: ملاك سطح المنزل أو نبتة حشيشة الملاك.

بعد قليل. ممثّل دار غرابوج للنشر يودّ الالتقاء بك.

- متى سيكون ذلك؟

أجابت الممثّلة وهي تشير بإصبعها الناعمة إلى بهو البار:

- في الحال.

كان هيرفيه يشرب كوباً من الكوكتيل مع رجلٍ آخر.

أضافت بابتسامةٍ واسعة:

- سوف تروي لي.

سار الكاتب، في هيئة مرتبكة، مسافة بضعة الأمتار التي كانت تفصله عن الرجلين. لماذا كان الناشر يريد أن يُقابله بهذه السرعة؟ هل كان لديه الوقت الكافي لكي يقرأ المخطوطة؟

نهض هيرفيه من كرسيّه وبدأ بتهجئة اسم الهندي بكلمات فرنسية متقطّعة:

- آشيت - آن - تاس - دي - تريك(*) العظيم!

سأل الرجل الآخر وهو يمدّ يده الصلبة:

- جو - شانت - دان - لا - ري(**)؟ يا له من اسم جميل!

- أنا اسمي آجاتاشاترو، ولكن يمكنكما أن تخاطباني باسم مارسيل، إذا كان اسمي صعباً جدّاً عليكما.

تابع الناشر بلغة إنجليزية مُتقنة:

- أمّا أنا، فاسمي جيرار فرانسوا، الاسم الفرنسي النموذجي. ليس فيه أي شيء مبتكر إلى جانب اسمك... حسناً، لقد قرأتُ روايتك، أقصد حكايتك، لأنّها قصيرة جدّاً. يبدو أنّك قد كتبتها

(*) Achète-un-tas-de-trucs (اشترِ كدساً من الأشياء).

(**) Je-chante-dans-la-rue (أنا أغني في الشارع).

على قميصك. ربّما سيكون عليك أن تكملها على البنطلون... مهما يكن من أمر، لقد أحببتها كثيراً.

جلس الرجال الثلاثة. لم يكن جيرار فرانسوا يشبه أيّاً من وكلاء الأعمال الذين كان آجاتاشاترو قد قابَلَهم حتى الآن. لا بل كان نقيضهم المطلق. أوّلاً، لم يكن بديناً ولم تكن يداه رطبتين، بل كان رجلاً طويل القامة، له بنية مصارع. أنارت عينان جميلتان زرقاوان وجهه المنسجم القسمات والملفوح الشبيه بوجه مدرّب للتزلّج على الجليد. كان يرتدي بزّة جميلة من ماركة مشهورة وربطة عنق على الرغم من حرارة الجو. كان له جسم مدرّب التزلّج واسم مغني منوعات فرنسية، وكان الجسم والاسم يتعايشان في شخصيته على وفاق.

أضاف بنبرة رجل معتاد على إعطاء الأوامر وعلى رفض احترامه:

- ومع ذلك، شيءٌ واحدٌ أحزنني، الخاتمة. غيّر الخاتمة. لأنني أعرف هذه الحكاية من قبل، ولكن داخل مستشفى.

فكّر الهندي في نفسه بأنّ الرجال الوسيمين يفرضون احترامهم بطريقة أسهل من الرجال القبيحين. إنّهم يمارسون نوعاً من الجاذبية الطبيعية. إنّهم يثيرون إعجاب ورغبة رجالٍ آخرين أيضاً. نوعٌ من التلاعب، من التنويم المغناطيسي، من دون مهارة. نُصغي إليهم لأننا نشعر بالمقارنة معهم بأننا مثيرون للرثاء.

أكمل هيرفيه، الذي لم يستطِع مقاومة إغراء قراءة المخطوطة قبل تسليمها إلى الناشر:

- إنّها حكاية مسلّية، لأنني أعرف هذه الحكاية نفسها ولكن في صومعة دير.

- إن تحديد مكان أحداث الرواية في سجنٍ سرلانكي أمرٌ مستحدثٌ إذاً الآن، أنا مقتنع بذلك، ولكن غيّر النهاية، من فضلك. لأنّ اللحظة التي نعرف فيها بأنّ النافذة تطلّ على الجدار، ننتظرها منذ الصفحة الثالثة من حكايتك. وإذا ما علمنا بأنّ الراوية لا تتكوّن سوى من أربع. . . هذا لا يترك فرصة كبيرة للترقّب والانتظار!

تبيّن لآجاتاشاترو أنّ القصة، التي وُلِدَت في دماغه، كانت قد انتشت في دماغ شخصٍ آخر قبله. أحسّ بما أحسّ به مخترع قطّاعة الزبدة حينما وقع على قطّاعة الصلصال، التي تمّ اختراعها قبله بمئات الألوف من السنين.

اقترح عليه هيرفيه، الذي أحزنته الهيئة المرتابة للكاتب المبتدئ:

- أوجد انقلاباً فجائياً آخر لنهاية الحكاية. أنا لا أعرف كيف، على سبيل المثال، أن نكتشف في النهاية أنّ الأعمى لم يكن أعمى. أو لم يكن في سجن، وأنّه كان يحلم بكلّ هذا.

قال الناشر:

- هذه نهاية مستهلكة جدّاً. يجب أن تكون هناك نهاية لا يتوقّعها أحد. ولكنني على ثقة بأنّ كاتبنا سوف يجد فكرةً ممتازة. أليس كذلك، آه - جو - بوش - لي - ترو(*)؟ في نهاية المطاف، عرّابته ليست أيّ كان. . . آه، صوفي، صوفي. . . حسناً، لنركّز على الموضوع مرّة أخرى، ربّما هذا الأمر سيُلهمك؟

عند هذه الكلمات، أخرج بعض الورق.

- سوف نوقّع العقد اليوم وسوف تحصل على سلفةٍ لكي تعمل

(*) Ah-je-bouche-les-trous (آه، أنا أسدّ الثقوب).

في أفضل الظروف. اجعلنا نحلم يا سيّد آن - جون - توش - آ - تو(*). هل لفظتُ اسمك على نحوٍ صحيح؟

سأل آجاتاشاترو الذي سخر بولع من كيفية لفظ الرجل لاسمه، بطريقة سيئة:

- سلفة؟

شرح الرجل الوسيم:

- نعم، بعض المال لكي تغطّي مصاريفك إلى حين الانتهاء من العمل، سلفة على المبيعات. هل لديك حسابٌ مصرفي؟

- هأ، هأ، كلا.

- هذا ما اعتقدته. ولهذا السبب أذنتُ لنفسي باستباق الأمر.

ومثل ساحرٍ، أخرج من تحت الطاولة صندوقاً صغيراً أسود اللون.

- حسناً، فلنتّفق على المبلغ.

قال الرجل، واثقاً من نفسه، مع ابتسامة تعبّر عن الرضا عن الذات وهو ينقر في الوقت ذاته على الحقيبة السوداء بأصابعه الرقيقة والمسمرّة:

- خمسون ألف يورو، هل هذا يناسبك؟

ردّد آجاتاشاترو الارتيابي:

- خمسون ألف يورو.

اختفت ابتسامة النبيل الإسباني الوسيم.

- ماذا؟ هل تجد أن هذا المبلغ ليس كافياً؟ حسناً. سبعون ألفاً، إذاً.

(*) Un-jeune-touche-à-tout (صبيٌّ يلمس كلّ شيء).

لم يقُل الهندي شيئاً.

- أنت قاسٍ في الصفقات، يا سيّد جيت - تا - بيروك(*)! تسعون ألفاً؟

مرّة أخرى، لم يبدِ الكاتب الناشئ أيّ ردّ فعل.

- قل إذاً، أيّها الرجل الطيّب، هل تعتقد نفسك مارك ليفي؟

تألّق وجه الفقير السابق.

- مارك ليفيت، هل هذا ساحرٌ؟

- نعم، ساحرٌ يحوّل الصفحات إلى ذهب. حسناً، هيّا، مائة ألف يورو وهذا آخر قيراط.

قال آجاتاشاترو هادئ الأعصاب:

- حسناً، اتّفقنا.

ظهرت ابتسامة انتصارٍ على الوجه المسمرّ للناشر:

- اخفِ فرحتك! مائة ألف يورو سلفة لكاتبٍ مبتدئ... عبقريٌّ صغير، صحيحٌ أنّه يكتب على قمصانه ولكنّه كاتب مبتدئ في نهاية المطاف، وبالتالي أعتقد أنّ هذا مبلغٌ جيّد. المهم أنني كنتُ أعلم بأنّك سوف تقبل بمائة ألف. ولذلك سوف تجد هذا المبلغ، لا يزيد يورو واحداً ولا ينقص يورو واحداً، في هذه الحقيبة التي أعددتها لهذا الأمر.

في الحقيقة، كان لهذه اللعبة الصغيرة أن تستغرق وقتاً طويلاً لأنّ صاحبنا الفقير التائب لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا يمثّله مبلغاً كهذا باليورو، ومن هنا كان عدم إبدائه أيّ ردّ فعلٍ ظاهر.

(*) Jette-ta-perruque (ارمِ شعرك المستعار).

بعد برهة، بدا أنّه قد أدرك الموضوع وارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه. كان المبلغ بالتأكيد كافياً لشراء تذكرة طائرة إلى باريس. وإذا ما بقي شيءٌ من النقود فسوف يشتري بها باقة وردٍ كبيرة لماري.

أعطاه الرجل العقد. ومع أنّه كان مكتوباً باللغة الإنجليزية، وقّعه آجاتاشاترو حتى من دون أن يقرأه، متخيّلاً نفسه وقد سافر إلى السيّدة الفرنسية، وفي يده باقة من الورد. يا لها من مفاجأة!

قال هيرفيه:

- أنا سعيدٌ بأنّك قد وجدت اتفاقاً. لا - شات - آ - تروس(*)، لم يبقَ لك سوى أن تُعيد العمل على نهاية الكتاب. أمّا فيما يتعلّق بالنقود، فهذا مبلغٌ كبيرٌ من المال. لا تفتح حقيبة النقود هنا، افعل ذلك في غرفتك، حينما تكون لوحدك فيها. شوارع وفنادق روما ليست آمنة كثيراً. سوف يكون عليك أن تودِع كلّ المال في البنك. وسوف نتكفّل بهذه المهمّة بعد ظهيرة اليوم إن لم يزعجك هذا الأمر.

نهض الرجلان وغادرا المكان. ما أن بقي لوحده في المكان، نهض الهنديّ بدوره، وحقيبة المال في يده، واقترب بهدوء من مكتب الاستقبال في الفندق.

خلف طاولة المكتب، كانت لوحة إعلانات مضاءة تعطي مباشرةً أسعار البورصة وكلّ عملات العالم. في ذلك الصباح، كان اليورو الواحد يساوي بالضبط 67,8280 روبية هندية.

عملت الآلة الحاسبة سريعاً.

نفخ آجاتاشاترو مندهشاً، غير مصدّقٍ عينيه:

(*) La-chatte-à-trousse (القطّة ذات المحفظة).

- ستّة ملايين وسبعمائة واثنان وثمانون ألف وثمانمائة روبية! يا للهول! يا بقرتي (المقدّسة)!

بهذا المبلغ، لا يكفي فقط لشراء بطاقة طائرة روما - باريس وباقة كبيرة من الورود، بل يكفي لشراء الطائرة وطاقمها وكلّ متجر الزهور. كان معه هنا، مضموماً إلى صدره، من المال ما يزيد على ما يمكنه كسبه عبر عشر عمليات تجسّد وتقمّص. شدّ حقيبة النقود بقوّة إلى صدره وركض نحو المصعد، مارّاً من دون أن ينتبه، أمام الأنظار المذهولة للحسناء صوفي التي كانت تنتظره لتناول الغداء.

ها قد مرّت بضع دقائق وآجاتاشاترو لافاش باتيل يزرع غرفته جيئةً وذهاباً ويدور فيها حول نفسه مثل كلبٍ لم يعقد العزم على النوم. لم يحسم قراره حول المكان الذي سوف يخبّئ فيه مبلغاً بهذا القدر من المال. ولكونه كان هو نفسه لصّاً، كان يعلم بأنّه ليس هناك أيّ مكان في العالم لا يمكن كشفه والوصول إليه فعلياً، فما بالكم بغرفةٍ في فندقٍ إيطالي، وبأنّه لن يلزم أكثر من خمس دقائق للصّ محتمل لكي يعثر على الحقيبة المليئة بالأوراق النقدية ويغادر معها.

وبالتالي قرّر بأنّ الأمر الأكثر حكمةً هو ألا يغادر غرفته أبداً وأن يلازم حقيبة النقود كظلّها ممسكاً بنعلها، على الرغم من أنّ ليس للحقائب نعالٌ وسوف يؤمن عليها من خلال الإمساك بمقبضها.

حينما دخل إلى الغرفة ألقى نظرة سريعة على محتويات الحقيبة فقط لكي يرى إن كان الأمر صحيحاً، لكي يرى إن لم يكن قد جرى الاحتيال والنصب عليه، إن لم يكن قد جرى الكذب عليه.

ولكن كلا. كانت الحقيبة تغصّ بحزمِ الأوراق النقدية البنفسجية الجميلة. أوراق نقدية حقيقية من فئة 500 يوروً، مطبوعة على جانبيها، نعم يا سيّدي!

تساءل الهندي: حسناً، والآن، ماذا سأفعل؟ ففي نهاية المطاف لن يجرجر الحقيبة معه إلى أيّ مكان يذهب إليه! كانت صوفي تنتظره لكي يذهبا ويتناولا الغداء معاً.

ربّما كان أكثر حصافة أن تصعد هي ويتناولا الغداء معاً في غرفته. نعم، هذا سيكون أكثر أماناً. رفع سمّاعة الهاتف واتّصل بمكتب الاستقبال وطلب من الموظّف أن يُخبر الفتاة الجميلة التي كانت تقرأ في صالون المدخل بأن تصعد إلى الغرفة رقم 605.

بعد عشر ثوانٍ من ذلك، طُرِق باب غرفته.

يا لها من سرعة!

صرخ صوتٌ من الطرف الآخر للباب:

- مزيّن للرجال! مصفّف شعر!

ما لم تكن قد أُصيبَت بنزلة بردٍ مفاجئة وما لم تكن قد أصبحت مزيّنة في غضون ذلك، لا يبدو أنّ هذا صوت الممثّلة الحسناء.

- عفواً، مَنْ هناك؟

لم يكن آجاتاشاترو يعرف العادات المحلية ولكنّه وجد بأنّه من الغريب أن ينادي فندقٌ، حتى وإن كان من هذه الدرجة، على زبائنه صراخاً في الممرّات لكي يعرض عليهم خدمات مصفّف شعر. ثمّ إنّه، وفي كلّ الأحوال، يصبح كلّ شيء غريباً ومثيراً للشبهة حينما يكون مع المرء حقيبة تحتوي على مائة ألف يورو بين يديه.

- لستُ مهتمّاً بأمر التزيين.

- عليكَ على الأقلّ أن توقِّع على الإيصال الذي يُثبت بأنني قد مررتُ عليك.

إيصال؟ يبدو أنّ الأمر جدّي. ليس هناك ما يسبّب خوفاً كبيراً من مصفّف شعر، في نهاية المطاف.

سأل الهندي، بسذاجة، وهو يفتح باب غرفته:

- أين ينبغي عليّ أن أمضي؟

صحّح له رجلٌ قصير القامة ذو سحنة سمراء:

- بل قل أين ينبغي عليّ أن أنزف؟

وهو يقول هذا، دفع الرجل المجهول قدمه إلى الأمام لكي يسدّ الباب وسحب سكّيناً كبّاساً من جيب بنطلونه ذي التجاعيد رخيص الثمن. لم يعد حال مصفّفي الشعر كما كان عليه في السابق.

قال الفقير السابق بلهجة ساخرة وهو يعرض ساعديه المغطاتين بالندوب:

- أنا آسف، لقد توقفت.

ولكنّه كان في وضعٍ قلقٍ وخائف.

قال الرجل بلغة إنجليزية مشبعة باللكنة الإيطالية:

- لديّ رسالة من غوستافو.

كانت هيئته وبنيته الجسمانية الفريدة وطريقة ارتدائه للثياب تذكّر بسائق سيارة الأجرة الفرنسي.

- هل قلت رسالة من بوس - تون - فو؟ أنا لا أعرفه. أمّا أنا، فاسمي لافاش(*).

بدا أن التعليق لم يرُق للرجل الإيطالي الذي تقدّم إلى الأمام وهو يقبض على السكين. بقفزة واحدة، ارتمى آجاتاشاترو إلى الوراء، الأمر الذي أتاح له أن يتجنّب الطعنة ولكنّه سمح أيضاً للمهاجم أن يدخل إلى الغرفة.

(*) يلجأ الكاتب هنا إلى لعبة كلمات، *Pousse-ton-veau* «بوس تون فو» تعني في الترجمة الحرفية: ادفع ثورك، في حين (Lavash) تتطابق لفظاً مع كلمة (La vache) التي تعني: البقرة. - المترجم -

متذكّراً مشاجرته الأخيرة في برشلونة، أو على نحوٍ أخصّ ضربة المثلّجة التي تلقاها في وجهه، قرّر الهندي أن يتصرّف بتلك الطريقة نفسها ودفع بالحقيبة التي كان يمسك بها بين يديه وضرب بها أنف الرجل الإيطالي، وكان ذلك تغيّراً مفاجئاً لسير الأمور. ارتطم الرأس الضخم للرجل بصخب بأبواب الخزانة الموجودة في ممرّ المدخل.

كان الطريق مفتوحاً. ولكن بالكاد لبضع ثوانٍ، الوقت الذي تجاوز فيه الغجري تأثير الصدمة فقط.

فاستغلّ آجاتاشاترو ذلك لكي يقفز إلى خارج الغرفة. هرع مسرعاً على سلالم الطوارئ وقطعها كلّ أربع درجات معاً، كما لو أنّه مطاردٌ من قبل رجلٍ يريد أن يحوّله إلى مصفاة هندية، وكانت تلك هي الحالة إلى حدّ ما.

وصل أخيراً إلى بهو الفندق، أمام مكتب الاستقبال، وتجاهل السعر الحالي للروبية الهندية، وركض بأقصى سرعته نحو مخرج الفندق، وهو يمرّ مرّة أخرى، دون أن يُلمَح، أمام الأنظار الذاهلة للحسناء صوفي التي كانت لا تزال تنتظره لكي يتناولا الغداء معاً.

في اللحظة نفسها، شاهدت صوفي، مذهولةً، آجاتاشاترو وهو يركض بأقصى سرعته إلى خارج الفندق وفي يده حقيبة. ولأنّ هيرفيه كان قد أخبرها بالخبر السعيد بشأن مبلغ المائة ألف يورو كسلفة على مبيعات حكايته، افترضت بأنّ صديقها كان يفرّ بالحقيبة المليئة بالمال. وقد كان لهذا الأمر تأثير صفعة إيجابية عليها. لقد كلّفها مفهومها عن الصداقة والوفاء ضربة مقدّسة. كيف استطاع أن يتصرّف معها بهذه الطريقة غير المناسبة؟ لقد استقبلته وقدّمت له غرفةً وبزّة جميلة ومنحته عطفها ووقتها. وقد عثرت له على ناشرٍ لحكايته في رمشة عين.

تنهّدت بحسرة. في نهاية المطاف، لم يكن هذا الرجل سوى مهاجرٍ سريّ، لصٌّ يعيش على الوجبات المختلسة. ماذا كانت تنتظر منه؟ الطبع يغلب التطبّع عند البقرة المقدّسة. أحسّت بأنّها قد خُدِعت وتعرّضت للخيانة، مرمية كمحرمة ورقية مستعمَلة وعقدت العزم على أن تكون أكثر حذراً حيال الهندي المقبل الذي قد يخرج من حقيبتها الفويتون. لقد انتهى الأمر. ألقت على الأرض، غاضبة وحانقة، نسختها من كتاب **الأرانب تصيح بشكلٍ محزن على الطريق في صباحات الشتاء** للكاتبة أنجيليك ديتوا ديلاميزون وذهبت وحبست نفسها في غرفتها.

في اللحظة نفسها، كان جيرار فرانسوا يندسّ بدراجته السكوتر وسط حركة السير الكابوسية في روما. على حمّالة أمتعته، كان يوجد العقد الموقّع مع ذلك الكاتب الغريب الأطوار. تراءى له الكتاب الأكثر مبيعاً في العالم على رفوف أضخم المكتبات في العالم وقد تُرجِمَ إلى اثنين وثلاثين لغةً بما في ذلك لغة الأيابانيكو، وهي لهجة مكسيكية قديمة لم يعُد يتحدّث بها سوى شخصين لا يجيدان القراءة.

في اللحظة نفسها، كان آجاتاشاترو يركض نحو الحديقة التي كان قد رآها من خلال نافذة غرفته. كانت تلك المرة الأولى التي يركض فيها بهذه السرعة الكبيرة. وكذلك كانت تلك المرّة الأولى التي يركض فيها ومعه حقيبة مليئة بمائة ألف يورو.

في اللحظة نفسها، صعد هيرفيه إلى غرفته في الفندق وكان يشرب الجرعة الأخيرة من الويسكي من الزجاجة الصغيرة التي كان قد أخذها من البار الصغير في غرفته. كان يشرب لكي ينسى، ولكن من دون جدوى. فكّر من جديد بيدَي جيرار فرانسوا وبجلده الملوّح، بشفتيه اللحيمتين والمبلّلتين. لماذا كان أكثر أصدقائه جمالاً مثليين جنسياً ووسيمين وخاصّة بشوشين؟

في اللحظة نفسها، كان جينو يمسك بيده سكيناً وهو دائخ قليلاً وينزل سلالم الفندق خلف ذاك الهندي الذي كان قد سرق ابن عمّته وضحك عليه والذي كان يكرّر جريمته معه هو هذه المرّة.

في اللحظة نفسها، كان آجاتاشاترو لا يزال يركض سريعاً.

في اللحظة نفسها، كان القبطان آدن فيك (مَنْ يكون هذا؟) الممسك بقيادة سفينته الخاصّة بنقل البضائع والتي ترفع العلم الليبي، كان يُبحر بمحاذات الشواطئ الإيطالية قبالة ليدو دي أوستيا، سعيداً ومبتهجاً بالعودة إلى موطنه بعد ثلاثة أشهر قضاها في البحر.

في اللحظة نفسها، كان غوستافو بالورد يتباحث، حول طبقٍ شهيّ من الدجاج بالثوم، طبق بولاستر آلاست، مع والد حمّال الأمتعة البرشلوني الشاب بشأن الزواج الذي سوف يُقرن بين ولديهما وبالتالي يوحّد بين عائلتيهما.

في اللحظة نفسها، كانت ميراندا - جيسيكا بالورد، والتي ستصبح عمّا قريب السيّدة ميراندا - جيسيكا توم كروز - خيسوس بالورد كورتيس سانتاماريا، تضع في الطبق قطعتها من فخذ الدجاج وتلعق أصابعها بشراهةٍ ونهم وهي تحدّق في الوقت ذاته في زوجها المستقبلي الجالس قبالتها.

في اللحظة نفسها، كانت مرسيدس - شايانا بالورد تذرف بعض الدموع وتقرّر أن تقدّم الثياب الداخلية الأنيقة للممثلة صوفي مارسو لابنتها لكي ترتديها في ليلة زفافها.

في اللحظة نفسها، كان توم كروز - خيسوس كورتيس سانتاماريا غارقاً في التأمّل في زوجته المستقبلية التي كانت تلعق أصابعها بشهوانية وهي تتناول قطعتها من فخذ الدجاجة. لو كان هندوسياً، لعرف في الحال في أيّ حيوان يرغب أن يتجسّد بعد موته.

في اللحظة نفسها، لم يكن آجاتاشاترو قد انتهى من الجري.

في اللغة السنسكريتية، أي لغة البراهمة، آجاتاشاترو يعني الشخص الذي لم يولَد عدوّه. ولكن هنا، كان الهندي قد بدأ فعلاً في تكذيب اسمه ومخالفته وفي تجميع الأعداء.

حينما رفع عينيه إلى الطريق الرجّاج الذي كان قد سلكه عند دخوله إلى حدائق فيلا بورغيزي، وجد الهندي نفسه وسط فسحة جميلة مضاءة من الحديقة بشكلٍ دائري.

نظر إلى اليسار ومن ثمّ إلى اليمين. على المكشوف، كان قد أصبح شبيهاً بجرذ. ولكن تلك لم تكن نهاية جريه. على بعد بضعة أمتار من المكان، مستفيدين من المنطقة المفتوحة، كان الإيطاليون قد نصبوا نوعاً من منطادٍ ضخم. كان عبارة عن منطادٍ بلونٍ أزرق منقوشٍ برموزٍ ورسومات كلاسيكية مذهّبة. وفي الأسفل منه ببضعة أمتار، كان زورقٌ مثبّتٌ إلى الأرض، مربوطاً بحبالٍ رفيعة، مثل ألف خيطٍ ذهبي، كان يتأرجح بخفّة بفعل الرياح. في حقيقة القول، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يرى فيها آجاتاشاترو على أرض الواقع جهازاً كهذا. كان قد شاهد شيئاً من هذا في فيلم خمسة أسابيع في منطاد المقتبس من رواية المغامرات التي تحمل العنوان نفسه للكاتب جول فيرن. كان المنطاد الذي يعلو لعشرات الأمتار عن الأرض يتيح

للسواح أن يحظوا بإطلالة بانورامية جميلة من الجوّ على العاصمة الرومانية لقاء مبلغٍ زهيد من خمسة يوروهات.

لحسن الحظّ، كان القارب لا يزال على الأرض وكان بضعة سيّاح ينتظرون لكي يصعدوا إليه. لم يكن هناك أي شخص في داخله، حيث كان قائد القارب مشغولاً ببيع بطاقاته للراغبين في الصعود إلى الزورق.

التفت آجاتاشاترو إلى الخلف فوجد أنّ الغجري يُقبل نحوه جرياً. كان قد أخفى السكين لكي لا يُثير الشبهات من حوله، ولكنّ الهندي كان على قناعة بأنّه ما أن يصبح في متناول يده لن يتردّد للحظة في إخراجها وطعنه بها مثل لعبة فودو أمام الجميع. كان هذا الاحتمال ليُسعد صاحبنا الفقير السابق لو أنّه وجد نفسه في إحدى تجليّاته المزيّفة، ولكن من دون سكينٍ ذات نصلٍ قاطع وبعض المحرّضين، كان المشهد يفقد أهميته على نحوٍ غريب.

من دون أيّ تردّد، قفز الراجستاني إلى داخل القارب المعدني.

رآه قائد القارب وصرخ فيه: هيه!

رآه السيّاح وصرخوا باندهاش: أوه!

رآه الغجري وصرخ فيه: آه!

كان آجاتاشاترو على حقّ. بحضور شهودٍ أو من دونهم، أخرج الغجري الإيطالي السكين الكبّاس من جيبه ومدّه أمامه، متهيّئاً لأن يُشهر نصله الشبيه بالسيف البتّار. وحده كان سياجٌ يَفصل الآن بين حدّ السلاح وبطن الهندي.

لاهثاً من شدّة التعب، أغمض هذا الأخير عينيه وأمال جذعه إلى الأمام، ووضع يديه على ركبتيه لكي يستعيد أنفاسه. فكّر وقال

في نفسه بأنّ رحلته تتوقّف هنا. كانت نظرته الأخيرة هي تلك التي ألقاها على اللوحة الفنيّة التي كانت تزيّن جدار غرفته في الفندق. لم يعد يحلم سوى بالسلام والهدوء وقد تفاجأ برغبته في أن يتجسّد، في حياته المقبلة، في لفّة عشب مجفّف في حقلٍ هادئ.

حينما فتح آجاتاشاترو عينيه، اكتشف بأنّه لا يزال على قيد الحياة وبأنّه لم يأخذ شكل لفّة عشب مجفّف. كان قد أغمض جفنيه حينما وجّه الرجل نصل سكينه الحادّ نحو معدته. ولكنّ الهندوسي كان قد ارتمى غريزياً نحو الخلف وتعثّر بعقبةٍ وسقط بكامل طوله على أرضية الزورق الباردة.

ظلّ لبضع دقائق في تلك الوضعية، وقد وجد ذلك أكثر راحةً بما لا يُقاس من أن ينتصب واقفاً أمام قاتلٍ مستعدٍّ لأن يقتله من أجل مائة يورو وربّما يسطو على حقيبة تحتوي على مائة ألف يورو.

كانت تلك المرّة الثانية التي يجرّب فيها خلال يومين تقنية الموت. بدأ ذلك يصبح عادةً، تكتيكاً حربياً حقيقياً.

وكذلك، حينما مرّت بضع دقائق من دون أن يصعد الغجري أو قائد الزورق أو السيّاح إلى الزورق، نهض آجاتاشاترو وظلّ منذهلاً في وضعية الجلوس. اكتشف أنّ العقبة التي تعثّر بها لم تكن سوى مجمّدة كبيرة وأنّ هناك عقبات كثيرة أخرى على الأرض، مثل مقبضٍ يفتح فتحة بابٍ أرضي وقوارير غاز لا بدّ أنّها كانت تحتوي على احتياطيّ من الغاز.

نهض الهندي ووقف على ركبتيه بهدوءٍ وحذر وجازَفَ بإلقاء نظرةٍ عبر الشبكة. كان القاتل المأجور قد اختفى، تماماً مثل قائد الزورق والسيّاح. كان كلّ شيء قد اختفى، الأشجار التي كانت تحيط بالفسحة المضاءة في الحديقة، بل والحديقة ذاتها كانت قد اختفت وكذلك المنازل والفندق وروما والكرة الأرضية برمّتها. كان كلّ شيء قد اختفى تماماً.

كان يلتفّ من حول الزورق على مدى النظر ورقٌ ملوّن مزيّن ببقعٍ بيضاء صغيرة. إنّها السماء. كان المنطاد قد تحرّر من قيوده وأصبح للمرّة الأولى حرّاً طليقاً في مهمّته السياحية الطويلة، فارتفع عالياً في الأجواء، مغادراً إلى الأبد يابسة الأبقار (المقدّسة).

انحنى الكاتب قليلاً. كان يتدلّى من تحته الحبل الذي كان، قبل بضع دقائق خلت، يربط الآلة بالأرض والذي كان أحدهم قد تلهّى بقصّه بواسطة سكّين. لم يكن الهندي قد مات، ولكن هل كان أمراً حسناً أن وجد نفسه متروكاً في لامحدودية السماء تحت رحمة آلة شيطانية يجهل تشغيلها وقيادتها؟ ألم يكن ذلك إرجاءً لموتٍ محتّمٍ وأكثر قسوة من الموت من جراء اختراق جسده بعشرات الطعنات من سكّين على اليابسة؟

لم يكن سائق سيارة الأجرة الباريسي إنسانياً بما فيه الكفاية لكي يتمنى موتاً سريعاً لعدوّه. لا بدّ أنّه قد كلّف قاتله المأجور بأن يمنحه موتاً بطيئاً، مليئاً بالألم. وقد وجد هذا الأخير، حينما رأى المنطاد، فرصته ليسومه العذابات الأكثر سوءاً وقسوةً.

لم يعانِ آجاتاشاترو من دوّار الجو أو الدوخة، وكان لا يزال سعيداً. ولكن رؤية أسطح منازلٍ صغيرة بحجم تصاميم مساكن

المشاريع وسيّاح بحجم النمل منتعلين صنادلاً فيها ما يكفي لبثّ الرعب في قلب البوذيين الأكثر هدوءاً وسَكينة.

لو لم تكن هناك رياحٌ، لوقف المنطاد ساكناً فوق الفسحة المضاءة في حدائق فيلا بورغيزي. ولكن بدل ذلك، كان يجري، محمولاً بنفحة الهواء، ببطء ولكن بثقة نحو وجهةٍ مجهولة. كان المنطاد الآن على ارتفاع مائة وخمسين متراً، ومن هذه المسافة، كان يمكن رؤية حدود المدينة والحقول المحيطة بروما وانعكاسات ضوئية فضّية من بعيد. وكان المنطاد يجري نحو تلك الانعكاسات الضوئية الصدفية بسرعة ما يقارب خمسة عشر كيلومتراً في الساعة الواحدة. وعمّا قريب سوف تغدو روما مجرّد ذكرى، مجرّد نقطة صغيرة جدّاً في الأفق. وقال آجاتاشاترو في نفسه، وأيضاً سوف تغدو مدينة لن أزورها أبداً.

فوق رأس الهندي، كان ينفتح جوف الكرة النسيجية مثل فم أخطبوطٍ متثائب. كان قد شاهد في فيلم خمسة أسابيع في منطاد بأنّه يجب تحريك دولاب قدّاحة من حينٍ لآخر بهدف إرسال ألسنة اللهب، أو بعض الغاز في داخل المنطاد. كان ذلك عبارة عن مبدأ الهواء الساخن الذي يصعد فوق الهواء البارد ويرفع معه المنطاد في سيره. فبحث عن دولاب القدّاحة وعثر عليه واستخدمه.

مثل تنينٍ غاضب، اندفع لهبٌ عملاق من خزان الوقود قبل أن يختفي في ظلمات ذلك الجوف العميق.

لم يكن المنطاد الحالي يتوجّه بالطريقة نفسها التي كان يتمّ بها قبل قرنين من الزمن. كان يحلّق حسب وجهة الرياح. وبالتالي كان الملاّح الجوي يعرف من أين يُقلع بمنطاده ولكنّه لم يكن يعلم أبداً

أين سيهبط به. كان سحر الرحلات بالمنطاد يكمن برمّته في هذا الأمر.

مع أنّ المدة الوسطية لرحلات تحليقها كانت تتحدّد بحدود ستّين دقيقة، فإنّ مدى اكتفاء الجهاز، المتغيّر حسب كمية الغاز المتوفّر، كان يصل إلى ساعتين وثلاث ساعات، بل وعدّة ساعات. وإذا علمنا بأنّ المنطاد يسير في الساعة الواحدة من عشرة إلى عشرين كيلومتراً وسطياً، لم يكن آجاتاشاترو يحتاج إلى أكثر من ثلاث ساعات لكي يصل إلى البحر الأبيض المتوسّط وهي اللحظة التي اختارها، من دون شكّ، احتياطي الغاز لكي يُفلت السفينة الهوائية ويرميها في سقوطٍ محتوم نحو أعماق مياه الأزرق العظيم.

لم يسع الفقير السابق أن يفعل أيّ شيء لكي يتجنّب المصير المحتوم. لم يسعه سوى أن يكون شاهداً على سقوطه المحتوم نحو السطح المتوعّد للماء. لقد قضي الأمر، سوف يموت. سوف يموت غرقاً لأنّه لم يكن قد تعلّم قط السباحة. في كلّ الأحوال، بماذا كان سينفعه ذلك؟ كان الشاطئ يبتعد عن نظره أكثر مع مرور كلّ ثانية من الوقت. ربّما كان سيسبح لبضعة أمتارٍ، برعونة، ومن ثمّ كان سيغوص حتماً مثل حجر إلى أعماق البحر.

إذاً سوف تتوقّف رحلته هنا. حصل له كلّ هذا لكي يصل إلى هذه النتيجة. كانت صفحة المياه الزرقاء الجميلة تلك، ذات المظهر البريء، هي خطّ النهاية بالنسبة إليه. ولكن اللون الأزرق الجميل هذا كان سيتحوّل عمّا قريب إلى لون أحمر البوما ومن ثمّ إلى الأحمر الدموي. إذاً، هناك ما هو أكثر رعباً من تناذر الخوف من الشاحنة التي تبطئ سرعتها وتتوقّف، ألا وهو تناذر الخوف من المنطاد الذي يُبطئ سرعته ويسقط في البحر.

متمالكاً نفسه، بحث عن سترة إنقاذ ولكنّه لم يعثُر عليها، حيث لم يكن المنطاد مخصّصاً بالأساس سوى للصعود والهبوط على نقطة ثابتة فوق روما.

في المثلّجة التي كان قد تعثّر بها، وجد علب صودا، التي لا فائدة منها في هكذا ظروف. جرّب فتحة الباب الأرضي ولكنّه كاد أن يُغمى عليه حينما اكتشف أنّ قدميه في الفراغ. أغلق الفتحة من جديد في الحال وانتظر، مستسلماً. انتظر أن يحطّ الزورق ببطء على صفحة المياه وأن يبدأ بالغوص فيها. كان السطح الفسيح للبحر يمتد من حوله. بعد بضع دقائق، سوف يكون محبوساً في قفصٍ معدنيٍّ تحت الماء. بعد بضع دقائق، سوف يكون ميّتاً. سوف يختفي آجاتاشاترو لافاش باتيل من على سطح الأرض. سوف تكون هذه آخر جولة له في الاختباء.

نظر إلى المدى الواسع أزرق اللون. لا بدّ أنّ هذا المدى الواسع قد قبض على حياة الكثيرين. حياة صيادين، وحياة ملاحين أبحروا بمفردهم، وحياة طيارين نفد من طائراتهم الوقود، وحياة مهاجرين سرّيين تمّ نقلهم بقوارب بدائية الصنع، أولئك المئات من المهاجرين السرّيين من جنوب الصحراء الأفريقية الذين كان فيراج قد حدّثه عنهم في الشاحنة والذين يختفون كلّ سنة بين ليبيا والشواطئ الإيطالية من دون أن يتمكّنوا من الوصول إلى أرض الميعاد، والذين يكمن خطأهم الوحيد في أنّهم لو يولدوا في الجانب الصحيح من البحر الأبيض المتوسط. إذاً، سوف يموت مثلهم، تتلقّفه المياه الباردة وتبتلعه. جسدٌ إضافي موهوبٌ للقاتل الجائع.

تبيّن له حينذاك بأنّه فيما لو مات الآن، فإنّ الناس سوف تتذكّره كنصّابٍ محتال وسارق وكرجلٍ كرّس حياته للأخذ من الآخرين من

دون أن يعطي بالمقابل أيّ شيءٍ لأحد، سوف يتذكّره الناس كرجلٍ أنانيّ.

والحال هل كان مستعداً لأن يواجه هذا الحكم الأخير مع هذا الثقل والعبء على الضمير؟ سوف يقول له بوذا وهو يعبث بالشحمتين الطويلتين لأذنيه: سيرتك الذاتية ليست مشرقة.

كلّا، لا ينبغي له أن يموت. ليس الآن. ليس قبل أن يتمكّن من مساعدة أحد. ليس قبل أن يتمكّن من أن يُثبت للآخرين، ولنفسه، بأنّه قد تغيّر فعلاً. ثمّ إن هناك الفرنسية الجميلة ماري. لا يمكن له أن يموت قبل أن يعرف الحبّ ويجرّبه. لم يكن الأمر جدّياً إذن.

خلال بضع ثوانٍ، عادت كلّ محادثته مع السيّدة الفرنسية إلى ذاكرته مثل فيلمٍ يمرّ بواسطة كاميرا مسرّعة، ومن ثمّ تذكّر ابن عمّته وأمّه بالتبنّي وكذلك كلّ اللحظات السعيدة التي كان قد عاشها معهما، ومن ثمّ تذكّر اللحظات الأقلّ سعادة والجوع وحالات العنف وأولئك الرجال الذين كانوا ينحنون عليه وقد سال لعابهم وتلك الأيادي الدبقة التي كانت تمسك به، وتلك الثعابين التي كانت تعضّه. مرّت وقائع حياته برمّتها من أمام ناظريه. هذه الحياة القصيرة والمليئة بالأحداث ولكنّها عبثية جدّاً. كلا، لا يمكنه أنّ يقدّم نفسه لبوذا تقديماً صحيحاً بهذه الطريقة. سوف يعيد تجسيده بكلّ تأكيد في هيئة طماطم كرزية على طرف سيخ. الأمر الذي لن يكون له أيّ علاقة مع هدوء وسكينة لفّة عشب مجفّف في حقلٍ.

ولكن ما الذي ينبغي عليه أن يفعله لكي لا يموت؟ كان الوضع يبدو سيئ التدبير. جثا آجاتاشاترو، الذي كان حبيس فخّ ينطبق عليه أكثر فأكثر مع مرور كلّ ثانية، على ركبتيه في الزورق الذي كان قد

تسرّبت المياه إليه وشدّ حقيبة النقود إلى صدره بقوّة. تلك الحقيبة المليئة بالأموال التي لم تعُد تنفعه في أيّ شيءٍ الآن. الأمر الذي يُظهر الآن بأنّ المثل القائل بأنّ المال لا يصنع السعادة دائماً هو مثلٌ صحيح.

لم يكن القبطان آدن فيك قد رأى أبداً طوّافةً بهذه الضخامة، وبهذا اللون الأزرق وبهذا البُعد عن الشواطئ كما هي عليه هذه الطوّافة التي كان يراها من مكانه في قمرة القيادة. وكرجلٍ خبيرٍ وذي تجربة وبراغماتي، استخلص بأنّ ما يراه ليس طوافّة.

ولكن ما هذا إذاً؟

أهو منطادٌ للأرصاد الجوية وقد هبط من السماء؟ أهو فطر الجزيرة الخيالية الرائعة في سلسلة مغامرات تان تان؟ أهو منطادٌ وعلى متنه رجلٌ هندي وحقيبة تحتوي على مائة ألف يورو؟

كان ذلك شيئاً غريباً وغير مألوفٍ في كلّ الأحوال. ولم يكن ذلك يعني له أيّ شيءٍ يستحقّ العناء. ربّما يكون قراصنة قد أحكموا نصب فخٍّ له. أعطى دفعاً إضافياً للمحركات لكي تقترب سفينته الخاصّة بنقل البضاع بسرعة أكثر من هذا الجسم الغامض.

أمسك آدن فيك بمنظاره المقرّب وتقصّى الجسم العائم غير المحدّد الهوية. وسرعان ما عرف أنّ ما يشاهده هو منطاد.

ولكن هناك حيث كان ينبغي أن يوجد زورق، لم يكن هناك سوى السطح الكثيف لمياه البحر. بدا أنّ القمرة كانت قد غاصت في المياه تماماً، مع كلّ مَن كان في داخلها. مستبعداً نظرية أن يكون

هناك قراصنة، استدعى القبطان أحد ضبّاطه وأمره بأن يُنزِل إلى البحر زورق إنقاذ مع رجلين لكي يتحقّقا من الأمر ويعرفا ما الذي يجري. كان يجب التصرّف بسرعة وقبل فوات الأوان. كان آدن يُفضّل بما لا يُقاس أن يعثر على أشخاصٍ أحياء على متن القارب ويُنقذهم لا على جثث هامدة لغرقى. هناك على الدوام ما يمكن انتزاعه من كائنٍ حيّ. لا قيمة للموتى على الإطلاق.

تمّ القيام بما هو مطلوب.

بعد عشرين دقيقة من ذلك، عاد الرجال إلى السفينة بصحبة رجلٍ هنديّ طويل القامة، رفيع القوام وأعجر مثل شجرة يابسة ومبلّل، يعتمر عمامة بيضاء اللون. كان يمسك بإحدى يديه غطاء الإنقاذ المصنوع من الألمنيوم والذي كان قد وضِعَ على كتفيه، ويُمسك بالأخرى، حقيبة وثائق سوداء اللون والتي بدا عليه أنّه لا يرغب في التخلّي عنها.

قال آدن فيك بلغة إنجليزية وبنبرة مليئة بالافتخار، وقد ارتاح لأن وجد أمامه شخصاً حيّاً قد يمكنه أن ينتزع منه شيئاً ما:

- أنا قبطان هذه السفينة. إنّه من حسن الحظّ أن نمرّ في المكان المناسب في الوقت المناسب. ما الذي أصابك؟

بدوره، قدّم آجاتاشاترو نفسه وروى له بأنّه كان يشارك في مسابقة للمناطيد في منطقة روما حينما حوّلت رياحٌ غير مواتية على نحوٍ خطير خط سيره نحو البحر. وإذ نفد احتياطه من الغاز، لم يكن لديه من حلّ سوى أن يحطّ على سطح المياه. كان سيغرق لو أنّ رجاله لم يظهروا له.

أضاف البحّار وهو ينظر بطمع وجشع إلى الحقيبة الصغيرة السوداء الملغزة خاصّة الناجي من الغرق:

- في هذه الحالة، أهلاً وسهلاً بك على متن مالفيل. أتصوّر أنّ رغبتك الأشدّ هي أن تعود إلى روما وتمارس عاداتك. ومع ذلك، ولأسبابٍ تتعلق باستخدام الوقت، من المستحيل بالنسبة إليّ أن أقترب من الشواطئ. وبالتالي ها أنت مرغمٌ على العودة إلى السباحة، وهذا أمر معقّدٌ وصعبٌ بعض الشيء بوجود حقيبةٍ بين يديك، أو البقاء معنا على متن السفينة حتى بلوغنا إلى وجهتنا النهائية، يا سيّد ايتانش - او - ترو - لافاج - باديل(*). ولكن في هذه الحالة، سيكون عليك أن تدفع أجرة؟ هل تفهم عليّ؟ الحياة لها ثمنٌ... على النقيض من الموت.

جعلت الكلمات الأخيرة لقبطان السفينة أن تسري رعشة في جسم آجاتاشاترو. في أيّ وكرٍ للزنابير أوقع نفسه مرّة أخرى؟ ربّما كان عليه أن يغرق عندما كان لا يزال الوقت مناسباً.

سأل وهو يبذل كل ما بوسعه لكي لا يظهر خوفه على وجهه:

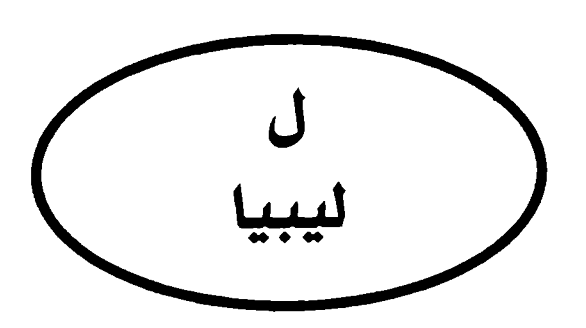
- وإلى أين نتوجّه على وجه الدقّة؟

ولكنّ ارتعاش يده على حقيبته بدأ يزداد ويُلاحظ بشكلٍ جليّ. كما لو أنّه قارع آلة إيقاعية برازيلي في وسط مهرجان ريو.

أشار القبطان إلى الشعار المطبوع على قميصه بالألوان الحمراء والسوداء والخضراء وقال:

- إلى ليبيا، بكلّ تأكيد! أخبرني الآن عمّا لديك في هذه الحقيبة الجميلة.

(*) Étanche - au - trou - Lavage - Paddel : كتيم - ذو - ثقب - غسيل - باديل.


ل
ليبيا

في حين كانت سفينة **مالفيل** ترسو في ميناء طرابلس، في الساعة الثانية من بعد ظهيرة اليوم التالي، كان آجاتاشاترو ينزل الجسر العائم الذي يقود إلى اليابسة، أقلّ خفّة بمبلغ خمسة عشر ألف يورو ولكنّه كان مرتاحاً.

لقد كلّفه العبور القسري ثمناً باهظاً. ولكن كان يمكن له أن يتعرضّ لما هو أسوأ بكثير. على متن السفينة، كان ألعوبة لمزاج الليبيين. في نهاية المطاف، كان يمكن للقبطان أن يستولي على كامل ماله قبل أن يرميه (هو، وليس ماله) من على متن السفينة، خلسةً دون أن يراه أحد أو يعلم بذلك. في خاتمة الأمر، لقد نجا من ذلك بثمنٍ معقول.

كانت ليبيا تعيش مرحلة من الاضطراب لم يسبق لها أن شاهدت له مثيلاً وكان الجميع يريد الحصول على أموالٍ، حتى قباطنة السفن الخاصّة بنقل البضائع، بل وخاصّة القباطنة الذين كانوا ينصرفون أحياناً إلى نقل اللاجئين غير الشرعيين من سكان جنوب الصحراء الأفريقية أو مناطق أخرى نحو إيطاليا لكي يحسّنوا أحوالهم المادية. مع اقتراب الدوريات الإيطالية، كان يحدث حتى أن يرمي المهرّبون المهاجرين السرّيين في مياه البحر، سواءً كانوا يجيدون السباحة أو لا يجيدونها.

وبهذه الطريقة، كان الإيطاليون مرغمين على نجدتهم وتقديم المساعدة لهم ونقلهم إلى شواطئهم في حين كان المجرمون يغادرون نحو ليبيا من دون أن يتعرّضوا للعقاب، دون أن يراودهم القلق، بغية الإعداد والتحضير لرحلة العبور المقبلة.

بعد تسعة أشهر من إسقاط العقيد القذّافي (بكلّ ما للعبارة من معاني لكونه قد مات) من قبل قوات الناتو، كانت البلاد لا تزال مرتعاً لأعمال عنفٍ مريعة ولانتهاك حقوق الإنسان ولاغتصاب النساء. إذاً يجب تفهّم وضع هؤلاء الناس المساكين. حينما تُتاح لهم فرصة إنقاذ رجلٍ هنديٍّ وحقيبته المليئة بمائة ألف يورو في عرض البحر، لن يتركوا الحقيبة تفلت من بين أيديهم بهذه السهولة. كان لا بدّ من المساهمة في ترفيه المواطنين الليبيين الذين كانوا يعيشون في بلدهم واحدة من أحلك مراحل تاريخهم.

ولكن لا بدّ أنّكم تتساءلون كيف استطاع صاحبنا الهندي أن ينفذ بجلده مقابل خمسة عشر ألف يورو فقط في حين كانت حقيبته تحتوي على مائة ألف يورو؟

عندما يجيد أحدهم تحويل الماء إلى خمرٍ باستخدام كبسولات ملوّنات مخفية بمهارة في راحة يده، حينما يجيد أحدهم لوي شوكات الطعام المعدنية «المذيب الحراري» بمجرّد نظرة وبعض المداعبات، عندما يجيد أحدهم أن يغرز سنّ الشوكة في لسانٍ مزيّف يبقيه بين أسنانه، يمكنه بالتأكيد بقليلٍ من الذكاء أن ينقذ نفسه من كلّ الورطات وسواها من أوكار الزنابير التي يوقِعُ نفسه فيها.

بهذه الطريقة، حينما أمسك قبطان السفينة بمسدّسه وطلب، بلطفٍ وتهذيب، من آجاتاشاترو أن يفتح حقيبته الوزارية، لم يجد الغريق ما يُعيد قوله ورضخ للأمر. أنارت هالة بنفسجية، من لون

الأوراق النقدية من فئة خمسمائة يورو، وجه الرجل الليبي مثل وجه قرصانٍ يكتشف كنزاً.

- أشكّ أن تكون قد سقطت في البحر خلال مسابقة صغيرة وبريئة بالمنطاد، يا سيّد لا - فاش - باتين، بل أعتقد أنّك تحاول الهرب من أحد ما. ربّما من الشرطة؟ هل سطوتَ على بنكٍ؟

قاطعه آجاتاشاترو بهيئة مقنعة، وكان قد توقّف عن الرجفان وبدا أنّه يسيطر على الموقف لأنّه كان قد وجد فكرة كفيلة بإنقاذه من هذه الورطة:

- لا تتحمّس كثيراً، هذه أوراقٌ نقدية مزوّرة.

صحّح قبطان السفينة الذي لم يستسلم بسهولة للاقتناع بنشّالٍ يفوقه مهارةً:

- إنّ لها مظهر أوراقٍ نقدية حقيقية أكثر من الأوراق المزوّرة!

قال الفقير:

- هذا لأنّها مقلّدة على نحوٍ متقن. كلّ هذه عبارة عن مواد سحرية. وهي لا تساوي فلساً واحداً!

وهو يقول هذا الكلام، أخرج آجاتاشاترو قطعة نقدية من فئة نصف دولار من جيبه ورماها في الهواء.

راهن قائلاً:

- وجه (طرّة)!

وسقطت القطعة النقدية بالفعل على جانب الوجه (الطرّة) في راحة يده.

قال الهندي وهو يرمي ثانية بالقطعة النقدية في الهواء:

- هيّا، مرّة أخرى وجه (طرّة)!

ومرّة أخرى، كسب الرهان.

قال البحار بهيئة الواثق من نفسه:

- أنا أعرف هذه الخدعة، هذا يتعلّق بكلّ بساطة بالطريقة التي ترمي بها القطعة النقدية في الهواء.

قال آجاتاشاترو وهو يعرض الوجهين المتشابهين لنصف الدولار:

- محاولة جيّدة. ولكنّها خاسرة. نستعير غالباً مواهب التلاعب والخديعة من السحرة في حين يكمن كلّ السرّ في المادة... هل تريد دليلاً آخر؟

لم ينتظر الرجل الهندي جواب قبطان السفينة. نبش من جديد في جيب بنطلونه وأخرج منه ورقته النقدية خضراء اللون من فئة المائة يورو. وقلبها عدّة مرات في يده، وعرض وجهها ومن ثمّ قفاها.

قال القبطان الليبي وقد ملّ من هذا المشهد السحري المرتجل والقصير:

- وماذا بعد؟

- حسناً ماذا ترى؟

- ورقة نقدية من فئة مائة يورو.

- أحسنت الملاحظة! هل تبدو لك طبيعية؟

- نعم، طبيعية تماماً. أقصد من النظرة الأولى. لا تكفّ عن قلبها مثل قالبٍ من البيض المقلي.

أبدى له آجاتاشاترو الملاحظة من جديد جاحظاً عينيه الواسعتين ذات لون الكوكا كولا:

- إذاً، ما زلت على خطأ بيّن.

جفل قبطان السفينة.

- بخلاف ما أخبرتك به قبل دقيقة واحدة، المادة المزيّفة وحدها لا تكفي، أحياناً، لأداء الخدعة والإيهام. وبالتالي على الساحر أن يستخدم كل مواهبه في خفّة اليد.

وهو يقول هذا الكلام، أظهر ببطء الوجه المطبوع من الورقة النقدية ومن ثمّ وجهها الأبيض بالكامل.

غمغم البحّار الذي لم يصدّق ما رأته عيناه:

- هذه الورقة النقدية ليست مطبوعة سوى من وجهٍ واحد! هذا مستحيل!

تابع الفقير - الكاتب وهو يُقلّب الورقة النقدية وينقر عليها بأصابعه، كاشفاً عن ورقة نقدية مطبوعة هذه المرّة على وجهها الذي كان أبيض اللون سابقاً:

- المهارة ليست سوى مسألة تمرين وتدريب.

- هذا أمرٌ لا يُصدّق... كيف تفعل هذا؟

تابع الساحر كلامه من دون أن يُصغي إلى الآخر:

- هذه الحقيبة، هي الأخرى، مزوّرة. تشعر أنّها مليئة بالأوراق النقدية، الحقيقية علاوة على ذلك، ولكن كلّ هذا موجودٌ فقط في ذهنك، عدا الاحترام الذي أدين به لرجلٍ مسلّحٍ يصوّب مسدسه نحوي.

أخذ آجاتاشاترو ورقة نقدية بنفسجية اللون من إحدى الرزم، ومدّها قبالته وهو يمسك بطرف أصابعه الزوايا العلوية منها، كما لو أنّه أراد أن يُبدي إعجابه بعلامتها المائية الشفّافة، ثمّ بدأ بثنيها في طيّتين، بطريقة منهجية، ومن ثمّ في أربع طيّات، في ثمان طيّات، وهكذا بالتالي إلى أن أصبح حجم قصاصة الورق لا يتجاوز حجم ظُفر. حينذاك، نفخ على يديه واختفت الورقة النقدية. أخذ ورقة

نقدية أخرى من الرزمة وفعل الشيء نفسه، وقام بهذه العملية لثلاث مرّات بالتتالي.

أضاف آجاتاشاترو وهو يرفع ذراعيه في الهواء لكي تنسلّ الأوراق النقدية الثلاث التي كانت موجودة في كمّه إلى داخل قميصه. إنها أوراق نقدية سحرية. أوراق نقدية مزوّرة.

اعترف الرجل الذي بدأ يعضّ على الطعم:

- أنا لا أفهم كيف يحدث هذا.

قال الفقير كاذباً:

- الأمر بسيط للغاية، هذه الأوراق النقدية مصنوعة من خبز بلا نشاء، من دون خميرة ومن دون سكّر، إنّه منتج طبيعيّ خالص مائة بالمائة. إجراء خبز الذبيحة نفسه الذي يقدّمه الكهنة الكاثوليكيون. الأوراق النقدية تذوب بين يدي، الأكثر سخونة من الهواء المحيط بنا، وتختفي دون أن تترك أثراً.

- يا لك من مخادع!

- ولهذا السبب، وعلى الرغم من أنني أبدو وكأنني أمتلك ثروة حقيقية، لا يمكنني أن أدفع لك أجرة الرحلة، أيّها القبطان، لأنّ هذا المال المدفون ليس سوى خديعة وطعم، إنّه مجرد وهم، بل أكثر من ذلك، إنّه وسيلة لإشباع النهم والشراهة.

لسوء حظّ آجاتاشاترو وضرره الكبير، كان القبطان آدن فيك مولعاً بالشراهة والنهم. ثلاثة آلاف ورقة نقدية بنفسجية، هذا ما كلّفته في النهاية عبور البحر الأبيض المتوسط بالنسبة إلى الغريق، في الحقيقة ثلاث رزمٍ من الأوراق النقدية، أي خمسة عشر ألف يورو. وأكثر من هذا، لوَ أنّ الفقير، الذي استخدم كلّ ثرثرته الأسطورية، لم يخطب فيه ويُلقي عليه المواعظ حول فوائد حمية متوازنة وحول قيمة السعرات الحرارية المرتفعة على نحوٍ فاضح في الخبز الخالي من الخميرة، كان سيترك كلّ الحقيبة المليئة بالمال.

ولهذا السبب، ما أن رست سفينة مالفيل في ميناء طرابلس، في الساعة الثانية من بعد ظهيرة اليوم التالي، نزل آجاتاشاترو بأسرع ما يمكن الجسر العائم الذي يقود إلى الرصيف البحري، وهو يقبض على حقيبة النقود، واختفى وسط حشود الناس وانسحب متوارياً عن الأنظار. تخيّل رأسَ القبطان الليبي وهو يمضغ بصعوبة ماله دون أن يذوب على لسانه، وخاصّة وجهه حينما يكتشف بأن تلك النقود كانت حقيقية وأنّه قد أفلت من بين يديه حقيبة تغصّ بالنقود.

أبحر الهندي وسط موزاييكٍ من الروائح والألوان الجديدة التي ذكّرته إلى أيّ درجة هو وحيدٌ هنا. للحظة، تملّكه الحنين إلى بلاده

وإلى ذويه وإلى عاداته الصغيرة. كانت هذه الأيام التي يمضيها وسط المجهول قد بدأت تُثقل كاهله.

في هذا الجزء من العالم، كان للرجال وجهٌ كامد كما هي الحال في بلاده. ولكن لم يكن لديهم لا عمامة ولا شارب، الأمر الذي كان يجعلهم يبدون أكثر شباباً من رجال بلاده. كان هناك أيضاً الكثير من ذوي البشرة السوداء، مثل فيراج، عيونهم مليئة بالأمل، الذين بدوا وكأنّهم ينتظرون انطلاق سفينة إلى أوروبا تلك المرغوبة كثيراً والتي كان قد غادرها لتوّه بسهولة. من حولهم، كان رجالٌ بالزي المدني أو الزي العسكري الرسمي، ولكنّهم جميعاً مسلّحون بالبنادق الرشّاشة، يقومون بدورياتٍ وهم يدخّنون سجائر مهرّبة لكي يذكّروك بأنّك على الطرف السيئ من البحر الأبيض المتوسط.

في بزّته الوزارية الجميلة التي كانت تشذّ عن الزي المحليّ السائد، من بيجاما رياضية وصنادل رسمية، حاول آجاتاشاترو ألّا يجذب الانتباه إلى نفسه. خلال الساعات الأربع والعشرين التي خلت، سبق له وأن تعرّض للتهديد بمثلّجة وسكّين ومسدّس، وإذ بدت مجموعة الأدوات التي تمّ تهديده بها تزداد خطورة كلّ منها تصاعدياً عن سابقتها، ربّما كان سيجد نفسه، ما لم يأخذ حذره، في مواجهة مدفع رشّاشٍ قديم أصابه الصدأ. كانت البقرة (المقدّسة)(*) قد غدت إذاً لبعض اللحظات فأرة صغيرة بيضاء اللون حذرة تنسلّ، ثريّة بامتلاكها مبلغاً من خمسة وثمانين ألف يورو، نحو ما كانت تعتقده أنّه مخرج الميناء.

(*) La vache (sacrée) : المقصود هو آجاتاشاترو لافاش باتيل، حيث يستثمر الكاتب التطابق اللفظي بين الاسم الثاني للشخصية الرئيسة في الرواية وكلمة (بقرة) في اللغة الفرنسية. - المترجم -

في حين كان يصل إلى أمام حاجز التفتيش، شاهدت الفأرة الهندية، عاجزةً، عملية ابتزازٍ لفتى أفريقي صغير جداً من قبل رجلين عسكريين مدجّجين بالسلاح. كان أحد الرجلين قد ألصق الفتى الغريب على جدارٍ بينما كان الآخر يفتّش جيوبه، بعدم اكتراث، وفي فمه عقب سيجارة. أخذوا منه ما معه من أوراق نقدية وجواز سفره. لقد انتزعوا منه ثمناً باهظاً في السوق السوداء. ثمّ بصق العسكريان على الأرض وعادا إلى محرسهما وهما ينفجران ضحكاً ويُقهقهان عالياً.

أمّا الفتى الأفريقي، وقد جُرِّد من هويته والمبلغ الزهيد من المال الذي كان بحوزته ليضمن به عبوره إلى إيطاليا، فقد ترك نفسه ينزلق خائراً على الجدار مثل فريسة أُفرغت من دمها بحيث لم يعُد يقوى على الوقوف على قدميه. حينما وجد نفسه جالساً على التراب، دسّ رأسه بين ركبتيه كي يختفي من هذا الجحيم.

سرت رعشة باردة في ظهر آجاتاشاترو. لو لم يكن مرئياً وظاهراً مثل سور الصين العظيم على خارطة جوجل إيرث، في ثيابه التي تجعله يشبه مصرفياً، لكان قد جثا على ركبتيه إلى جانب الصبي التعِس وساعده على النهوض والوقوف على قدميه. ولكن من الأفضل له ألا يُلفت الأنظار أكثر إليه.

نعم، كان سوف يجثو على ركبتيه بجانبه ويحدّثه عن إيطاليا أو عن فرنسا، وكان سيقول له بأنّ السفر إلى هناك يستحقّ العناء. وبأنّ لديه أصدقاء لا بدّ أنّهم يقفزون في هذه اللحظة نفسها إلى شاحنة تتّجه نحو إنجلترا، وجيوبهم مليئة بالبسكويت بالشوكولا التي اشتروها في فرنسا، في متجرٍ كبيرٍ كان المرء يجد فيه أشياء بإفراط والذي كان كلّ شيء فيه يبدو وكأنّه يمدّ يده إليك، مهما كانت قليلة

الأوراق النقدية المطبوعة على الوجهين التي تمتلكها. وبأنّه عليه أن يبقى مصرّاً على أنّ أرض الميعاد تكمن هناك، على الطرف الآخر من البحر، على بعد بضعة كيلومترات باستخدام المنطاد. وأن في تلك البلاد، أناسٌ كانوا سوف يساعدوه ويقفوا إلى جانبه. وأنّ «البلاد الجميلة» عبارة عن علبة شوكولا وأنّ مصادفة الشرطة ليس الاحتمال الأكثر وروداً. ثمّ إنّ رجال الشرطة لا يضبطون الناس بعصا غليظة كما كان الحال في قريته الأمّ. كان هناك رجالٌ طيّبون في كلّ مكان. ولكنّه أراد أيضاً أن يخبره بأنّ للحياة ثمنٌ باهظٌ جدّاً لمن يلعب معها، وأنّ ليس هناك أيّ فائدة من الوصول إلى أوروبا ميّتاً، غريقاً في البحر أو مخنوقاً في مخبأ ضيّق داخل عربة صغيرة أو مسموماً في صهريج شاحنة لنقل المحروقات. فكّر آجاتاشاترو مرّة أخرى في تلك الحكاية التي كان فيراج قد رواها له، فكّر في أولئك الصينيين الذين عثرت الشرطة عليهم مكدّسين كل عشرة أشخاص في سقف مستعار مساحته متران مربّعان لحافلة نقل، ومعهم حفاضات قديمة لكي يتبوّلوا فيها. وفكّر في أولئك الإريتيريين الذين بلغ بهم الأمر إلى حدّ اتصلوا هم بأنفسهم بالشرطة باستخدام هاتفهم المحمول لأنّهم كانوا يختنقون في شاحنة بعد أن كان مهرّبٌ قد حبسهم في داخلها. لأنّه بالنسبة إلى المهرّبين، الذين يستغلون هشاشة أوضاع المهاجرين وحاجتهم، كان السعر هو نفسه. سعرٌ قد يتراوح بين ألفي يورو وعشرة آلاف يورو حسب الحدود التي ينبغي عبورها. ولأنّ المهاجرين كانوا يدفعون بعد تحقيق النتيجة، والنتيجة هي أن يصل المهاجر إلى البلد الذي يقصده، لم يكن من المهمّ كثيراً أن يصلوا إلى مقصدهم دفعة واحدة أو في رحلات متقطّعة، أو إذا

ما كان أوّل شيء يراه المهاجر من البلد الجميل غرفة في فندق. وهذا في أحسن الأحوال.

تذكّر آجاتاشاترو ما شعَرَ به حينما سقط في البحر في منطاده، وهو أن يموت وحيداً ومجهولاً، وأن لا يتمّ العثور عليه أبداً، وأن يختفي عن سطح الكرة الأرضية بضربة موجٍ، بضربة ممحاة، هكذا فجأةً. ثمّ أنّ لدى الفتى الأفريقي عائلة كانت تنتظر عودته في مكانٍ ما، على هذه الضفّة، على هذه اليابسة. لم يكن بوسعه أن يموت، لم يكن ينبغي عليه أن يموت.

نعم، لا بدّ أن الرجل الهندي قد أراد أن يقول له كلّ هذا. ولكنّه لم يتحرّك لمسافة سنتيمترٍ واحدٍ نحوه. كان حشد الناس من حوله قد استعاد إيقاع الحياة مثل جموع نملٍ منهمكة في عملها.

ألقى نظرةً نحو المحرس. كان الجنود لا يزالون يواصلون الضحك بإفراطٍ في محرسهم الزجاجي الصغير الشبيه بحوضٍ صغير لتربية الأسماك. إذا لم يسلبوه أمواله هو أيضاً، سيكون القبطان هو الذي قاده إلى هنا والذي قد يخرج قريباً من سفينته مثل امرأة شريرة، وقد امتلأت عيناه بالحقد والتعطّش إلى المال وقد يُعطي أوصافه لجميع الجنود المرتزقة الذين يعجّ بهم المكان، وبوذا يعلم إذا اغتاظ! كان عليه ألّا يبقى في هذا المكان. أخرج آجاتاشاترو ورقة نقدية من فئة خمسمائة يورو كان قد احتفظ بها في جيبه وانسلّ مباشرةً في اتّجاه مخرج الميناء. لدى مروره، لامس الفتى الأفريقي وترك الورقة النقدية تسقط إلى جانبه متمنياً له حظّاً سعيداً في رحلته باللغة الإنجليزية «Good luck» وقد أطلق هذه العبارة من بين لحيته الكثّة بصوتٍ خفيفٍ لا بدّ أنّ المراهق الأفريقي لم يسمعه بكلّ تأكيد.

لقد تمّ الأمر، لقد ساعد لتوّه شخصاً. إنّه عمله الإنساني الأوّل. وكان ذلك بسهولةٍ محيّرة. بتصرّفه بهذه الطريقة، اجتاح إحساسٌ بالراحة كلّ أنحاء جسده. أحسّ أنّ شيئاً يشبه سحابةً صغيرة مشبعة بالبخار قد ولِدَت في صدره وامتدّت في كلّ الاتجاهات نحو أطراف أعضاء جسمه. وعلى نحوٍ سريعٍ، غلّفته السحابة المريحة بالكامل وأحسّ آجاتاشاترو بأنّه يغادر الأرض الترابية لميناء طرابلس على أريكة ضخمةٍ ناعمة الملمس وليّنة. كان ذلك إلى حدٍّ بعيد أفضلُ استرفاعٍ(*) في كلّ مهنته كفقير. وهنا كانت الصدمة الكهربائية الخامسة التي هزّت بعنف قلبه منذ بداية هذه المغامرة التي كان قد أقدم عليها.

كان ربّما سيرتفع في السماء الليبية، من أعلى الحاجز والسياج الشائك للميناء لو لم يناده في تلك اللحظة صوتٌ خشنٌ وقويّ من خلفه. لقد جفل وسقط من جديد على الأرض بكامل ثقله.

(*) استرفاع: رفعُ جسمٍ بقوّة الإرادة وحدها. - المترجم -

احتاج آجاتاشاترو إلى بضع ثوانٍ قبل أن يتصرّف. من خلف ظهره تكلّم صاحب الصوت من جديد وحذّره:

- هيه!

فكّر الهندي في نفسه قائلاً: قُضي الأمر، لقد غُلبت، لا شكّ أن قبطان السفينة قد أرسل إليّ جلاوزته. وبدأ قلبه يخفق بضربات قوية في صدره. ما العمل؟ هل ألتفت وكأنّ شيئاً لم يكن؟ هل أتجاهل الصوت وأنطلق راكضاً مثل مجنونٍ نحو مخرج الميناء؟ سوف يتمّ الإمساك به سريعاً.

- هيه، آجا!

في البداية اعتقد الهندي بأنّه قد أخطأ السمع.

- لافاش!

أدار آجاتاشاترو رأسه ببطء وحذر. مَن يكون إذاً هذا الشخص الذي يعرف اسمه جيّداً؟

- لا تخف يا آجا، هذا أنا!

هنا، تعرّف الكاتب على ذلك الصوت الأجشّ الذي كان قد سمعه للمرّة الأولى عبر الفاصل السميك لخزانة في شاحنة كانت تهتزّ

على الطريق. ذلك الصوت المرعب الذي روى له كلّ أسراره دون أن يهتزّ أو يرتجف أبداً.

كان هو نفسه.

كان فيراج.

كادت الدموع تفيض في عيني آجاتاشاترو تأثراً. أفرجت شفتيه عن ابتسامة عريضة وارتمى الرجلان في أحضان بعضهما وتعانقا بحرارة.

من جهةٍ، كان الهنديُّ سعيداً بلقاء صديقه من جديد، فقد وجد أخيراً وجهاً معروفاً في هذا الجزء من العالم حيث لم يكن أيّ شيءٍ فيه مألوفاً بالنسبة إليه. ولكن من جهة أخرى، إذا كان فيراج هنا، في ميناء طرابلس، هذا يعني أنّه لم يكن في إسبانيا، أو في فرنسا، وأنّه لم يكن يتهيّأ لعبور الحدود مع المملكة المتّحدة كما كان قد تصوّر. وهذا الأمر جعله حزيناً.

صرخ الرجل الأسود طويل القامة وهو يضع حدّاً لعناقه ويربّت على كتفه:

- ها أنت إذاً يا آجاتاشاترو، لا تزال تمتلك المهارة والخفّة لكي تظهر حينما لا ننتظرك!

- العالم هو منديلُ جيب مصنوع من الحرير الهندي.

تابع فيراج وهو يشير إلى البزّة الجديدة للهندي وحقيبته:

- يبدو أنّ أمورك تسير على ما يُرام. تبدو وكأنّك ثريٌّ صناعيّ هندي. من أين خرجت؟

أشار آجاتاشاترو إلى السفينة **مالفيل**.

قال الرجل السوداني دون أن يفهم كثيراً:

- هذه السفينة قادمة من إيطاليا! يبدو وكأنّك لم تستقلّها في الاتجاه الصحيح!

شرح له الفقير السابق للمرّة الثالثة في حياته بأنّه لم يكن مهاجراً سريّاً مثله وبأنّه لم يكن يحاول الذهاب إلى إنجلترا.

تابع حديثه أمام النظرة المرتابة للرجل الأفريقي:

- اسمع، أنا مدينٌ لك بشرحٍ في الشاحنة. للأسباب التي تعرفها، لم أستطع أن أروي لك حكايتي. ولكن الآن، وبفضل القدر، التقت طريقانا من جديد. أعتقد أنّه قد آن الأوان لكي أروي لك.

قال الآخر:

- إنّه القدر، لقد كان مكتوباً علينا.

جلس الرجلان إلى طاولةٍ عليها بيرة ساخنة، في بارٍ بائسٍ يقع على أطراف الميناء، هرباً من العساكر ومن الفوضى التي كانت تدبّ في المدينة، وانخرطا في حديثٍ بقلبٍ مفتوح.

منذ أن غادرا برشلونة، كان فيراج، الذي يسافر الآن لوحده، قد عاد على أعقابه بموجب الاتفاقيات الدولية الخاصّة بالقبول المتجدّد للاجئين. وكان قد أُرسِل من بلدٍ إلى بلد وكأنّ الدول كانت تلعب معاً لعبة كبيرة لقنبلة يدوية نُزِع مسمار أمانها.

أوّلاً الجزائر، ومن ثمّ تونس وأخيراً ليبيا. مثل فرخٍ غريب يعلم أنّه لم يسلك أبداً هذا الطريق الذي عليه أن يسير فيه. ولكن الأمر سيّان. كان الهمّ الوحيد بالنسبة إلى السلطات هو نقل حبّة الملبّس المسمومةِ هذه إلى علبة الشوكولا المجاورة. وقد نجحت بطريقة ما في اختراع منجنيقها المصنوع لرمي المهاجرين.

كان الرجل السوداني، الذي لن يستسلم أبداً ولن يتراجع عن السفر لأنّ عودته إلى بلاده بخفيّ حُنين ستكون في آنٍ واحد بمثابة إهانة كبيرة وإخفاقٍ شخصي وهدرٍ فاضحٍ للأموال بالنسبة إلى تلك القرية التي كانت قد استدانت له المال لكي يسافر، كان يستعدّ

ويُهيّئ نفسه الآن لكي يعبر من جديد البحر الأبيض المتوسط نحو جزيرة لامبيدوزا الإيطالية الصغيرة.

حينما نفكّر في هذا الأمر، سنقول يا له من كبتٍ وحرمان! لنفكّر أنّه قد وطئ أرضه الموعودة، إنجلترا، قبل بضعة أيام خلَت. كان هناك. لو أنّ الشرطة لم توقف تلك الشاحنة اللعينة فقط.

- ولكنّك تعلم، نحن لسنا الأكثر تعرّضاً للغبن. أثناء رحلة طيران لترحيلنا إلى الوطن، تحدَّث معي شخص صيني شرح لي بأنّهم قد دفعوا مبالغ طائلة لكي يسافروا إلى أوروبا باستخدام الطائرة، وباستخدام جوازات سفر مزوّرة بتقنية ونوعية عالية، وبأنّهم ما أن وصلوا إلى فرنسا، اضطروا لأن يعملوا طيلة النهار والليل في الورشات السرّية لصناعة الألبسة الجاهزة في ضواحي باريس لكي يُسدّدوا للمهرّب ما يترتّب عليهم من أموال. والصينيون يتميّزون بثقافة احترامٍ عالية جدّاً بحيث لا يحاولون حتى الفرار أو المناورة أو الانسحاب. سوف يُفضَحون وستكون هناك فضيحة كبيرة بالنسبة إليهم إذا لم يُسددوا ما يستحق عليهم من أموال لقاء العبور. إنّه نوعٌ من الالتزام الأخلاقي. وبالتالي ينكبون على ماكينة الخياطة خاصّتهم وينهمكون في العمل. الفتيات الجميلات من جهتهنّ لا يُعاملن معاملة حسنة. يتمّ احتجازهنّ في شققٍ قذرة ويُرغمن على ممارسة الدعارة لتسديد كلفة الانتقال نحو هذا الفردوس الموعود الذي سرعان ما يتّضح أنّه يغدو صورة مصغّرة من الجحيم.

هكذا تكلّم فيراج، من دون أن يدري بأنّ الفتيات الأفريقيات يخضعن للمصير نفسه.

ختم حديثه قائلاً:

- ها أنت ترى، نحن لسنا الأكثر تعرّضاً للغبن. سواءً كنّا بيضاً أو سوداً أو صفراً، نحن في سجن الأشغال الشاقّة نفسه.

- الأكثر تعرضاً للغبن، لا أدري ذلك، ولكن هذا أهوَن الشرور، يا فيراج.

- وأنت يا آجاتاشاترو، هل سوف تروي لي حكايتك تلك؟

شرب الهندي جرعة من البيرة الساخنة، ولأنّه كان لديهما متّسعٌ من الوقت، بدأ من نقطة بداية حكايته وبالتفصيل:

- أنا ولدتُ بين 10 و15 يناير عام 1974 (لا أحد يعرف في أيّ يومٍ بالضبط ولِدت) في جيبور، في الهند. ماتت والدتي أثناء الولادة. حياةٌ حلّت محلّ حياة. وهذا هو الثمن الذي ينبغي علينا أن ندفعه غالباً حينما نولد من عائلة فقيرة. ولأنّ والدي لم يكن قادراً على أن يعتني لوحدهِ بطفلٍ رضيع، فقد أرسلني لكي أعيش عند شقيقته، والدة جامليداناب، ابن عمّتي المفضّل (أنا أعتبره بمثابة أخٍ لي). كانت عمّتي فولداوا (الفظوا: *Fous le dawa* «انشر الدعوة») تعيش في قرية كيشانيوغور الصغيرة، على الحدود مع باكستان، في صحراء تارتار. وقد ترعرعتُ وكبرتُ هناك في تلك القرية، في وسط اللامكان. ولكنّ عمّتي، التي اعتبرتني فماً إضافياً ينبغي إطعامه أكثر ممّا اعتبرتني فرداً مستقلاً تماماً عن العائلة، فعلت كلّ شيء لكي أشعر بأنني فائضٌ عن العائلة. ولهذا السبب كنتُ ألجأ دائماً إلى بيت الجارة سيهرينغ التي اعتنت بي وربّتني مثل ابنها تماماً. لا بدّ أنّ ذلك لم يكن سهلاً بالنسبة إليها كلّ يوم. كنتُ طفلاً مشاغباً وصاخباً ولكنني كنتُ أيضاً فضولياً وعطوفاً وودوداً. ولأنّ الحكايات التي كانت تخترعها لي كانت تهدّئني، كنتُ أحلم آنذاك بأن أصبح بدوري كاتباً أو راوياً للحكايات. في تلك الفترة، كنا نكاد لا نأكل بسبب

الفقر. لم تكن لدينا نقود. كنا نعيش مثل هولنديين، كلا، مثل نياندرتاليين (أنا أخلط دائماً بين هاتين الكلمتين)(*). ذات يوم، مرّ رجلٌ إنجليزي بالقرية، وكان عالماً جيولوجياً جاء لكي يدرس صحراء تارتار، وهو الرجل الوحيد الذي كان يهتمّ بكومة من الرمل والذي لم أكن أعرفه في حياتي، وقد أطلعني هذا الرجل على قدّاحةٍ وقدّمها لي مقابل «خدمة ممتعة». في تلك الفترة، لم أكن أعرف ما هي القداحة. ولا ما هي «الخدمات الممتعة». لم أكن أبلغ من العمر سوى تسعة أعوام. ولكنّه كان قد تمّ استغلالي بما فيه الكفاية.

باختصار، قدح الرجل الإنجليزي شراراتٍ صغيرة باستخدام إبهامه ووجدتُ ذلك الأمر ساحراً. ظهر لهبٌ أزرق جميل، هناك، وسط تلك الصحراء. وقد رأى بأنني مهتمٌّ ومفتونٌ بذلك الجهاز. فسألني الرجل: تريد الحصول عليه، أليس كذلك؟ وبهذه الطريقة، وجدتُ نفسي أفعل شيئاً لم أكن أدركه، سعيداً بفكرة حصولي على ذلك الجهاز لقاء ما أفعله. لقد فهمت! قدّاحة لعينة! وأنا الذي لم أكن سوى صبيّ صغير.

انطلقت جرياً نحو أصدقائي وأطلعتهم على القداحة. ينتابنا شعورٌ من التفوّق حينما نقوم بأداء خدعة سحرية. بكلّ بساطة، لأننا الوحيدون الذين نعرف أسرارها. ولأننا نثير إعجاب الآخرين. هذا الشعور تحوّل سريعاً إلى نوعٍ من المخدّر، صدّقني. أنا الطفل الذي يعيش في الصحراء ويعاني من الفقر الشديد، أُثير إعجاب الآخرين،

(*) في اللغة الفرنسية، ثمّة تقاربٌ لفظي بين كلمة Néerlandais التي تعني (هولندي) وكلمة Néandertalien التي تعني (إنسان نياندرتال القديم).
- المترجم -

هل لك أن تتصوّر ذلك؟ لقد أصبحتُ فقيراً هندياً. وكم استطعتُ أن أسلب بذلك أموال صبيان من المدينة والأذكياء منهم، فضلاً عن ذلك! لأنّ الأذكياء هم الأكثر سهولة في التعرّض للنصب والاحتيال. إنّهم واثقون من أنفسهم، وبالتالي لا ينتبهون لما يتعرّضون له. يعتقدون بأنّ لا أحد يستطيع النيل منهم. وفجأةً، يُسقَطُ في يدهم! إنّ ثقتهم بأنفسهم هي ما تضيّعهم. أمّا الأغبياء، فالأمر مختلفٌ بالنسبة إليهم. إنّهم معتادون على أن يُعامَلوا على الدوام على أنّهم أشخاصٌ مغفّلون، وبالتالي ما أن يواجهوا مخادعاً، يبدون حرصاً أكبر وانتباهاً أشدّ. يدقّقون في كلّ حركاتك ولا يبارحونك بنظراتهم. لا يدعون أيّ شيء يمرّ عليهم. ومن جرّاء ذلك، وعلى نحوٍ مفارقٍ، من الأصعب عليك بكثير أن تشوّشهم أو أن تربكهم. روبير - هودين هو مَن قال هذا الكلام. وهو ساحرٌ فرنسي. وكان محقّاً في كلامه هذا. أخيراً، وباختصار، خلال فترة مراهقتي، عشتُ لبعض الوقت عند يوغانيّ(*) راجستاني جليلٍ ووقور. لقد تعلّمتُ منه كلّ شيء. تعلّمت على يديه فنّ التهام رزمٍ مكوّنة من اثنين وخمسين بطاقة (كنتُ صعب المزاج علاوة على ذلك ولم أكن ألتهم سوى الأوراق من ماركة بيسيكل)، كما تعلمتُ منه أن أسير على الجمر وعلى كسرات الزجاج، وأن أخرق جسدي بأواني المطبخ وأن أغدق على معلّمي، لقاء معارفه، بـ«خدمات ممتعة». واستخلصتُ من ذلك بأنّ تلك كانت طريقة سائدة للشكر عند الأشخاص الكبار. وقد قرأتُ بنهم كلّ الكتب المكتوبة عن موضوع السحر، هوديني، روبير - هودين، تورستون ماسكيلين. كنتُ أجعل حبلاً يرقص على أنغام مزماري ثمّ

(*) يوغاني: زاهدٌ هندي يُمارس تمارين اليوغا. - المترجم -

أتسلّق به قبل الاختفاء وسط سحابةٍ من الدخان. كانت مهارتي الكبيرة تكمن في أنّهم نسبوا إليّ سريعاً قدرات خارقة للطبيعة. أصبحتُ نصف إلهٍ في القرية. لو أنهمّ كانوا يعرفون. في الواقع، كانت قدرتي الوحيدة هي أن لا أدعهم يكشفون أمري ويمسكون بي أبداً! مهما يكن من أمر، فإن شهرتي وذيوع صيتي قاداني وأنا في الخامسة والعشرين من عمري إلى أمام أبواب القصر الذهبي للمهراجا ليغرو سينغ لي حيث تمّ توظيفي هناك بصفة فقير - مهرّج.

وكان هدفي وعملي هو تسلية البلاط. بكلّ السبل والأساليب. وبالتالي كنتُ أعيش في عالمٍ من الكذب والزيف والخداع. وهذا الخداع سرعان ما ارتدّ عليّ. أنت تُدرك، كان عليّ أن ألتصق بالشخصية التي كنتُ أمثّلها وإذ كان الأمر أكثر مشهديّة أن أزعم بأنّني لا أتغذّى سوى على البراغي والمسامير الصدئة بدلاً من الغذاء الطبيعي، وبالتالي لم تكن الناس تقدّم لي سواها لكي أتناولها. كنتُ أموت جوعاً. قاومتُ لمدّة أسبوع هذا الجوع الشديد. ذات يوم، وإذ لم يعُد بوسعي الاستمرار في ذلك، سرقتُ بعض الطعام من المطبخ وقمتُ بالتهامها بعيداً عن أعين الفضوليين. وقد تمّ ضبطي بالجرم المشهود. غضب المهراجا غضباً شديداً. ليس بسبب السرقة التي ارتكبتها وإنّما لأنني كذبتُ عليه. لم أكُن أتغذى على المسامير والبراغي وإنّما على الدجاج والقريدس، مثل كلّ الناس. كنتُ قد اعتبرته أبلهاً إجمالاً، وكان هذا أمراً صعباً على أن يُقبَل بالنسبة إلى رجلٍ في مكانته. قبل كلّ شيء، حلق شاربي، وهذه إهانة لا تضاهيها إهانة، ثمّ طلب منّي المهراجا أن أختار بين أن أُحبَس بين الأطفال المحبوسين بسبب السرقة أو بسبب ارتكاب الجُنَح في المدارس، أو أن تُبتَر يدي اليمنى. «في نهاية المطاف، لا يخشى الفقير لا الألم ولا

الموت» قال لي المهراجا الغاضب مع ابتسامةٍ عريضة. بالطبع، اخترتُ الحلّ الأوّل. ولكي أشكره على كونه قد ترك لي الخيار في أن أختار عقوبتي، اقترحتُ عليه أن أقدّم له «خدمة ممتعة»، وذلك بكلّ ما في الكون من براءة. ألم يكن ذلك علامة على العرفان بالجميل عند البالغين؟ لم يكن أحدٌ قد أخبرني بأنّ هذا أمرٌ سيئ. كنتُ لا أزال بكراً في هذه الأمور. اغتاظ المهراجا أشدّ الغيظ وطردني من القصر وهو يركلني بقدميه على قفاي. أنا أفهم تصرّفه ذاك. الآن حينما أفكّر في ذلك الموقف، أشعر بالخجل. وإذ بقيتُ من دون نقود، عدتُ إلى عملي كنصّابٍ بدوي. لقد خدعتُ الجميع، خدعتُ شعبي والسيّاح الوافدين إلى البلد والعابرين فيه، باختصار، لقد خدعتُ كلّ الذين صادفوا طريقي. مؤخّراً، أوهمت الجميع بأنّه أمرٌ حيويّ بالنسبة إليّ أن أشتري أحدث طرازٍ من السرير ذي المسامير والذي عرضته شركة ايكيا في متاجرها في الأسواق. وقد وقعوا جميعاً في الفخّ وخُدِعوا بكلامي هذا! كان بوسعي أن أقول لهم بأنني سوف أذهب لكي أحصل على الصوف الذهبي(*). ساهمت القرية بأجمعها في جمع المال اللازم لتغطية نفقات رحلتي وشراء السرير المطلوب. بكلّ تأكيد، لن أنام في سريرٍ ذي مسامير. لديّ سريرٌ وثيرٌ مخفيّ في خزانة صالون المنزل. ولكنني كنتُ أعتقد بأنني سوف أستطيع أن أعيد بيعه فيما

(*) الصوف الذهبي: هو صوف خيالي لكبش طائر خيالي تناقلته الأساطير اليونانية. كان هذا الصوف موضوع بحث مشهور قام به البطل اليوناني الخرافي جاسون ومجموعة من الرجال تدعى بحارو الأرغو. وقصة الصوف الذهبي الخيالية كانت تدور أحداثها في مملكة ثيساليا اليونانية التي كان يحكمها الملك أثاماس الذي طار كبشٌ ذو صوفٍ ذهبي بولديه اللذين أراد التضحية بهما قرباناً للآلهة.

بعد. ربّما كان ذلك حتى مجرّد نزوة، لا أعلم شيئاً عن ذلك، أو ربّما أردتُ أن أعرف إلى أيّ حدّ يُمكن لهؤلاء القرويين السُذّج أن يدفعوا لي ما أريد من أموال. استدانت القرية أموالاً من أجلي، كما فعلت قريتك من أجلك، يا فيراج. أمّا أنا، فقد فعلتُ ذلك بدافعٍ من الخديعة. بدافعٍ من الأنانية. لم أكن أرغب في تقديم المساعدة لأيّ شخص. أناسٌ كنتُ أعرفهم منذ الطفولة تبرّعوا بنقودٍ من أجلي في حين لم يكن لديهم ما يأكلونه لسدّ رمقهم. وكلّ ذلك على أمل مساعدتي، مساعدة هذا النصف - إله الذي غدوته. ولكن هذه القرية غيّرتني. لم أعُد قطّ الشخص نفسه الذي كنتُه سابقاً. حكايتك هي التي هزّتني في البداية وقلبت كياني، ومن ثمّ لقاءات مع أشخاصٍ آخرين حدثت تحت رحمة كلّ هذه الأحداث غير المتوقّعة والتي علّمت طريق رحلتي حتى وصلتُ إلى هنا، وحبّ ماري، سوف أحدّثك عن هذا الحبّ، وصداقة صوفي، سوف أحدّثك عن هذه الصداقة أيضاً. ومن ثمّ هذا المبلغ من المال البالغ خمسة وثمانين ألف يورو في هذه الحقيبة. تمهّل، لا تنظر إليّ بهذه الطريقة، يا فيراج، سوف أحدّثك عن هذا الموضوع.

بعد أن سرد له بالتفصيل الأحداث الأخيرة، أنهى آجاتاشاترو في جرعةٍ واحدة قارورته من البيرة الساخنة وحدّق في فيراج بعينيه ذات لون الكوكا كولا. لم يقل صديقه شيئاً ولم يتفوّه بكلمة واحدة لأنّه لم يكن يدري ماذا يقول وأيّ رأي يُبدي. كانت الحكاية قد أذهلته وعصفت بذهنه. ألا تكون رغبة الرجل الهندي في التكفير عن ماضيه واستعادة سمعته خدعة جديدة، كذبة جديدة؟

نظر آجاتاشاترو إلى الحقيبة، ومن ثمّ إلى صديقه السوداني على نحوٍ مفاجئ، ومن ثمّ نظر مرّة أخرى إلى الحقيبة المليئة بالمال. كان متأكّداً من ذلك. لقد وجد أخيراً الشخص المناسب الذي عليه أن يُساعده. كانت تلك حقيقة بديهية. أعاد التفكير من جديد في رحلة الرجل السوداني التي بدت أنّها، كما هو الحال بالنسبة إلى رحلته، لن تنتهي أبداً.

تذكّر أيضاً الشعور بالراحة والسعادة الذي انتابه حينما أعطى الورقة النقدية من فئة خمسمائة يورو للفتى المهاجر الذي صادفه في ميناء طرابلس، والسحابة التي نمت في داخله وغلّفته بعذوبة لطيفة وأراحته من الداخل. كان قلبه يخفق آنذاك بقوّة في صدره. كان قد اكتشف آنذاك بأنّ ثمّة شعورٌ أقوى بكثير من الارتياح المتعجرف

الذي ينتابه حينما يأخذ شيئاً ما من أحدهم عن طريق الحيلة والمخالفة، إنّه الشعور الذي يشعر به حينما يُقدّم هذا الشيء الذي أخذه إلى شخصٍ يحتاج إليه. كانت المساعدة التي قدّمها للفتى الأفريقي مجرّد ضربة البداية، مجرّد محاولة أولى بالنسبة إليه، سوف يُنفّذ الآن ضربة المعلّم وسوف يكون هذا عملاً رائعاً بالنسبة إليه.

ألقى آجاتاشاترو نظرات خاطفة وقصيرة من حوله في كلّ الاتجاهات. كانا جالسين إلى طاولةٍ في ركنٍ معزولٍ من البار. ولم يكن هناك في البار سوى زبونين وهما بحّاران ماهران مسنّان كانا يتحدّثان بلغتهما الأمّ وقد بدا أنّهما يرويان لبعضهما مغامراتهما خلال مسيرتهما المهنية. كانا يرفعان نخب بعضهما في صخبٍ وضجيجٍ ربّما لكي يهنّئا بعضهما على أنّهما لا يزالان على قيد الحياة بعد عمرٍ قضياه في تحدّي أهوال البحر.

فتح الرجل الهندي حقيبة النقود، وأمسك بالعديد من رزم الأوراق النقدية، عدّها ومن ثمّ وضعها أمام الرجل السوداني.

- هذا المبلغ، هو لك، يا فيراج. إنّه لذويك وأهلك. أربعون ألف يورو.

وفي الحال، أغلق الحقيبة من جديد.

- ما تبقى من المال في هذه الحقيبة سيكون لأهلي وأبناء قريتي، كلّ الذين خدعتهم وأغويتهم بحيلي، ودنّستهم بأفعالي. أربعون ألف يورو لكي أكفّر عن ذنوبي وأستعيد سمعتي وكرامتي، لكي أقدّم لهم ما يحتاجون إليه من طعام، وأن أوفّر لهم ظروفاً حياتية ملائمة ومريحة.

ظلّ فكّ فيراج معلّقاً في الفراغ لشدّة الذهول أمام الموقف. في

البداية، لم يكن قد صدّق كثيراً حكاية الناشر الفرنسي في روما، والرواية التي كتبها على قميصه، والمخطوطة والسلفة التي قبضها آجا على الحساب من مبيعات الرواية، ولكن كان عليه الآن أن يرضخ لحُكم الواقع. وإلّا من أين سيكون الراجستاني قد استطاع الحصول على كلّ هذا المبلغ من المال؟

غمغم الرجل الأسود طويل القامة:

- مع حصولي على هذا المبلغ الكبير من المال، ربّما لن تعود لي حاجة إلى السفر إلى إنجلترا. هل تفهم، يا آجا، سيكون بمقدوري أن أعود بهدوء ومرتاح البال إلى السودان، إلى بيتي...

قال هذا وقد ومضَ بريق الحنين في عينيه.

- ولكنني لا أستطيع الموافقة على أخذ هذا المبلغ والقبول به.

لا بدّ أنّ آجاتاشاترو قد اعتقد أنّ الإحساس بالراحة والسعادة الذي حصل عليه من جرّاء تقديمه المكرمة سوف يكون متناسباً مع المبلغ الممنوح. وبالتالي كان يتوقّع بأنّ يكون أكثر راحة وسعادة بثمانين مرّة ممّا شعر به من راحة وسعادة حينما أسقط الورقة النقدية من فئة خمسمائة يورو بجانب الفتى الأفريقي الذي كان قد تمّ سلبه بمنتهى الحقارة والدناءة في ميناء طرابلس. ولكن لم يحصل ذلك في الحقيقة. لم يكن المبلغ الذي يتمّ منحه هو المهمّ في الأمر، وإنّما فقط فعل العطاء هو الذي كان يمنح هذا الإحساس بالراحة والسعادة بمعزل عن مقدار المبلغ. فقد أحسّ من جديد بالشعور نفسه الذي انتابه في المرّة السابقة، وبتلك القوّة نفسها. رفعته سحابة من الراحة والحبور عن الطاولة ومن ثمّ رفعته نحو سقف البار وحلّقت به عالياً.

ولكن الجملة الأخيرة التي نطق بها فيراج فعلت في آجاتاشاترو فعل قنبلةٍ وسقط من جديد على الأرض.

- بل عليك أن توافق على أخذه! ليس من الوارد أن أعود وأسافر ومعي هذا المبلغ من المال. إنّه لك، يا فيراج، خذه!

- هذه نقودك. وقد حصلت عليها بطريقة شريفة، ولمرّة واحدة فقط (شدّد على هذه العبارة الأخيرة)، من خلال كتابتك لكتابك.

- حسناً هذا هو الأمر بالضبط، إذا كانت النقود لي، فأنا حرٌّ في أن أفعل بها ما يبدو لي أمراً حسناً.

ما كان آجاتاشاترو ليعتقد أنّه سيكون من الصعب بالنسبة إلى مهاجرٍ سريّ أن يقبل أربعين ألف يورو عدّاً ونقداً.

- افعل هذا من أجلي، يا فيراج. وداعاً لعنابر السفن وصناديق السيارات وشاحنات البضائع بعد اليوم. أريد أن تكون رجلاً حرّاً، وليس رجلاً مطارداً يعيش في ظلّ خوفٍ دائم. لا أريدك رجلاً تُرحّلُ من بلدٍ إلى بلد. عُد وكُنْ أباً من جديد. أولادك ينتظرونك.

تردّد فيراج لوقتٍ طويل، تردّد لما يقارب ثانيتين، ولكنّه وافق.

الأوراق النقدية، مثلها مثل الخنازير تماماً، لديها نزوعٌ طبيعي إلى النوم مصفوفة إلى بعضها في وضعية البطاريات AAA في علبة تغذية جهاز التحكم الخاصّ بالتلفزيون. ورقةٌ نحو الأعلى وورقة نحو الأسفل، ورقةٌ نحو الأعلى وورقةٌ نحو الأسفل. بهذه الطريقة نفسها، صفّ آجاتاشاترو رزم الأوراق البنفسجية التي أبقاها في حقيبته لكي يسدّ بها المساحة الشاغرة التي تركتها الأوراق النقدية التي تبرّع بها لصديقه السوداني.

كان على كلّ واحدٍ منهما أن يسلك دربه ويستأنف مشواره. كان أحدهما سوف يرحل باتجاه الشمال، بينما سوف يتوجّه الآخر نحو الجنوب، ولكن الرجلين سوف يحتفظان إلى الأبد بذكرى كلّ ما تقاسماه معاً.

هل يمكن أن يلتقيا من جديد، يوماً ما؟ إنّه القدر المكتوب. هل يمكن أن يكون مكتوباً لهما أن يلتقيا مرّة أخرى؟ العالم منديل جيبٍ حقيقي مصنوع من الحرير الهندي.

كان الكاتب الهندي جالساً في المقعد الخلفي لسيارة أجرة، وهو في طريقه إلى المطار. كانت السيارة الأخيرة التي استقلّها هي بمثابة نقطة الانطلاق لهذه المغامرة العجيبة، إذا صحّ القول. أمّا

هذه السيارة، والتي كانت مقاعدها أقلّ راحة بكثير ولكنّ سائقها لم يكن يسعى إلى قتله، سوف تحدّد نهاية هذه المغامرة العجيبة.

كان القرار متّخذاً. سوف يستقلّ الهندي أوّل طائرةٍ متوجّهة إلى باريس، وسوف يلتقي مع ماري، وسوف يوافق على الذهاب بصحبتها وشرب كأسٍ معها، أو شراء مصابيح من متجر ايكيا بصحبتها، ولن يسحب يده حينما تداعبها يد ماري، وسوف يقضي أمسياته وسهراته في النظر إلى رموشها الجميلة والمقوّسة والتي ترمش بها على إيقاع دقّات قلبه. وسوف يكشف لها كلّ الحيل والخدع السحرية التي ترغب في معرفتها وسوف يُعيد كتابة خاتمة روايته، وهو يُهدهد رأس حبّه على كتفها.

لم يعد لديه أيّ شيء يفعله في ليبيا. أو بالأحرى، لم يكن لديه بالأساس أيّ شيء يفعله في هذه البلاد، مثل شجرة بلوطٍ قد تجد نفسها، بين ليلةٍ وضحاها، وقد أُعيد غرسها في صحراء الصحراء الغربية. لم يعد له خاصّة أيّ شيءٍ يفعله في الهند. لم يعد لآجاتاشاترو لافاش باتيل الجديد أيّ مكان هناك. مثل ثعابين الكوبرا التي سحرها خلال مهنته، كان جلده قد انسلخ عنه. وكان قد ترك في كيشانيوغور جلد نصّابٍ عجوز. لم يعد بوسعه أن يعود إليها ويعترف لسكانها بأنّ حياته لم تكن حتى هذه اللحظة سوى مسخرة كبيرة. لن يعود بوسعه أن يعيد إلى الناس الأمل والوهم اللذين كان قد سرقهما منهم. لن يعود الناس يفهمون أيّ شيء. لقد عاد آجا، نعم هذا صحيح، ولكنّه لم يعد فقيراً، لم يعُد يرغب في أن يرتدي حفاضاته الضخمة الخاصّة بالأطفال الرضّع، بل يرغب في أن يرتدي قمصاناً جميلة وأنيقة. في الحقيقة، لم تعد لديه سلطات وقدرات على الإطلاق. كان كلّ ذلك فقط لكي يأخذ منكم نقوداً.

أن يأخذ منكم مدخّراتكم الشحيحة. إنّه غير قادرٍ على تحويل الماء إلى خمر، ولا يستطيع أن يُشفي المرضى المصابين بالسرطان، بل كان أضعف بكثير من أن يتحمّل أخذ عيّنة من الدم للتحليل، فما بالكم أن يغرز شوكة طعامٍ في لسانه! حسناً، لقد سبق لكم وشاهدتموه وهو يفعل ذلك؟ نعم، ولكن كان ذلك لساناً من مادة اللاتيكس!

كلا، حقّاً، لم يعد بوسعه أن يعود إلى قريته ويواجه سكانها. كان عليه أن يبدأ حياةً جديدة في مكانٍ آخر، بعيداً جدّاً عن قريته. في بلدٍ لا يكون هناك خطر أن يصادف شخصاً واحداً من قريته الأمّ. سوف يتّصل بجاملیداناب وسيهرينغ ما أن يصل وسوف يشرح لهما الأمر. لا شكّ أنّ ذلك سوف يسبب لهما الألم والحزن، ولكنّهما سوف يتفهّمان وضعه. سوف يرسل إليهما خمسة وثلاثين ألف يورو. سوف يمنح هذا المبلغ لهما وكذلك لأهل القرية، لكي لا يعيشوا بعد الآن في ظلّ الحاجة والفاقة. وبهذه المنحة، سوف يتفهّمان الأمر حقّاً. سوف يحتفظ بمبلغ عشرة آلاف يورو لنفسه، لنفسه ولصديقته ماري، كان عليه أن يبدأ التفكير بشخصين بدءاً من الآن. سوف يكون هذا المبلغ بالنسبة إليهما السجّادة المتحركة التي سوف تنقلهما نحو حياتهما الجديدة. حياةٌ شريفة وبريئة وطبيعية خالية من شوائب الماضي وأدرانه.

حياةٌ ستكون مليئة بالحبّ أيضاً. هذا أمرٌ مؤكّد.

ولكن لدى وصوله إلى مطار طرابلس الدولي، انهارت كلّ المشاريع التي أعدّها لتوّه مثل قصرٍ من ورق الشدّة المزيّف. كانت آخر طائرة متوجّهة إلى مطار رواسي - شارل ديغول قد أقلعت يوم أمس ومن غير المتوقّع أن تُقلع الطائرة المقبلة قبل يومين، بل وأكثر،

وهو الوقت المطلوب لطرد آخر المتمردين الذين كانوا يحتلون مدرج المطار.

كانت عمامة الهندوسيين تُستخدَم سابقاً من قبل هنود الصحراء وذلك لقياس عمق الآبار. وللمرّة الأولى منذ عدّة سنوات، نزع آجاتاشاترو عمامته لكي يقيس بها عمق حزنه وشقائه.

لقد استغرق تحرير المدرجين الإسفلتيين لمطار طرابلس الدولي من المتمردين وقتاً أطول مما كان متوقّعاً. كان لا بدّ من الانتظار لخمسة أيام. خمسة أيامٍ طويلة لا تنتهي ظلّ خلالها آجاتاشاترو محبوساً في غرفته في الفندق، لا يخرج منها سوى لشراء بعض الأطعمة الخفيفة. لا يشعر المرء بالجوع حينما يكون عاشقاً. والشعور بالجوع يضعف أكثر حينما يكون المرء عاشقاً في بلدٍ في حالة من الحرب. وبالتالي كانت بعض الرقائق وألواح من الشوكولا وبعض السكاكر تكفي وتفيض عن الحاجة. وكذلك حمّامات ساخنة منعشة.

مع كلّ النقود التي كانت بحوزته، كان بإمكانه أن يرتاد أفضل مطاعم العاصمة الليبية ويتناول أفخر أنواع الأطعمة فيها، هذا بالتأكيد ما تفكّرون فيه. إذاً لماذا ظلّ لخمسة أيام محبوساً في مطارٍ؟ حسناً لأنّ جوّ الفوضى السائد في المدينة لم يكن يمنح الرغبة لشخصٍ غريب في أن يتجوّل في الشوارع، وجيوبه مليئة بالنقود، بحثاً عن مطعمٍ لتناول الطعام الشهيّ فيه. لم يعد هناك تقريباً دبابات في الشارع والجيش لم يعد يرغم الأجانب على الإبحار في قوارب

صيد كبيرة لكي يغزوا الشواطئ الإيطالية مثلما كان يفعل ذلك قبل بضعة أشهر خلت، ولكن مع ذلك، لم تكن المدينة منتجع يورو دزني أيضاً. ثمّ أنّ ما شاهده آجاتاشاترو لافاش باتيل في ميناء طرابلس سيبقى لوقتٍ طويل راسخاً في ذاكرته. أقصد حينما شاهد الفتى الأفريقي الذي استسلم خائر القوى وخرّ على الأرض بجانب الجدار وهو يبكي حنقاً وغيظاً بعد أن تمّ سلبه كلّ ما كان معه. تُرى هل عثر على الورقة النقدية؟ تُرى ما الذي فعل بها؟ تُرى أين يكون هذا الفتى الآن؟ أسئلةٌ سوف تبقى إلى الأبد معلّقة ولكن كان الرجل الهندي يفضّل أن يعطي أجوبة متفائلة.

وبالتالي كان موزّع الساندويشات في محطّة استراحة المطار والذي كان يقع تحت فندقه بعدّة طوابق يفرغ، يوماً بعد يوم، بسبب اكتشافاته اليومية في محطّة الطيران.

مقطوعاً عن بقية العالم، كما لو أنّه كان موجوداً في جزيرة خالية من السكان، أعاد الهندي التفكير من جديد في الأيام الأخيرة التي عاشها. تلك الرحلة المجنونة التي قادته إلى هنا في هذه البلاد. تلك الأحداث الغريبة التي جعلت منه إنساناً جديداً. الصدمات الكهربائية الخمس التي انقضّت عليه خلال رحلته السياحية. يصبح المرء فيلسوفاً بسرعة حينما يكون قد عاش دائماً بشحٍّ وتقتير ثمّ بين ليلةٍ وضحاها يجد نفسه مع حقيبة تحتوي على مائة ألف يورو.

في البداية، حينما تلقّى هذا المبلغ، أحسّ بالارتياب وعدم اليقين، لأنّه إذا كان هناك شيءٌ قد تعلمه من الحياة جيّداً فهو أنّ الهدايا لا تسقط أبداً من السماء، هكذا، مجاناً ومن دون مقابل.

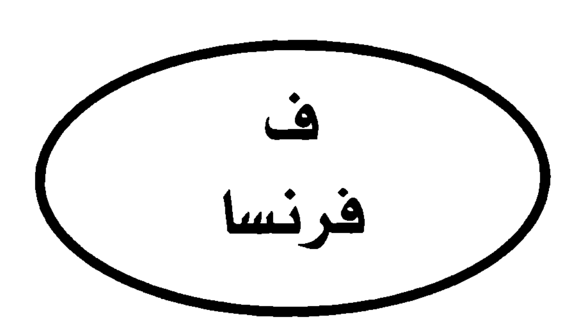
كان العالم مليئاً بالنصّابين والمحتالين والغشّاشين والأقذار من أمثاله. كان العالم ميداناً واسعاً للصيد والمطاردة. وكان يعرف شيئاً عن هذا الأمر لكونه كان هو نفسه نشّالاً ونهّاباً مخاتلاً. ولكنّه حينما شاهد غرفته في الفندق في روما، وذلك البذخ الذي قُدِّم إليه من دون أن يُطالب بأيّ شيء مقابل ذلك، ومن ثمّ كل تلك الأوراق النقدية البنفسجية اللون لقاء بضعة أسطرٍ كان قد خطّها على قميصه، تبيّن له إلى أيّ درجة يمكن للإنسان أن يكون صالحاً وطيّباً. لقد منحه كلّ ذلك الثقة. مثل صوفي مارسو، الممثّلة والنجمة العالمية، التي كانت قد منحته قليلاً من وقتها لكي تهتمّ بأمره وتأتي لتقديم المساعدة له. سيكون عليه أن يشكرها، أن يشرح لها سبب فراره. سوف يكتب لها رسالةً طويلة حالما يصل إلى باريس.

في النهاية، العالم لا يتكوّن سوى من نصّابين ومحتالين وغشّاشين وقذرين. وفي هذه الأيام الأخيرة، كانت اللقاءات التي جمعته بالناس قد علّمته بأنّ هناك منفعة أفضل بكثير من أخذ المال من الناس بطرائق الغشّ والخداع والغدر، إنّها منفعة منحه للناس وفعل الخير والإحسان مع المحيطين به. لو أنّه كان قد سمع هذا الكلام من فم غيره، لوجد ذلك كلاماً معسولاً ومنافقاً، نابعاً من مشاعر وأحاسيس طيّبة، كلاماً ديماغوجياً إلى آخر حدّ. ولكن كان هذا الكلام صحيحاً جدّاً. تذكّر نظرة الرجل السوداني حينما منحه مبلغ الأربعين ألف يورو. لن ينس عينيه عمّا قريب. ولا عيني ماري.

ماري.

إلى اللقاء القريب.

كلّ مساء، كان ينام وهو يُفكّر فيها، على صوتِ الأسلحة الرشاشة التي كانت تبصق سمومها أحياناً ليس بعيداً جدّاً عن مكان إقامته. كانت الحقيبة التي يقبض عليها بشدّة بين ذراعيه تأخذ شكل وركي الفرنسية الناعمين وتُغرقه في أجمل الأحلام.


ف
فرنسا

عشية مغادرته ليبيا، اتّصل آجاتاشاترو بماري من مقصورة هاتفٍ عمومي وأخبرها بقدومه الوشيك إلى باريس وكذلك بقراراته التي اتّخذها. أخبرها بأنّه قد قرّر أن يعانقها ويُقبّلها، وألا يعود ويسحب يده أبداً حينما تداعبها بيدها، وألا يرفض أبداً شرب كأسٍ بصحبتها أو قضاء ليلة رومانسية معها. كان يرغب في أن يذهب ويرى بصحبتها أبناء عمومته الذين كانوا يبيعون أبراج إيفل وشققاً سكنية في ساحة شان دي مارس.

كان يرغب في أن يرى كلّ شيء بصحبتها.

- الأمر الأكثر غرابة وإثارة للضحك في كلّ هذا، هو أنّك ذهبتَ إلى إنجلترا، وإلى باريس، وإلى برشلونة، وإلى روما، ولم تشاهد لا ساعة بيغ بن ولا برج إيفل ولا كنيسة ساغرادا فاميليا ولا المدرج الروماني العملاق كولوسيوم، ولا أيّ شيء من هذا. أنت تشبه إلى حدٍّ بعيد صديقتي آدلين، التي لا تعرف من أكثر العواصم الأوروبية سحراً وفتنةً سوى مطاراتها. إنّها تعمل مضيفة طيران. حسناً، سوف ننطلق نحن الاثنين معاً وسأجعلك تكتشف وترى كلّ هذه «البلدان الجميلة».

استخدمت العبارة نفسها التي كان فيراج يستخدمها «البلدان

الجميلة»، ولم يستطع آجاتاشاترو أن يمنع نفسه من التساؤل تُرى أين يكون صديقه الآن. في كلّ الأحوال، بكلّ تأكيد لن يعود في الطريق إلى أوروبا، جالساً على الأرضية المتّسخة لشاحنة. تُرى هل سيكفي المال لكي لا يعود أطفاله يخفون كرة ضخمة تحت جلد بطونهم، ولكي يُغادر الذباب إلى الأبد شفاههم وبلدهم ولكي يشعّ النور في عيونهم من جديد؟ تُرى هل سيكون كافياً لكي يفكّروا في شيءٍ ما غير الجوع؟

قالت السيّدة الفرنسية وأخرجت آجاتاشاترو من استغراقه في أفكاره:

- لقد سبق وأهدرنا الكثير من الوقت بلا طائل.

أجاب:

- نعم.

كانت عيناه تشعّان وأذناه تلمعان. تخيّلوا الحالة التي كانت ماري فيها حينما أغلقت سماعة الهاتف. تكاد تطير فرحاً، بالتأكيد! لقد استعادت شبابها وغدت في العشرين من عمرها. ارتدت قميصها القطني المخطّط وهرعت إلى المتجر لكي تشتري شموعاً معطّرة وشريحة من لحم البطّ وأربع تفاحات جميلة صفراء اللون.

إنّه لرجلٌ سعيد مَن قام، مثل آجاتاشاترو لافاش باتيل، برحلة جميلة داخل خزانة ومن ثمّ عاد، طافحاً بالأدب والعقل، يعيش مع حبيبته بقيّة عمره...

على مهلك يا فراشة! لا تتحدّث بسرعة كبيرة! قال الرجل الهندي في نفسه وهو جالسٌ في المقعد الوثير المريح لطائرة شركة إيرباص التي كانت تقلّه نحو باريس. نظراً إلى حظّك، لست بمنجى عن تغير مسار الطائرة. وفجأةً، قد تنطلق في جولة جديدة حول العالم!

لن يهدأ لي بال إلّا حينما أحطّ في باريس وحينما آخذ ماري بين ذراعيّ وفي أحضاني. ألقى نظرة على الباقة الجميلة من أزهار اللؤلؤ البيضاء التي كان قد وضعها على المقعد الشاغر بجانبه.

بينما كان يتخيّل مجموعةً إرهابية مدجّجة بالسلاح تنهض دفعة واحدة وتسيطر على الطائرة لكي تقتادها نحو بيروت، أو نحو وجهة أخرى غريبة من هذا النوع، ألقى آجاتاشاترو نظرات خاطفة وحذرة من حوله بكلّ الاتجاهات، بحثاً عن الرجال الملتحين والمعمّمين الذين يلفّون على خصورهم أحزمة ضخمة من الديناميت المتفجّر. ولكنّه سرعان ما تبيّن الله بأنّه كان الرجل الوحيد الملتحي والمعمّم

على متن هذه الطائرة. رجلٌ إرهابي. في نهاية المطاف، ربّما كان الآخرون يفكّرون فيه بهذه الطريقة في تلك اللحظة.

لو كان الركّاب يعلمون. إنّه الآن سيّد، إنّه مهراجا حقيقي، كان يضع العمامة الشديدة النظافة والأنيقة لكي يثير إعجاب حبيبته الجميلة. كان غنياً بما يحتويه قلبه وثرياً بما تحتويه حقيبته. ثمّ إنّه كان يصل إلى فرنسا من أوسع أبوابها. وفضلاً عن ذلك، باستخدام الطائرة وهي وسيلة نقل مبتكرة بالنسبة إلى هذا الرجل الذي اعتاد أن يسافر في الأيام الأخيرة هذه في خزانة من شركة ايكيا، وفي حقيبة سفرٍ من طراز فويتون وفي منطادٍ. لم يعد مهاجراً سريّاً رغماً عنه. لقد انفكّ عنه النحس وحلّت عنه اللعنة أخيراً. وإذا ما فكّر في الأمر جيّداً، فقد كان محظوظاً. كان قد قام برحلة عجيبة من تسعة أيام، رحلة داخلية علّمته بأنّه يمكن للمرء أن يصبح شخصاً مختلفاً من خلال اكتشافه بأنّه ثمّة شيءٌ مختَلَف في مكانٍ آخر.

في اليوم الذي قدّم فيه المساعدة إلى الفتى الأفريقي وفيراج في ميناء طرابلس، كان قد أعطى أكثر ممّا كان قد أعطىٰ طيلة حياته. وليس فقط من وجهة نظر مالية، على الرغم من أنّ مبلغ أربعين ألف يورو يشكّل بحدّ ذاته مبلغاً طائلاً، إنّه ثروة. تذكّر بلذّة واستمتاع الاحساس بالراحة الذي كان قد انتابه في المناسبتين، والسحابة المريحة التي كانت رفعته عالياً أكثر من كلّ النظم والطرائق التي لطالما استخدمها في عروضه. وكان يسأل نفسه الآن مَن عساه يكون الشخص التالي على قائمة المرشحين لنيل مساعدته. أيّ شخصٍ يعاني من الحاجة والفاقة سوف يساعده؟

أعلن رئيس الخدم على متن الطائرة بأنّ الطائرة تبدأ الآن بالنزول، وأنّه يجب على كلّ شخصٍ أن يتأكّد من أن مقعده وطاولته

الصغيرة في وضعية عمودية صحيحة وأن تُطفأ الأجهزة الإلكترونية.

عدّل آجاتاشاترو من جلسته ودسّ قدميه في حذائه الذي ابتلع، من دون أن يعرف ذلك، عدسة لاصقة رقيقة، كانت قد ظلّت ملتصقة بجوربه حينما حكّه بلطف على الموكيت الرقيق لأرضية الطائرة.

كان يشعر بأنّه عائدٌ إلى البيت.

كانت ماري، هي البيت.

فكّر في لجنة الاستقبال الرائعة التي كانت تنتظره في مطار باريس. حبيبته الفرنسية. هل يمكن للمرء أن يحلم بأفضل من هذا؟

في اللحظة نفسها، كانت امرأة فرنسية حسناء مرتدية ثوباً فيروزي اللون وصنادل فضّية اللون تصعد فرِحةً إلى سيارة أجرة صغيرة من طراز مرسيدس حمراء اللون ومحدّبة وقد كُتب على بوابتيها الأماميتين بالدهان **تاكسي جيتان** والتي كانت تصدر عنها أنغام موسيقى الغيتار من ألحان فرقة جيبسي كينغز.

- إلى مطار شارل ديغول، من فضلك. جناح القادمين. سوف أذهب لاستقبال شخصٍ سوف تحطّ طائرته بعض نصف ساعة من الآن قادماً من طرابلس. إنها مدينة في ليبيا. البلد الذي فيه حرب. أقصد البلد الذي كان فيه حرب.

أشار السائق بإشارة من رأسه لكي يقول بأنّه قد فهم، وبأنّه لم يكن بحاجة إلى المزيد من الشروحات والتفصيلات.

كان السائق رجلاً ضخماً له خصلة شعر كستنائية اللون تخرج على ياقة قميصه الأسود. كانت أصابعه المبرومة، المزيّنة بخواتم من ذهب، تمسك بمقود السيارة بحزم كما لو أنّه كان يتأهّب لأن ينعطف ويغادر الطريق في أيّ لحظة.

كان على تابلو السيارة توجد إجازة سياقة سيارة أجرة ملصقة عليها صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود تشير إلى أنّ الرجل يُدعى

غوستاف بالورد، وأنّه من أرومة غجرية صافية وأنّ رقمه هو 45828.

سألت ماري:

- تُرى لماذا هناك باقات ورد موضوعة على أبواب السيارة؟

فكّر غوستاف أنّ الرحلة سوف تكون طويلة وقد اعتقد سابقاً بأنّ فم زبونته مسدودٌ بسحّابٍ هندي.

قال السائق متضايقاً:

- سوف أزوّج ابنتي غداً.

وبدأت أصابعه تنقر على مقود السيارة.

صاحت المرأة بنبرة ابتهاج:

- تهانيّ الحارّة! لا بدّ أنّك فخورٌ وسعيدٌ جدّاً.

تردّد السائق لبرهةٍ، ثمّ أجاب:

- نعم، إنّه زواج مصلحة.

- أوه، لا تقل هذا، يا سيّد. هيّا، ابنتك تتزوّج عن حبّ. لا يسعنا إلا أن نبارك لها، أليس كذلك؟

- عند آل بالورد، لا نتزوّج عن حبّ، يا سيّدتي، وإنّما بدافع المصلحة. الحبّ يأتي في مرحلة لاحقة. أو لا يأتي...

أبدت ماري ملاحظة لكي تغيّر الموضوع باتجاهٍ آخر وقالت:

- وأنت تعمل حتى آخر لحظة!

- يجب أن نكسب المال لكي ندفع ثمن المقطورة الجديدة التي سوف يقيم فيها الزوجان الجديدان.

أجابت الفرنسية التي لم تفهم شيئاً:

- أفهم ذلك.

كيف يمكن للناس أن يقضوا كلّ حياتهم وهم يسكنون مساكن

مؤقّتة ومتنقّلة، وهذا بمحض إرادتهم علاوة على ذلك؟ كان ذلك صعباً على الفهم بالنسبة إليها وهي التي لم تكن قد عانت أبداً من ذلّ النوم في أيّ مكان آخر سوى في سريرٍ كبيرٍ ووثير ومريح، ولا حتى على أريكةٍ.

- زوجها من أين؟

- إنّه إسباني.

- من أين؟

أجاب غوستاف مغتاظاً:

- إنّه من مدينة برشلونة.

ثمّ استرسل في الكلام قبل أن تطرح عليه المرأة سؤالاً آخر.

- سوف يأتي ويعيش هنا، في الضاحية الباريسية، في مجمّعنا. هذا هو اتفاقنا معه. بشكلٍ عام، الزوجة تتبع الزوج، لكن عند آل بالورد، النساء هنّ مَنْ يتّخذن القرار! وأنا. الفتى ينحدر من عائلة غجرية كبيرة في برشلونة. وأنا سعيد بأن دماءنا سوف تمتزج ببعضها.

قالت ماري وهي تنظر إلى الطريق، مطرقة في التفكير:

- زواجٌ مختلط. الاختلاط أمرٌ جميلٌ جدّاً. بالضبط، بالمناسبة، الشخص الذي أنا ذاهبة لاستقباله وجلبه من المطار ليس فرنسياً. إنّه خطيبي (لم يتملّكها الشعور بأنّها تكذب، بل فقط أنّها تستبق الأمور بعض الشيء). إنّه هندي. بقليلٍ من الحظّ، سوف نتزوّج نحن أيضاً زواجاً مختلطاً...

ما الذي جعلها تفكّر بأمورٍ مثل هذه؟ ما الذي جعلها تقول أموراً مثل هذه؟ حقّاً إنّ الأشخاص المجهولين يبتكرون اعترافات أشخاص مجهولين آخرين.

ظلّت ماري تحدّق في نقطة متخيّلة على الطريق قبالتها، نقطة تقع في مكانٍ ما بين المقعدين الأماميين للسيارة. تخيّلت نفسها مع آجاتاشاترو، في ثوبٍ هندي جميلٍ، محاطة بألوانٍ زاهية وببتلات ورودٍ سوف يتمّ رميها على الأرض لدى مرورها. تخيّلت نفسها أميرة حقيقية.

ردّد السائق وهو الآخر مطرقٌ في التفكير:

- هندي... حتى أكون صادقاً معك، يا سيّدتي، لا أكنّ محبّة كبيرة حيال الهنود.

وهو يقول هذا، ترك السائق المقود من يده اليمنى لكي يداعب السكّين ذات المقبض العاجي التي لم تكن تبارح أبداً الجيب الأيمن لبنطلونه.

أضاف قائلاً:

- أعرف هندياً ليس جديراً بالاحترام على الإطلاق. إنّه لصٌّ وسارق. ويمكنني أن أقول لكِ بأنّه لو حصل والتقت طريقانا من جديد، سوف يعاني الأمرّين ويقضي وقتاً عصيباً للغاية على يديّ، صدّقيني...

قالت ماري وهي تحجم عن القول بأنّ الناس يعتقدون الشيء نفسه عن الغجر:

- أوه، لا ينبغي أن تعمّم حكمك، ليسوا جميعاً مثل ذاك الرجل الذي تتحدّث عنه. خطيبي الهندي رجلٌ شريفٌ ونزيه، هل تعلم؟ إنّه كاتب.

ردّد سائق سيارة الأجرة الذي لم يكن قد قرأ في حياته شيئاً اللهمّ سوى خارطة مفصّلة لشوارع باريس:

- كاتب؟

- سوف يكون شرفٌ لي أن أعرّفك به. لدى الوصول إلى المطار، سوف تنتظرني، إذا كان ذلك لا يزعجك، وبهذه الطريقة لن أحتاج إلى أن أستقلّ سيارة أجرة أخرى إلى باريس، وسوف تتعرّف على آجاتاشاترو. أنا متشوّقة لأن أعرّفك به. سوف يجعلك تغيّر رأيك بالهنود، سوف ترى.

- أنا لا أطلب سوى هذا، يا سيّدتي العزيزة.

كانت سيارة المرسيدس المزيّنة بباقات الورد تسير بحيوية على الطريق السيّار.

من حولها، كانت الشمس تميل إلى الغروب بهدوءٍ وبطء، غامرة الأشجار والعمارات بتلوينة برتقالية.

ضرب سائق سيارة الأجرة على جبينه ضربة قويّة ثمّ نظر إلى ساعة يده وقال:

- في النهاية، هل تعرفين ماذا، إنّها لمصادفة حسنة أن تذهبي إلى المطار. في الوقت نفسه سوف يأتي ابن عمي جينو ويصل إلى المطار قادماً من روما. لم أكن أعتقد بأنّه سيكون بمقدوري أن أذهب إلى المطار لكي أستقبله. لقد جاء من أجل زواج ابنتي. إنّه هو من سوف يزيّنها.

تجنّب غوستاف أن يخبر زبونته الفرنسية بأنّ ابن عمّه جينو كان يدير في روما صالون مزيّن روما Coiffeur pour Rome (الفظوا: Coiffeur pour hommes «مزيّن للرجال»)، والذي أصبح اسمه، تحت ضغط تزيين الشبّان الغجريين، مزيّن الرومانيين. لم يكن الأميّون يفرّقون حتى بين غجري من أصلٍ إسباني وغجري روماني أو بلغاري.

تابع السائق:

- إذا كان ذلك لا يزعجك، بينما تذهبين لجلب صديقكِ، سوف أذهب لأجلب ابن عمّي جينو وسوف نلتقي جميعاً بعد ذلك في السيارة. ما رأيكِ بذلك؟ ألن يزعجك أن تقتسمي سيارة الأجرة مع ابن عمي؟

قالت ماري مبتهجة:

- أوه كلا على الإطلاق! بل على العكس تماماً! كلّما كنّا مجانين أكثر، كلّما ضحكنا أكثر!

لم تكن تعلم كم كان كلامها صحيحاً.

* * *

الفصل الثالث

بينما كان ديفانامبيا ينهار، مصعوقاً، على البلاطات الباردة والرطبة لأرضية السجن، سأل وليد أحد السجناء عمّا كان يحدث وعلم بأنّ صديقه قد مات.

فبكى وليد حزناً على صديقه. (لقد تحقّقتُ من المعلومة، العميان يبكون كثيراً.) وقد ذرف كلّ دموع جسده وقلبه في تلك الليلة. وقد سُمع صوت نشيجه ونحيبه حتى في بلده، في أفغانستان.

كان قد فقد لتوّه صديقاً، صديقه الوحيد هنا، في هذا المكان، وقد فقد معه بصره من جديد. وفي ظلّ هذه الظروف، كان السجن سيتحوّل سريعاً إلى جحيم.

* * *

الفصل الرابع

حينما استيقظ وليد بعد ظهيرة ذلك اليوم، كان محاطاً بثلاثة أطبّاء. لو لم يكن مصاباً بالعمى، لاستطاع أن يرى بأنّ الجدران الرمادية والمتّسخة لزنزانته قد تحوّلت إلى جدرانٍ نظيفة وناصعة البياض. وكانت الأرضية نظيفة جدّاً بحيث كان يمكن للمرء أن يتناول الطعام على البلاطات نفسها. وكانت المعدّات الطبية المنتشرة في كلّ مكانٍ تقريباً تعطي الانطباع بأننا في غرفةٍ في مستشفى وليس في زنزانة في سجن.

حاول الضرير أن يجلس في السرير ولكنّ يداً منعته من ذلك في الوقت نفسه الذي حدّثه فيه صوتٌ قويّ وأجشّ بلغة لم يفهمها ولكنّه حدّدها على أنّها اللغة السرلانكية.

حينما أراد أن يسأل عمّا كان يحدث، تبيّن له بأن هناك أنبوباً في فمه يمنعه من الكلام.

من جديد، أمرته مجموعة من الأصوات غير المفهومة بألا يتحرّك وألاّ يبذل جهداً.

ظلّ وليد مستلقياً من دون أن يطرح أسئلة، وروحه تتألّم نتيجة الوضع الغامض، إلى أن جيء، بعد بضع ساعات، بمترجمٍ أفغاني إلى غرفته. وبذلك بات التواصل بين الأطباء والمريض متاحاً وممكناً.

- ما اسمك؟

- وليد نجيب.

قال الطبيب كما لو أنّه يتحقّق من أمرٍ كان يعرفه مسبقاً:

- حسناً.

ثمّ أردف:

- أنا الدكتور ديفانامبيا. هل تعلم أين تكون في هذه اللحظة؟

ديفانامبيا؟ غزا الذهول العينين الميّتتين لوليد. لم يفهم ما يحدث. ربّما يكون هذا اسماً مشتركاً في نهاية المطاف.

غمغم:

- في السجن.

- في السجن؟

على ما يبدو، كان ذلك جواباً سيئاً.

- أنت موجودٌ في كولومبو ميليتاري هوسبيتال، في المستشفى العسكري في كولومبو.

سأل وليد مذعوراً:

- وماذا أفعل هنا في المستشفى؟ هل أنا مريض؟

تذكّر الموت الصاعق لصديقه لدى عودته من نزهةٍ. تُرى هل سيلاقي المصير نفسه؟

- أنت الناجي الوحيد من هجومٍ إرهابي. لقد حدث انفجارٌ قويّ في الطائرة التي كنتَ تُسافر على متنها. كانت طائرة من طراز 747 متوجّهة نحو لندن. حسب كلّ المعطيات، يبدو أنّ انتحارياً قد نجح في المرور من مصفاة نقاط التفتيش الأمنية مع شحنة ناسفة قوية جداً. حينما تمّ العثور عليك، وسط الحطام، كنتَ في حالةٍ يُرثى لها، يمكنني أن أقول لك ذلك. أنت في حالة غيبوبة منذ شهرين وكنّا نعتقد بأنّ كلّ شيء قد انتهى بالنسبة لك. ولكن ها أنت قد استيقظت من الغيبوبة منذ بضع ساعات. هذه معجزة، إن أردت رأيي. إنّها إحدى الهجمات الإرهابية الأكثر دموية في هذا

القرن. قُتل في هذا الهجوم الإرهابي مئتان وثمانية عشر شخصاً. وقد نجا منه شخصٌ واحد فقط.

عبثاً حاول الضرير أن يُنشّط ذاكرته ويتذكّر شيئاً، لكنّه لم يتذكّر أيّ شيء. أو بالأحرى، لم تكن ذكرياته تتناسب في شيء مع ما كان الطبيب قد رواه له للتوّ، كما لو أنّه كان قد عاش حياةً مشابهة حتى ذلك الحين. كانت ذكرياته هو، عبارة عن رجال الشرطة الذين أوقفوه لمجرّد أن اجتاز الرواق، كانت عبارة عن سجن كولومبو، كانت عبارة عن ديفانامبيا. ولكنّه أدرك الآن بأنّ كلّ ذلك لم يكن سوى ثمرة لخياله، مجرّد اختراع من ذهنه أثناء فترة طويلة من الغيبوبة. وقد علِم، من فم الأشخاص الذين لم يشكّوا في أيّ شيء، أقلّه بضريرٍ مسكين ناجٍ من هجومٍ إرهابي، بأنّه كان قد نجح في مهمّته.

لماذا لم يَمُت في حين كانت الشحنة الناسفة مخبّأة في عكازته البيضاء اللون؟!! لم يكن لديه أيّ فكرة عن هذا الأمر. ربّما يكون أحد المضيفين قد أخذها منه أثناء مساعدته في الصعود إلى الطائرة ونسي أن يُعيدها إليه. مهما يكن من أمر، نسب وليد هذا الأمر إلى حسن طالعه وبكى فرحاً لهذا الأمر، مبرهناً بذلك أنّ بوسع ضريرٍ أن يبكي.

* * *

قال آجاتاشاترو في نفسه، مستحيل، مستحيل أن تنتهي الرواية بهذه الطريقة. لا يمكنني حقّاً أن أنهي هذا الكتاب بهذه الطريقة الفظيعة. لا ينبغي أن ينتصر القاتل. عبثاً هذه النهاية أكثر ابتكاراً من

النهاية السابقة، لم يبقَ ما هو أسوأ منها، إنّها سيئة جداً، وهي لا أخلاقية على نحوٍ خاصّ. كانت اللاأخلاقية مفهوماً جديداً بالنسبة إليه.

كانت كرة من ثلاثة أوراق ما رماه في سطل حديد كان موجوداً تحت الطاولة. لم يكُن الكاتب الناشئ يعرف الأسرار الضرورية لتأليف حكاية جيّدة، ولكن في الكتب القليلة التي كان قد قرأها والتي لم تكن تعالج مسألة الشعوذة وخفّة اليد، كان قد لاحظ أنّ القصص، مهما كانت سوداء، ومهما كانت قاسية، كانت تنتهي بشكلٍ عامّ بنهاية سعيدة، أو بعلامة أمل. كما لو أنّ للحكاية ممرٌّ طويل ومعتم وفي نهايته ضوءٌ أبيض وكبير. ربّما بكلّ سذاجة لن ينجح قطّ في إعادة كتابة نهاية روايته. ربّما لم يكن يستحقّ مبلغ مائة ألف يورو الذي أعطي له والثقة التي وضِعَت فيه.

حكاية الضرير الإرهابي هذه، لم يكن لديه أيّ فكرة عن مصدرها، ولكنّها لم تكن تشبهه، على الأقلّ لم تعد تشبهه. كان يريد أن يمنح هو أيضاً بعض الأمل، ولم يكن ذلك سوى من خلال الاحترام لهؤلاء الأشخاص الجميلين الذين كان قد صادفهم والتقى بهم طيلة مغامرته. هؤلاء الرجال، أولئك النسوة، الرجال البيض والسود وصوفي وفيراج والآخرين، كان جميعهم يمتلكون شيئاً مشتركاً ألا وهو القلب الكبير. ولماذا لا يروي هذه الرحلة الأسطورية التي غيّرته إلى الأبد؟ إنّها حكاية حقيقية على الأقل وليست حكاية مختلقة. كانت حكايته هو. الحكاية التي جعلت منه ما هو عليه الآن.

علاوة على ذلك، كانت لديها أفضلية أن تنتهي نهاية حسنة. كان قد عثر على امرأة وعلى عائلة جديدة، النهاية السعيدة الحقيقية.

تماماً مثل الضوء الذي يغمر بألف شعاعٍ حكايةً بعد النفق المظلم الطويل لحياته.

فكّر في عنوانٍ لروايته، معتقداً بأنّه بهذه الطريقة يبدأ المرء بكتابة رواية. «**ما رأيك بالرحلة العجيبة لفقيرٍ ظلّ محبوساً في خزانة ايكيا**»؟ سأل نفسه بصوتٍ عالٍ كما لو أنّ الكلب الصغير في عنبر الطائرة كان حاضراً، وشاهداً على إبداع كتابه الجديد. وتخيّل أن الكلب قد نبح ثلاثاً لكي يشجّعه على اختيار هذا العنوان.

كان هذا العنوان يلخّص تماماً حكايته. حكاية آجاتاشاترو لافاش باتيل، رجل العالم، الفقير السابق الشرقي، الكاتب الجديد الغربي، الرجل الذي اكتشف أوروبا بطريقة عجيبة ومضحكة، في خزانة، في حقيبة سفرٍ، في منطادٍ، في سفينة وعلى سجادة ميكانيكية.

فكّر لبضع لحظات.

حينما وجد أخيراً الجملة الأولى من روايته الجديدة، **كانت أوّل كلمة نطق بها الفقير الهندي آجاتاشاترو لافاش باتيل لدى وصوله إلى فرنسا كانت كلمة سويدية**، ألقى نظرة من خلال النافذة وابتسم ملء شدقيه، من نوع تلك الابتسامة التي تراود الرجال العظام حينما يعلمون بأنّهم على وشك القيام بأمورٍ عظيمة.

ثمّ، مرّر يده على الضمادة الكبيرة التي كانت تغطّي أضلاعه، وتنهّد بعمق وخرج من المقطورة.

قفزت موسيقى آلات الغيتار والصرخات والصناجات إلى مسامعه. للحظة واحدة، اعتقد بأنّه يعيش من جديد يقظاً الكابوس الذي هزّه في إيطاليا. وجد نفسه وقد تحوّل إلى بقرة (مقدّسة)،

ويُشوى على طرف سيخٍ مع ابن عمّته الذي تحوّل إلى طماطم كرزية، ويُلفّ فوق النار على إيقاع أنغام فرقة جيبسي كينغز. يا للهول!

استند إلى باب المقطورة. كان قلبه سيخرج من قفصه الصدري.

سألته أميرة هندية تظاهرت بأنّها ماري وهي ترتدي جلباباً أخضر اللون:

- ماذا كنت تفعل؟

مرتاحاً لكونه لم يكن بقرةً (مقدّسة) تُشوى في محلّها، ترك آجاتاشاترو الباب، واستند إلى ذراع حسنائه وتقدّم نحو الحشد المتعدّد الألوان. كانت حركة الجموع قد انتعشت فجأةً.

- لا شيء، كنتُ أكتب. راودتني فكرة مفاجئة، وأردتُ أن أكتبها قبل أن أنساها.

- اليوم، لا نكتب، إنّه العيد!

وهي تقول هذا الكلام، عانقته الحسناء الفرنسية، وأمسكت بيده ورقصت معه بضع خطوات من رقصة الفلامنكو. إلى جانبهما، كانت فتاة غجرية شقراء ترتدي فستان زفافٍ ورديّ اللون تنقر بالكعبين الخشبيين لحذائها على طاولةٍ.

في اللحظة نفسها، ترك رجلٌ ضخم له كرش غيتاره ونهض من مكانه وجاء باتجاه الهندي. حينما أصبح على مقربة كافية منه ولكي لا يسمعه أحد، همس في أذنه:

- هيّا، لنتسالم ونتصافى، يا أتاش - تون - تورو - لا - فاش. أتمنى ألا تحقد عليّ كثيراً بسبب طعنة السكين.

وضع يده على خاصرة الهندي. ومن دون أن تكون في يده مثلّجة، لم يعد غوستاف بالورد يشكّل تهديداً كبيراً.

- ولكن لا تنسَ اتفاقنا، أيّها القروي. لو لم تعدني بأنّك سوف تُسلّي الأطفال بحيلك وخدعك السحرية الخاصّة بفقيرٍ، ما كانت حتى هذه الورقة النقدية من فئة الخمسمائة يورو التي أعطيتني إياها لتمنعني من أن أحوّلك إلى منخلٍ هندي، أنت تعرف ذلك...

وبما أنّ ماري كانت تنظر إليه، على بعد عدّة خطوات منه، وهي سعيدة وثملة بعض الشيء في آن واحد، لا مبالية في كلّ الأحوال، اعتقد آجاتاشاترو أنّه مضطرٌّ لأن يبتسم. بحث عن الأطفال بنظراته، تنفّس بعمق واندسّ وسط حشد الناس.

بعد أربعة أشهر من الزواج السعيد (لأنّ المطر هطل بغزارة) بين ميراندا - جيسيكا وتوم كروز - خيسوس، طلب آجاتاشاترو يد المرأة التي أحبّها بعد عشاء رومانسي في مطعم ميتامورفوسيس، وهو قاربٌ قديم راسٍ على ضفّة نهر السين وقد حوّل إلى مطعمٍ وملهى تُقدّم فيه عروض سحرية. بتواطؤٍ من المخادع المحلي، وهو رجلٌ كان قد جال مع عظام هذا العالم وكانت صوره معلّقة في كلّ مكانٍ تقريباً على متن القارب، أظهر خاتم الخطوبة في منديلٍ صغيرٍ من الحرير الهندي والذي حملته فراشة ذاتية الحركة ذات أجنحة صفراء وزرقاء اللون وهي تطير حتى وصلت إلى ماري وحطّت بلطف على كتفها. النسخة الهندية لخدعة عام 1845 التي قام بها الساحر - الساعاتي روبير - هودين.

أثناء تناول وجبة الطعام، وقبل أن تكتشف السيّدة الفرنسية بدهشةٍ وذهول خاتم السوليتير الجميل الذي كان مخبّأً في المنديل الحريري، كان العاشقان قد تقاسما جزءاً من حياتهما الحميمية، على الأقلّ من خلال التفكير، مع أقاربهما وأصدقائهما الجدد.

سيهرينغ وأبناء العمّة الأربعة المفضّلين لدى آجاتاشاترو، وذلك وفق ترتيب التفضيل وأولويته بدءاً من جامليداناب ومن ثمّ

فاشاسماتي وريباسماتي وأخيراً باكمان، الذين كانوا يرسلون إليهما باستمرار وبانتظام أخباراً وكانوا يخطّطون لأن يأتوا قريباً لزيارتهما في شقّتهما الصغيرة والجميلة في حي مونمارتر. ربّما سيبقون عندهم ويصبحون جميعاً وكلاء عقاريين في باريس. ففي نهاية المطاف، يبقى برج إيفل معروضاً للبيع دائماً.

كان النجاح العالمي الذي حقّقه كتاب آجاتاشاترو قد أتاح أمام فيراج فرصة العثور على أثر الهنديّ المنفيّ. وقد كتب له رسالةً يهنّئه فيها ويشكره مرّة أخرى على مبادرته الكريمة اتجاهه. بفضل هذه الأموال، كان قد بنى مدرسةً في قريته وحرّر العديد من العائلات من الفقر والعوز والجوع. أمّا الذباب، فقد بقي. لا شيء يمكن فعله ضدّ وجوده.

الآن وقد باتت صوفي مارسو تعلم أخيراً سرّ الحكاية، لم تعد تحقد على صديقها الذي أطلق ذات يوم ساقيه للريح وولّى هارباً مع حقيبة مليئة بالنقود دون أن يقول لها كلمة وداع. كان الصديقان يتقاسمان الآن وكيل الأعمال نفسه وهو هيرفيه الذي ما زالت يداه تنضحان بالعرق بغزارة.

لم يعد آجاتاشاترو مجرّد رجل يكتب قصصاً وحكايات. فلكونه قد تذوّق سريعاً طعم مساعدة الآخرين، وأصبح مدمناً على سحابة السعادة والسرور التي تجعله يحلّق عالياً في السماء حينما يوجّه أعماله الخيرية توجيهاً حسناً، فقد أسّس مع ماري، وهذا بفضل الأموال المهمّة التي جناها بفضل حقوق الكاتب من إيرادات كتابه، جمعية تستقبل وتقدّم المساعدة للناس الأكثر عوزاً وحاجةً.

متأثرين بما عاناه وعاشه آجاتاشاترو في الشاحنة الثقيلة التي كانت متوجّهة إلى إنجلترا، انكبّ مصممو شركة ايكيا على اختبار

نموذج مبتكر وغير مألوف من خزانة مزوّدة بتواليت وبجهاز إنقاذ. سوف تحقّق هذه الخزانة من دون أدنى شكّ أفضل مبيعات للشركة في الأشهر المقبلة على الحدود اليونانية - التركية.

أخيراً، تحدّث العاشقان عن غرق آخر سفينة من حيث التاريخ، وعن ذلك القارب البدائي الذي اختفى مع ستّة وسبعين لاجئاً كانوا على متنه في مكانٍ ما بين ليبيا وإيطاليا. كان العديد من الطائرات المروحية التابعة لخفر السواحل الإيطالية تحلّق في تلك اللحظة فوق البحر الأبيض المتوسّط بحثاً عن القارب الغريق. وعلى الرغم من الجهود التي تبذلها أطقم النجدة، لن يتمّ العثور عليه لا هو ولا الجثّة الهامدة الخالية من الحياة لذاك الفتى الصومالي البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، والذي يُدعى إسماعيل، والذي كان قد أبحر على متنه ذات صباح، مليئاً بالأمل، بعد أن أرسل له الله علامة فرجٍ حينما أسقط بجانبه الورقة النقدية من فئة الخمسمائة يورو والتي أتاحت له أن يدفع ثمن عبوره على متن القارب.

خلال وجبة العشاء تلك على أضواء الشموع، كان ثمانمائة وأربعة وخمسون مهاجراً سريّاً يحاولون بطريقة غير شرعية عبور حدود «البلدان الجميلة» والاستمتاع بدورهم بعلبة الشوكولا المذهلة هذه. وصل منهم واحدٌ وثلاثون مهاجراً فقط إلى هناك، وقد استقرّ الخوف في بطونهم حينما أبطأت الشاحنة سرعتها ولكنّها لم تتوقّف عن السير تماماً.

في ذلك اليوم، لم يكتشف الضابط سيمبسون أيّ مهاجر غير شرعي آخر مختبئاً في خزانة من طراز ايكيا. ربّما يكون ذلك لأنّ الضابط الأعلى رتبةً منه، بعد أن قرأ رواية آجاتاشاترو لافاش باتيل وعلِم بأنّه كان بريئاً، قد رقّى راجْها سيمبسون إلى حارس الممرّ على

مرافئ ميناء دوفر. كان النشاط اليومي الأكثر وضوحاً للضابط من الآن فصاعداً هو رمي قطع كبيرة من الخبز اليابس إلى النوارس، النشاط الذي تمنى أن يراه سريعاً وقد أصبح نظاماً أولمبياً.

بالطبع، وافقت ماري وقالت: نعم.

جاثياً على ركبتيه أمامها، ألبس آجاتاشاترو خاتم الخطوبة الجميل في إصبعها. ثمّ نهض واقفاً وعانقها وقبّلها قبلةً عميقة وطويلة وهائمة تحت وابلٍ من الابتسامات والتصفيق الحارّ. بعد ذلك ببضعة أيام، أخذ خيّاطٌ هنديّ كبير مقاسات السيّدة الفرنسية لكي يخيط لها سارياً هندياً فاخراً باللونين الأحمر والذهبي. وكانت السيارة التي سوف تقلّها من حيّ مونمارتر إلى المعبد الهندوسي، هي الأخرى جاهزة بانتظارها. كانت سيارة قديمة من طراز مرسيدس حمراء اللون، محدّبة على نحوٍ خفيف وقد عُلّق بها مجموعة جديدة من طناجر ايكيا والتي سوف تسمع صوت رنينها حتى الكثبان الرملية البعيدة المرصّعة بالنجوم في صحراء تارتار.

رومان بيرتولاس

الرحلة العجيبة للفقير
الذي ظلّ حبيساً في خزانة ايكيا

الرحلة العجيبة للفقير الذي ظلّ حبيساً في خزانة ايكيا هي مغامرة طريفة ومُضحكة تجوب بك الأركان الأربعة من أوروبا مروراً بليبيا ما بعد القذّافي. تحت غطاء حكاية حبّ غريبة ومشوّقة، تُشعِرك هذه الرواية بقساوة المنفى وشدة الصراع الذي يخوضه يومياً المهاجرون غير الشرعيين، الذين يُعتبرون آخر المغامرين في هذا القرن الذي نعيشه. إنّها حكاية هزلية، ولكنّها أيضاً وقبل كلّ شيء نقدٌ لاذع للعالم المعاصر ودعوة إلى التسامح والانفتاح على الآخر.

❖ ❖ ❖

«إنّها تحفة الموسم الأدبي! رواية حبّ ورأفة وإخاء من الطراز الأوّل، تثير فيكَ الفضول وتجول بك في كلّ الاتجاهات لترفعك إلى سابع سموات القرّاء».

مكتبة فيليغران

«لقد وقعتُ في حبّ كتابٍ مثيرٍ للغاية. إنّه كتابٌ رائع ورواية تحفل بالهزل والجرأة والأفكار على نحوٍ مذهل. إنّها رواية متوهّجة».

إذاعة فرانس أنتر



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

